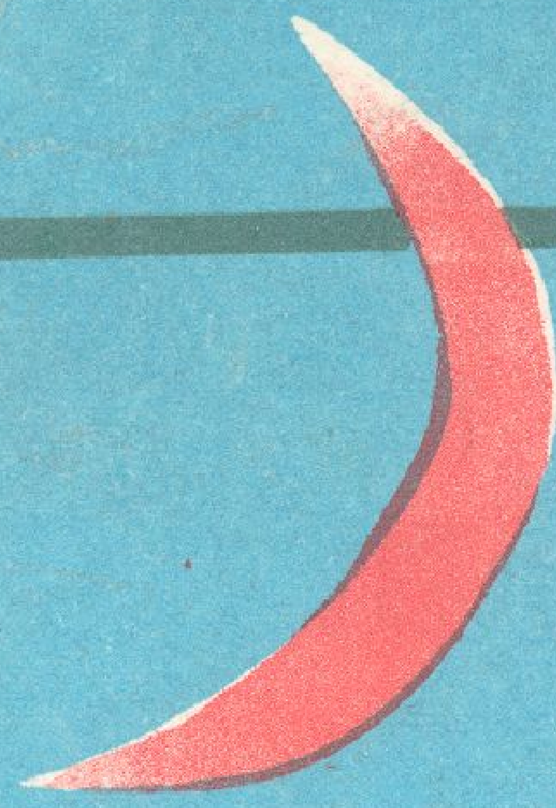
المجلس الأعلى للثقافة



الوطن والغربة

تأليف: رمسيس سدراك

المجلس الأعلى للثقافة

الوطن والغربة

تأليف
رمسيس سدراك

مقدمة
بقلم
أمين ريان

يهدى الدكتور رمسيس سيدراك قصصه الى قريته السراقنا بالصعيد وكذلك الى قرية رودجرستون بانجلترا ... وهو بهذا الاهداء يقدم اول انتاجه الى انسان الشرق والغرب على السواء ...

لقد بحثت خلال قراءتى لهذه المجموعة عن المنطلق الذى دفع بالدكتور الذى قامت دراسته على مناهج علمية صارمة ـ الى ممارسة الأدب والمشاركة فى هموم المواطنين بمسقط راسه او هموم المجتمع الغربى ... وعثرت على نقطة الانطلاق فى قصة «الأصدقاء والقرعة»... فى هذه القصة البسيطة يحكى الراوى عن زميل له من زملاء الدراسة هو « فؤاد » جعل هدفه أن يحصل على أعلى الدرجات العلمية مضحيا فى سبيل ذلك بكل أشواق الوجدان ومتطلعات النفس ... ويحصل فؤاد على أعلى الدرجات العلمية ـ لكن تعاجله المنية قبل ان يسعد بما حقق من هدف أو يشبع ما أرجأ من أشواق ...

لقد فتحت هذه الصدمة وجدان الدكتور رمسيس على اهم حقائق المصير البشرى واكسبته التجربة المباشرة شمولية فى التفكير والشعور أنقذته من الانشطار الحاد الذى يعانيه انسان المدنية المعاصرة .. لقد تأكد ذلك فى قصته «من أى معدن هو» حيث نجد المؤلف فى سياق مناقشة مع أحد المبشرين بالاتجاهات المادية وهو يتساءل :

« هل هناك بقية من مشاعر انسانية تحت هذا القناع الحديدى ؟ »

ونفس التساؤل يتردد على لسان الراوى ولكن بصيغة اخـرى خلال حوار مع صحبة من متـذوقى الفن «قصـة اللوحات» مالنا فى بلدنا وهذا التجريد ..؟ ففى هذه القصة يذكر الراوى أنه شعر أن الرسام قد خدعه بلوحاته ـ ولعله يقصـد أن الفنـان المصرى يبتعد بوجـدانه عن أزماته الحقيقية ليقلد الفنـان الأوربى الذى عانى حروبا وايدلوجيات تجريدية افقدته الانتماء وأصابته بالغربة ..

ان المؤلف يمارس الحوار مع نفسه والآخرين لكنه يرفض التحدث كاننا آلات ، كما يرفض رأى صديقه الذى حدد حركة الحيـاة بأنهـا صراع طبقات .. وفى هذا الصراع يكون الانسان اما قاتلا أو مقتـولا «قصة من أى معدن هو» فهو يعلن «أن لا مجال الكبرياء أمام الموت فى هذه الحياة القصيرة » .. وفى هذه القصة عندما يسخر صديقه من تخلفه عن الواقع وتمسكه بالايمان فانه يسأله عن أى واقع يتحـدث ـ عن واقع الكيمائيين أم واقع السيكولوجيين !!

وهو بهذا ينبه الى الصدع الذى نشـأ عن التخصص فى مدينـة افقدت النفس تكاملها ووحدتها الباطنية لذلك فهو يجيب :

« بأن روح الله هى العامل المشترك بين ضروب التشابك » ..

لقد اقتحم الدكتور مشاكل العصر فى منابعها الأصلية بعد أن قرر ان فكرتنا عن الغرب انما كونتها شركات الأفلام التى تصدرها لنا هوليود فاتجه الى عواصم أوروبا ..

وفى قصة «نيجل فى مفترق الطرق» يصادف من يسأله ان كانت قراءة التاريخ هى الدواء الشافى لأسقام البشرية ... ونستمع الى من يحدثه عن سبعة أخطار تهدد البشر أشدها الاهمال ..

وفى قصته « على ضفاف قنوات امستردام» يسعى مع رحالة انجليزية تبحث عن السكينة الروحية بالبحث عن جماعة من الوعاظ الجوابين .. ويختلف مع زميلته الانجليزية بسبب الاساس الذى يجب ان يكون اللبنة الاولى فى قيام العلاقات الانسانية وان كان هو الأسرة بمعناها التقليدى أم العائلة البشرية بمعناها التجريدى ... وهو فى هذه القصة يعيد الى ذاكرتنا تجربته التجريدية بأرض الوطن والتوقعات التى ظن أنها ستذهب عنه الملل والقلق ... لقد كان يتوقع أن المواعظ التى تسعى اليها الرحالة الانجليزية ستؤلف بين قلبيهما وتذهب عنهما الوحشة .. لكنه انهى هذه التجربة قائلا :

« انه رغم القلق المشترك شعرنا أننا نخـرج أكثر غـربة » لأن الانجليزية لم تصـل الى ايمان بهذا العالم .. ولا الايمان بالعالم الآخر .. لقد اكتشف ان الانسان الاوربى يواجه عصر التجريد بالمخدرات التى تقتل الحياة كما يواجهها ذوو الافكار المتعصبة «فى ارض الوطن» بأيدلوجيات تقتل الحياة .. ونسمعه فى ختام قصة «نيجل فى مفترق الطرق» يقول : «نظر نيجل الى صديقه الذى فقد الوعى بتأثير المخدر ثم قال .. سأحارب المخدرات » .

ان الدكتور رمسيس يعالج بالطب جسم الانسان وبالأدب يعالج روحه فى زمن تغلبت فيه السقام الروحية على أمراض الجسم ..

فما أجدر الوطن بنشر انتاجه وما أجدر العربية بضم أدبه الى فنونها ...

الدكتور رمسيس سدالله

ولد بجزيرة الروضة بالقاهرة عام ١٩٣٥

طبيب أسنان .

بدأ يكتب القصة القصيرة جدا وهو فى الجامعة . وكان يتردد على ندوة نجيب محفوظ فى كازينو أوبرا . غرامه الأصلى الرسم والآداب . لكنه قرر أن يدرس أيضا العلوم حتى يقدم خدمة فعالة للناس وعملية أيضا . وهو شغوف بالطب العام .

عانى فى دراسته ولكنه استمر ، كذلك لم يهمل الكتابة أو الثقافة واستمر فى رحلة البحث ووجد أصدقاء يفكرون على نفس النمط فى كلية الطب .

سافر الى الخارج عام ١٩٦٦ وفى جيبه ١١ جنيها وحقيبة وزوجة حامل وطفلة . وكافح ـ ساعده الوجود فى الخارج على العمل على استكمال رؤيته الشاملة للحياة ومفهومها ـ وهو متصل ببعض الحركات الفنية هناك الآن . وكتب الشعر بالانجليزية .

وهذه القصص كتبت على مدى العشرين عاما السابقة كلها ؛ بعضها عن مصر وبعضها عن الخارج .

الإهـــــداء

الى قرية السراقنا المكافحة في صعيد مصر .. والى

قرية رودجرستون الهادئة بالجـزر البريطانية ،،

المحتـــوى

الموضوع	الصفحة

حجرة كل شيء

قرع الجرس .. اندهشت من بالداخل .. فالجرس قد سرقه لص .. ذهبت لتفتح .. بان له شبحها الفارع خلف الزجاج .. وبان لها شبحه القصير وعرفته على الفور .. فهي كثيرا ماتفكر فيه .. فتحت ورحبت .. كانت فى ملابس العمل تستعد للخروج .. قالت بدهشة :

ـ اهلا ، كيف قرعت الجرس ؟ الجرس سرق .. لقد عدت للتو من عملى .

ـ آه .. قربت السلكين احدهما للآخر .. هذا شيء بسيط التيار ضعيف فى اسلاك الاجراس .. الا تذكرين دروس الطبيعة والكهرباء ؟

لم ترد .. ودخل الى الممر الضيق ثم الصالة الرحبة .. انعشته رطوبة البلاط بالمقارنة بحرارة الجو فى الخارج :

ـ انك مسافر ، اذن كيف الحال ؟

ـ خير ، كيف حالك أنت ؟

ـ كما ترى شغل حتى الواحدة بعد الظهر ثم اجرى عائدة الى البيت حين تنتهى «نوبتجية» المربية .. حضرتها ترفض العمل اكثر من نصف اليوم .. طبعا لا استطيع ترك المطبخ للخادمة . هى تعمل فى مستوصفك . قل لى هل زوجى يعاكسها حين يأتى عندك ؟

قالتها ضاحكة ضحكة متهافتة ضعيفة .. ورد وهو يعرف انها تعنى السؤال :

ـ كلا .. مشكلة .. انت دقيقة شديدة التدقيق فى بيتك وعملك .

هو يعرف انها تشك أن الفتاة الصغيرة الأنيقة اليتيمة تعاكس زوجهـا وانها تتـدلل على الأطبـاء والمرضى الرجال ، لكنهـا لا تحب أن تفصح عن مخاوفها حفظا على كرامتها .

ـ لو لم تستطيعى الانتهاء من العمل مبكرا لكان الحال أصعب .

ـ نعم .. هل أتيت لتأخذ الولد ؟ لاحظت شيئا من البثـور على جلده ، وضعت لكم مرهما فى اللفافات .

ـ شكرا جزيلا .. بنتى « نزهة » لم تعد بعد من المدرسة .

دخلت من فتحـة باب الحائط الزجاجى الواسـع بين الصـالة والحجرة ثم عادت وهى تحمـل الطفـل ، شـارحة سـبب اللخبطة فى الحجرة .

ـ هذه حجرة كل شىء ، اضع فيها لعب الأطفال ونتناول فيهـا الطعـام ، ويعمل فيها نشأت حينما يريد ، وكذلك أنا .. كيف حال نايله ؟ قابلتها أمس تسير على عجـل .. لم نتـكلم سوى عشرة دقائق فقط .

ابتسمت وهى تقول ذلك . ابتسم هو أيضا فهى وزوجته صديقتان حميمتان .. كانت تعرف أنها كثيرا ما تجلس فى حجرة كل شىء فى سكون وتحلم أحلاما غريبة لا منطقية لا تدرى أسبابها .. قدمت اليه طفلا ملفوفا بيد وهى ممسكة بغطاء رأسه باليد الأخرى .. وضعت الغطاء على الشعر الأسود الناعم فتدلى طرفا الرباط أمام خديه .. كان سارحا قليـلا .. يعجبه هدوءها ، لكن الزواج شىء يبعث على الجنون .. هو يسمع عنهـا وعن زوجها من زوجة ثانية .. هى يعجبها فيه نشـاطه وعدم خوفه من الاقتراب والتودد النظيف للنساء وليس مثل زوجها الذى يقابل النسـاء بأدب جاف .

قالت له بتؤدة وارهاق عاطفى جعل بدنها يخور لسنين طويلة .. تمنت لو يلمسها أكثر لكنها طردت الخاطر بهدوء :

ـ أمسك أنت بطرف الرباط وسأمسك أنا الطرف الآخر .

تلامست أصابعهما عند العقدة .. اختفت ابتسامتها السخيفة التى لا معنى لها تدريجيا . نظر اليها نظرة قصيرة فى شىء من الألم .. ودعته حتى الباب وسألته عن زوجته نايلة مرة أخرى ، وكأنها تحاول أن تؤكد

لنفسها ولاءها لصديقتها رغم فراغها العاطفي الشـــديد الذى لا تريد أن تعترف به ٠

في المساء كان كامل أخو المهندس نشأت يذاكر دروسه التوجيهيــة وقد خرج نشأت وزوجته الدكتورة معا لأول مرة منذ سنين٠٠ كانت حليمة الخادمة جالسة فى المطبخ تتفرج على صور النجوم فى مجلة قديمة لكنها فى الواقع كانت قد انتهت من التصفح قبلها بكثير وتحرك يدها بحـركة آلية تماما ٠ تركت المجلة واتجهت في هدوء وقلبها يدق نحو حجرة كامل ٠٠ كانت تفكر فى فيلم الأمس وكأنها فى حلم ، درامى عاصف وخيالها منحصر فى الممثل البطل والبطلة الرشيقة الجذابة ٠ الممثل وسيم جدا شعره لامع وأبوه تاجر ٠٠ أما هـــو فيملك ســـيارة ويعمل فى شركة والتمنيات تنساب أمامها كأنها غير خارجة من صدرها ٠٠ آه لو كان كامل مثـــله ، لكنه يذاكر التوجيهية ، ويتعثر ، وهو وســيم لكن جسمه طرى كطفل ٠

اشتدت عليها وطأة الأحلام ، لكن لم يكن أمامهـــا غيره ٠٠ ارتدت فستانها اللبنى بعد أن لم تجد مفرا من الذهاب الى كامل ٠٠ شـــدت حمالة الفستان اليسرى عن كتفها الى ذراعها مثل البطلة سميرة ٠ دخلت وجلست على كرسى الى جواره ووضعت رجلا على رجل ، أظهرت له ساقها اليمنى بعد أن شمرت فستانها بيدها عن فخذها ٠ توقف كامل عن البحلقة فى الكتاب :

ـ سيبك من المذاكرة وسيبك من السهر وتعالى هاتى لى كأس بيرة وسيجارة ٠

رفعت ذراعها الى عنقه فى حركة غير محسوبة فرجعت حمالة الفستان وغطت كتفها ٠ قربت رأسها الى رأسه لـكنه لم يفهم ولم يمـــل رأســه نحوه ٠٠ كانت عنقـــه صلبة ٠٠ تضايقت بشـــدة وأحست بخيبة أمل شديدة على شكل ألم فى معدتها ٠ فكرت أن تقبله لكنها لم ترد أن تكون هى التى تفعل ذلك ٠ أن سميرة لم تفعل ذلك فى الفيلم ٠٠ الفتاة عليها فقط أن تقوم بالاغراء وعلى الفتى أن يمسك يدها بين يديه ويقول لها انه يحبها وانها أجمل امرأة فى الدنيا ثم يشربا معا ويعربدا وتأخذ هى كل فلوسه وتستعبده ٠٠ أخذت تفكر :

سميرة تلك هى مثلى الأعلى ٠

ظهرت « شيطانى » فى الفيلم ٠٠ هى لم تكن غنية ولم تملك سوى بدلة رقص وفستان واحد ٠ أبوها يمكن أن يكون سباكا أو زبالا أو فلاحا مثل أبى وأهلى فى القرية ٠٠ أنا لن أستطيع أن أصبح دكتورة مثل سيدتى ٠٠ هل أنا غير جميلة ؟ كامل واجف لا يتحرك ٠ لا أستطيع أن أتزوج رجلا متعلما مثل أصدقاء سيدتى لكنى أستطيع أن أحاول أن أصبح ٠٠ غانية من غوانى الليل وربما ٠٠ نجمة سينمائية ٠ لا يجب التمادى فى الأحلام ٠٠ أسبلت جفنيها قليلا لتراقب كامل أكثر ٠٠ تراجعت فوجدت وجهه أحمر وقد زاد النمش فى وجهه احمرارا ٠٠ لم تفهم أنه مرتبك ٠٠ انها تعرف من طراطيش كلام أن احدى ممثلات السينما كانت خدامة والأخرى ٠٠ أسقط فى يدها ٠ ظلت عشر دقائق فى حجرته ثم قالت وكأن شيئا لم يحدث :

ـ يجب أن أغير قميصى الآن لأننى عرقانة ٠

لم يفهم لماذا قالت ذلك بتلك الطريقة وظل يفكر فى الأمر طوال المساء ٠

عاد نشأت وزوجته متأخرين قليلا وناما على الفور ٠٠ لكن نشأت لحظ أن شقيقه كامل ظل يشعل نور حجرته ويطفئه ٠٠ عاد وأضاءه ٠٠ قال نشأت لزوجه فى قلق شديد :

ـ لا أدرى ما الأمر مع كامل ؟ سأذهب لأرى حكاية هذا الولد ٠

ضحكت زوجه خفية وقالت :

ـ لم جسدك العارى الكبير فى الروب ؟

ربط الروب جيدا وهرول الى الخارج وجبينه مقطب وحاجباه معقودان وقد زم شفتيه ٠

فى عصر اليوم التالى كانت نايله تقرع باب صديقتها ٠٠ فتحت الباب وقبلت احداهما الأخرى ثم بدأ العتاب وردت نايله :

ـ ماذا أفعل فى مواعيد الشغل السيئة وبدون مربية أو خادمة ؟ ٠

لكنها أخبرتها أنها فى خلال أسبوع ستحصل على خادمة من البلد ٠٠ وهنأتها ثم عادت وحذرتها ٠

ـ لعلها لا تصنع ما صنعت خادمتنا ٠٠ لا أدرى ماذا حدث لها لتقدم على هذا التصرف ٠

ـ ماذا فعلت ؟ أخبريني بسرعة ٠

قالت وهي تضحك تارة وتكشر تارة أخرى :

ـ أشياء مضحكة ، أمس عدنا ونمنا ولكن نشأت أيقظني وقال ان النور مضاء في حجرة كامل ٠٠ ذهب اليه وسأله عن الأمر فأخبره بأنه لا يستطيع النوم ، وقال ان الخادمة جاءت اليه في المساء وأخذت تأتي أمامه بحركات ، وسأله عن معنى تلك الحركات ٠٠ البنت هادئة وصامتة عادة ، لكنها أتت بتلك الحركات أمس ٠

وحكت لها عن كل ما عملته وكل ما قالته ٠ وردت نايله بحذر ودهشة :

ـ هذا حدث بالأمس ؟ خرجتم اذا ؟ ألف مبروك ٠

سطع شهاب من سعادة على وجهها ثم انطفأ ٠ اندفعت تمرح بما كانت لا تفضي به الا في كلمات متفردة في أحاديثهم قليلا :

ـ هكذا هو دائما ٠ مشغول في الصباح وفي المساء ٠ ويا ويل من يقلق نومه في الظهيرة ٠٠ انه يصحو بصداع ووعكة مزاج لا ينفع معها الشاي أو القهوة والاسبرين ولما اتحدث اليه في هذا وأسأله أن يلتفت الى ٠٠ فعلت هذا مرة فهددني بأن يشكوني لأمه ٠ النقود !! هو يعطيني كل ما أريد ٠٠ كل ما أريد ٠٠ وهو يحنو على أخيه ويحبه جدا ٠

ـ يشكوك لأمه ؟

ـ لأمه ٠

ـ لأمه ؟ ٠٠ تصوري ٠

كانت نايله تقول لزوجها دائما ان نشأت يبدو غريبا أحيانا ، وأن عنده شيئا من طباع النساء ولكن لم يخطر على بالها على الفور العلاقة بين هذا وتعلقه غير العادي بأمه ٠ كانت تفكر في لطفه وابتسامته الغريبين ٠٠ الابتسامة الطفولية واللطف الذي يصل الى حد الرقة ٠ هذا اذن يبرر كلماته القاسية أحيانا لزوجته وقراره المتعنت وروتينه الصارم ٠ كانت تبرر ذلك سابقا بأن ذلك لصنف من الرجال لا يحب الاهتمام بالنساء كثيرا لأن به ما يكفيه من مزيج الرقة والصلابة ٠

يشكو لأمه ؟

ضحكت الزوجة ولم ترد ·· بدأ جسدها الفارع الطويل وهى تضحك متهافتا وبدا شحوبها أكثر وضوحا ·· اتسعت ضحكتها وعادت وأماتتها ثانية ·

عادت نايله الى البيت ·· لم يكن صالونها مذهبا ولا عندها خادمة لكنها سارت بحذر فى الظلام لكيلا تصطدم بالأثاث الضخم الذى يملأ ثلاث حجرات ·

فى حجرة النوم وضعت طفلها فى سريره وذهبت نحو المرآة ، وأطاقت شعرها بنعومته وفحومة سواده ·· بعد لحظات أصبحت الرأس رأسين ·· اندفن الرأس الآخر فى الخصلات وقبل الشعر الاسود بشفتين نهمتين ثم تحول يقبل الوجه القابع داخل الشعر الأسود ·

تقطب الوجه وابتعد عن المرآة ودفعت الذراعان الملساوان النحيفتان الذراعين القويتين ذوى الشعر الكثيف ، وعادت نايله وتوجهت الى سريرها المفرد وعيناها سارحتان فى الظلام ·

ان لى زوجا يهيم بى وأتدلل عليه كيفما أشاء ·

انصرف زوجها الى الخارج يشرب سيجارة ويفكر فى عمله وفى زوجة نشأت ، وحجرة كل شىء التى أخبرته عنها نايله ·

فى العصر قبل أن يخرج نشأت قال للخادمة صائحا وهى تقدم له القهوة :

ـ اجمعى حاجياتك وخذى بقية حسابك وانصرفى الآن ·

اختفت الخادمة بصينية القهوة ، وهى تتراجع بظهرها نحو المطبخ مالت زوجته الطيبة بجسمها على كرسيه وقالت معاتبة وهى تلمح شبه جذل على وجهه :

ـ لماذا تركت الأمر الى الآن ؟ الوقت غروب والدنيا ظلام وهى لازالت فتاة لم تتزوج ·

قال فى ضيق وتبرم :

ـ حتى تنتهى من عمل اليوم · وسآتى بغيرها غدا ·· هل كنت أترك بيتك بدون خادمة ؟

قالت زوجته فى اشفاق وشبه توسل :

ـ حرام .. انها مراهقة نامية.. دعها تبيت الليلة وسأغلق عليها المطبخ بالمفتاح . هذه مسئولية . سأعنفها وأهددها بالقتل .

قال لها :

ـ افعلى ذلك اذن وسأرحلها غدا لبلدها .

ونهض من مكانه وارتدى جاكتته بعناية وحذر ثم ارتشف آخر رشفة من القهوة وهو واقف واتجه نحو الباب :

ـ كلا . لا يجب أن أرى هذه الفتاة هنا عند عودتى فى المساء . هل أنتظر حتى يرسب الولد فى توجيهى ويفشل فى دخول الهندسة ، ويدخل كلية معلمين أو معهدا ؟

ـ سأغلق عليها المطبخ وسفرها غدا اذا .. حرام .. انها بشر .

وأرادت أن تقول « مثلنا » لكنها لم تجرؤ .

فى الصباح أمسكت سيدة حليمة بالتليفون واتصلت بصديقاتهـــا واحدة بعد الأخرى تسأل عما اذا كانت احداهن تحتاج لخادمة . وجدت واحدة لكنها خافت على ابنها من الخادمة .. وجدت أخرى لكن تلك خافت على الخادمة من ابنيها .. أغلقت الدنيـــا فى وجهها تماما . هكذا الدنيا ، الكل يريدون خدما .. الا حين تكون هناك خادمة تحتاج للاستخدام . الفتاة لا تختلف الآن عما كانت عليه بل هى تبدو أكثر هدوءا . وجدت ثالثة عنـــدها أبناء ولم يهمها تصرف البنت الشاذة . هـــذه المرة خافت على البنت من السفرجى لأن زوجته تغار جدا وهى لا تريد أن تفقد السفرجى .

نزلت الخادمة أثنـــاء انشغال سيدتها بالمحادثة وتكلمت مع المكوجى عن عزم سيدها على طردها ، بينما كان هناك رجل أعزب أنيق يقف فى انتظار ملابسه . انتحت بالمكوجى ركنا حتى لا يسمعها الغريب وافهمته كذبا أنها لا تستطيع أن تعود الى بلدها لأنها بلا أهل . أنتحى المكوجى بالرجل العازب ركنا .. وقبل أن تسأله عن بيت ومأوى أفهمها صراحة أن الرجل مستعد أن يستخدمها ، وأخبرها أن الرجل عازب . أعطاه الرجل خمسة جنيهات . وعادت الى البيت . أبلغت السيدة أنها وجدت جارة تأويها تلك الليلة .

أعلنت الخادمة أنهـــا وجدت عملا وانهـــا ذاهبة .. اعترضت سيدتها بشدة .. ادعت الفتاة الذهاب لدورة المياه وتسللت بصرة هدومها هاربة قبل أن تهيىء لها سيدتها مستقبلا عند عائلة .. ثم عائلة .. ثم عائلة .

في ظهر آخر الأسبوع ذهب زوج نايله لأخذ الطفل من صديقتها · فتحت الباب · جلس على حافة الفوتيل يقضم أظافره ويضع برود نايله جنبـــا الى جنب نشأت وقسوته على زوجته ·

عادت بالطفل ·· أعطته لفافة وقدمت الطفل اليه · تلامس كفاهمـا فأمسك بكفها ·· أحس بأصابعها وكفها الذى يكاد يكون فى حجم كفه ·· قالت له فى نعومة :

ـ أنت تربط طرفا وأنا أربط طرفا فى رابط طاقيته ·

صمت ·· وأحست بصمته وما يدور فى داخله ، وعرفت من صمته أنه يعرف ما يدور بداخلها ·· اللحظة الطويلة تستطير بالروعة والبهاء، وهى لا تفكر فيما قبلها أو ما بعدها · حاول الا ينظر الى عينيها ·· تباطأت حركتاهما · نظراته انحدرت من وجهها الى رقبتها الى ذراعيها · كانت تضع فى أذنها قرطا يمور بلون البحر العميق· تذكرالاسكندرية وشاطئها فى حنان شديد · قرط زوجته من الفيروز ·

فى هدوء أمالت رأسها ونظرت اليه ·· صعدت أصابعه الى شعرها ·· ولم تتحرك ·· أحس بتموجاته ·· ولمس خشونة أحس بجمودها ·· شم رائحة جنزبيل · انطلقت من صدرها آهة ·· أخذت نفسا عميقا من فتحتى أنفها المستديرتين ·· نظرت اليه فى تجلد وشرود ·· لم يعرف ماذا يريد تماما ·· ثم اذا به رويـــدا رويدا يكتشف أنه يريد هذه الرقة والعذوبة فى نايله بشعرها الأسود وعظمتى وجهها الناتئتين ·

فجأة ·· أحس بشىء رطب فى يده القابضة على الولد ·· انهـــارت عيناه وانكمشت جبهته فى بطء · أدركت هى ما حدث وخوى كل ما فى نفسها ·· ورأى ابتسامة بطيئة تتكون على وجهها ·

كانا واقفين عند هذا الحاجز الزجاجى بين الصالة وحجرة « كل شىء » قال ·

ـ انى أعزك كثيرا ·

تفادت عينيه .. نظرت حولها ثم الى داخل الحجرة فى راحة .. بدأ يبتسم فى حذر .. وفجأة انفجرت ضاحكة فى خفوت وقالت بعـــد أن انتهت من الضحك الطويل :

– احنا ناس عندنا عيال يا بنى .. انتهى زمان الغرام .

نظر اليها بمزيج من الدهشة والفهم والاعجاب .. عاد الى نايله بالولد مبتسما .

سألته نايلة :

– لماذا تبتسم ؟

حفل افتتاح القصر القديم

مررت على منزلهم كالعادة بلا هدف معين فى عطلة نهاية الأسبوع فى بيتهم فى مدينة « تشيستو » الأنيقة بجوار كوبرى « السيفرية » الضخم المشهور · سنى ثلاثون عاما وهمـــا يكبرانى بعشرة أعوام · ليس لى أصـــدقاء مصريون الا فى لنـــدن · مصريون وفلســـطينيون وأردنيـــون وهنود · وجدت « ماريان » زوجة « مالدون » تفتح لى وتدخلنى الى صالة الجلوس الواسعة فى منزلهم الكبير نوعا · وكانت هناك « فيرا » الفتـــاة التى تسكن عندهم وأختها التى سمعت من ماريان انها غريبة الاطوار · وتدرس فى كلية ·

كانت الفتاة « فيرا » تضع مكياجا غريبا وصارخا ويزيد من غرابتها انها سمينة وقصيرة · كنت أعرف ان « مالدون » الزوج يغيب عادة فى المساء مع صديقته وأثناء عطلة نهاية الاسبوع ، هذا شىء عادى عند بعض العائلات فى الغرب بينما هناك كثير من العائلات يعيش حياة عادية ،والبعض أيضا شديد التحفظ جدا · ماريان لا تحب جيرانها كثيرا ، قالت لى « ماريان» وكانت ترتدى بلوزة واسعة رمادية وبنطلونا من القطيفة المخططة البنيـــة الباهتة اللون ·

ــ فيرا وأنا ذاهبتان الى البار · البارات تغلق اليوم فى العاشـــرة تماما لأن اليوم يوم أحد · هل تود البقاء والدردشة معى قليلا أم نذهب جميعا الى البار لمقابلة صديقتى هناك ؟

ــ مررت مرورا عابرا · ينبغى أن أوصـــل شـــخصا الى بيته فى السيارة ، ثم أعود ، الأمر سواء عندى · فنجان القهوة فى حجرة جلوسكم أو عصير ·

عدت بعد نصف ساعة وفتحت ماريان الباب . وجدتها وحدها . سألتني :

ــ ماذا تريد قهوة أو شايا ؟

كنت أشعر دائما بالامتنان لها لمعاونتي واهتمامها بالانصات الي وأنا أسرد عليها مشاكلي وتطوعها بالنصيحة أيضا . فهمت انها تريد أن تتحدث الي . لابد ان عندها المزيد لتقوله لي عن مشاكلها هي هذه المرة . في المرة الأخيرة أضاعت وقتي وسببت لي صداعا بحديثها عن مشاكلها بلا طائل . لأنها لاتستمع لرأيي . وتنظر لي كانسان ودود لكن قليل الخبرة . هذا غير صحيح ، اختصرت الحديث ولخصت لها جذور مشكلتها مع زوجها وبيتها . وكوخهما الريفي وعقاربهما . الأشياء التي تريد الاحتفاظ بها باى ثمن حتي ولو أهانت زوجها . ونفسها أمام الجميع .

وهي خمرية اللون وشعرها بني أو أحمر منأصل فرنسي مكسيكي. وقد قاسي زوجها من سيطرتها ، لم أفهم ذلك أول الأمر وظننتها مظلومة تماما . هو أيضا انسان له ميزاته وله مساوئه .

طلبت منها قهوة ، وانفتحت في الكلام ، وأنا أتوقع منها من الصداع . قالت :

ــ لقد تشاجرت مع « جلين » أمس ، لقد أصبح لا يطاق .

انشرح مزاجي قليلا « جلين » هذا هو الشاب الويلزي الذي يصادقها ويتعلق بها وتحب هي الخروج معه . كانت قد قالت لي في المرة الأخيرة معترفة انه ليس الا ولدا صغيرا . ووافقتني انه لن يفهم مشاكلها لأنه غير متزوج وعمره خمسة وعشرون عاما فقط . تصورته بشاربه وذقنه وملامحه الشاردة . كانت قد شكت لي سابقا من الرجال الذين يخرجون معها في سهرات عابرة ثم يحاولون معاشرتها جنسيا . قال واحد منهم محتجا بصراحة .

ــ الرجل ينتظر شيئا مقابل الخروج معك واصطحابك في سهرة طويلة ــ كان يقصد طبعا أمر الانفاق عليها ــ كلانا يفهم ذلك .

قالت :

ــ « مالدون » زوجي يقول لي اتركي « جلين » وشأنه ويتهمني بأنني أستغل الشاب . وقلت له يا « مالدون » أنا لا أستغل الشاب لكنه يحب

صحبتي ويأخذني معه الى الاماكن التي يصورها · أماكن شيقة ، في الريف وقصور قديمة · هو فنان محترف ، مصور ، كل هذا يا « مالدون » وانت غارق في الخمر مع صـــديقتك وبدونه لا أستطيع الخروج الى أى مكان وسأظل حبيسة هذا البيت ·

ثم أضافت :

ــ يا « مدهت » تقصد « مدحت » اسمع · انه يخرج مع فتاة مختلفة كل شهرين أو هكذا يزعم لى ويسكر أحيانا · هذا ، بينما ليس بينى وبين « جلين » أى علاقة حميمة ولسنا أكثر من مجرد أصدقاء ·

أشعلت أنا سيجارة وانطفأ عود الكبريت الأول · واستمرت هي في كلامها في حماس وقلق ·

ــ لكننا تشاجرنا أمس ، تشاجرت معه · لقد أصبح كالكابوس · هل تفهم ؟ لقد أصبح وجوده معي طغيانا وسيطرة · هل تفهم ما أعني ؟

أومأت رأسى انني أفهم تماما · ضاقت عيناها وتخلصت ملامح وجهها وقالتها في نبرة شديدة التجهم ، عميقــة الاحساس كعادتها ، هي قوية التعبير لكن هناك لحظــات نادرة يخفت فيها صــوتها وتتكلم في شــبه خشوع ·

قلت :

ــ الواضح لى هو انه يريد أن يتملكك · أن تملئي فراغ حياته أن تكوني له وحده · انت تعتقدين انني لا أفهم كثيرا في الحياة لكني أعرف عن الحياة أكثر مما تظنين ، أنا فقط قليل الكلام ·

ردت :

ــ لماذا ؟ لقد قلت له « انك شاب غض يجب أن تبحث لنفسك عن فتاة في مثل سنك وتخرج معها ، وعلينا أن نظل أصدقاء صداقة طيبة » ، هكذا قلت له :

كنت قلت لها في المرة السابقة انه يبدو وكأنه لا يريد أن يصادق شابة لكنه يود أن تصبح « ماريان » له أختا كبرى ، وانه ربما يريد أن يرى الحياة من خلال عيني شخص ذى دراية وخبرة واسعة أكثر من خبرته باختصار انه يريد أن يتعلم منها · قلت لها انني تعلمت ذلك حينما كنت صغير السن ·

ـ لماذا ؟ عنده أم وأخت وعائلة يعيش معها · لماذا يريدني ؟ لماذا يريد التشبث بي كل هذا التشبث ؟

ثم أضافت في حيرة :

ـ انه ودود مع هذا ولطيف أحيانا ·

رفعت بصري عن فنجان القهوة أو الشاى لا أذكر ، فهذه المشروبات تفقد طعمها حين يكثر استعمالها ، ونظرت اليها وهي جالسة مقابلي الى المائدة المنخفضة وعليها مطفأة خزفية على شكل كف « وفازة » صغيرة فيها بعض زهور من الحديقة الصغيرة خلف البيت ، وقلت لها :

ـ كلا · هو يريد أكثر من ذلك · هو يريد أن يمتلكك وأن تمتلكيه هو يريد أن يحس بالاطمئنان والأمان بأن يعرف أين انت في كل وقت من اليوم · هو يخشى أن يفقدك ، وهذا كان سبب انزعاجه عندما لم يجدك أمس لتجيبي على مكالمته التليفونية ، وغضب · هو لا يحصل على السلام من الله بل يريد أن يحصل عليه منك انت · هذا خطؤه ·

اندفعت تقول وهي تكاد تصيح من شدة التوتر وكانها تريد أن تطرد كابوسا ·

ـ كلا ، لقد أصبح وجوده تسلطا · أمس ذهبنا الى قصر سيفتح للجمهور في المقاطعة المجاورة · قصر عائلة سكوفيلد وتصرف بطريقة مستنكرة جدا · كان هناك مدعوون من بلاد من مختلف أنحاء العالم وأمريكان · دعوا كل العائلات التي تحمل اسم « سكوفيلد » في العالم ·

ـ كان الشواء يتم تحضيره وكان هناك شيء من الارتباك لأن صديقة « جلين » المشرفة قد أعدت كل شيء جيدا لكن الآخرين لم يقوموا بواجبهم ومهماتهم كما يجب .وكان هناك شيء من التأخير وكنا واقفين أمام النار ، وفكرت في مساعدتها ، وقلت :

ـ سأذهب لمساعدة هذه السيدة في اعداد الشواء ·

كل ما في الأمر هو انني كنت سأساعد تلك السيدة على مرمى البصيرة ، بينما هو واقف يتحدث الى بعض المدعوين لكنه انفجر صائحا ·

ـ انني لن أقف هنا وحيدا · سأذهب · سأمضى لقد احتملت ما فيه الكفاية ·

وخرج غاضبا من القصر وأخذ سيارته وقادها فى مزارع وحقول الريف المحيط الواسع ، غاب ثلاثة ساعات ...

ثم صاحت فى استنكار وهى لا تنتظر جوابا فى نفس النبرة العالية. هى لا تتكلم فى صوت خافت كبقية الانجليز .

ـ لماذا هذا التصرف المشين ؟

قلت فى صبر :

ـ هناك سبب . هو لم يذهب الى هناك الا من أجلك . هو يريد أن يكون معك ، هو لا يريد أحدا سواك .

مرت بخاطرى حالة الحب التى وقعت فيها وأنا طالب فى الجامعة ، بدأ عليها القلق وكأنها لا تسمع ، واتسعت حدقتا عينيها وقد تغيرت نبرة صوتها .

لماذا ؟ وشىء آخر ، حدث وكان يلتقط بعض الصور . فقلت لا ، اننى سأتجول الآن على القصر . تجولت وصعدت الى بلكونة عالية فى القصر وأطللت على الحقول والبيوت المتناثرة حوله ، وفجأة أحسست بشىء خفيف لمسة خفيفة على كتفى . كنت منحنية على سور البلكونة وظننت بعض الأطفال يلعبون أو يطلون مثلى على الحقول ونظرت خلفى فلم أجد شيئا .

ران بيننا صمت للحظات . نظرت الى الحائط ، الصور المعلقة ، ولون الحائط البنى . لم أحاول أن أقطع الصمت لكنها هى قطعته .

ـ لعل الأرواح تسكن ذلك القصر القديم ، كانت لمسة ودودة لطيفة

سكت ولم أقل شيئا .

أولا أنا أعرف رأى العلم فى انكار عالم الأرواح لكن عندى شىء من الدراية أكثر بهذه الأمور وكذلك أذكر كلام الكاتب المصرى العظيم الذى ذهب الى باريس فى شبابه وعاد بشىء أثمن من الشهادة العليا ، تذكرت كلامه فى مقال فى مجلة من مصر قال فيها « ان من أهم الظواهر الجديدة فى الغرب ظاهرة انتشار السحر مرة أخرى . وكأن الغرب قد بدأ يدخل الى عصر الظلمات مرة أخرى . كنت قد رأيت الكاتب الكبير جالسا مرة من مدة طويلة يفكر ويتأمل فى هدوء فى حديقة مشمسة فى مجلس الفنون والآداب . كانت تلك المرة الوحيدة التى رأيته فيها . ولم أنساها . كذلك

قابلت فى الغرب أناسا كانوا يمارسون السحر ، ثم عادوا الى الدين وكتبوا وتحدثوا عن أسرار السحر وعبادة الشيطان ٠

سكتت لحظة « ماريان » ثم قالت باندفاع :

ـ شيء آخر يقلقنى بخصوص « جلين » انه مولع بالذهاب الى كنيسة أحرقت بجوار دير « تينترن » الأثرى المشهور ٠ أحرقها ممارسو السحر الاسود ، وكانت حادثة ذات ظروف غريبة ومات فيها شخصا منذ مدة ٠ هو مولع جدا وعنده رغبة مسيطرة فى الذهاب الى تلك الكنيسة ٠ ومع هذا فهو ليس متدينا ولا يحب الأماكن الدينية ، وكانت هناك كنيسة صغيرة فى القصر وقلت « هذه كنيسة لطيفة » قلتها فى هدوء ٠ وصمت أنا ٠ أخذت تدير عينيها فى الكنيسة وقالت فى حيرة وقد اختلط الأمر عليها تماما على ما يبدو ٠

ـ لم يقل شيئا ، أم تراه متدينا ؟

ـ لا يبدو ذلك ٠ ولعه بالكنيسة المحترقة فى الظروف الغريبة لا يدل على انه متدين ٠

قالت فى حماس وعدم هيبة ٠

ـ هو أيضا يحب النار ٠٠ النيران ٠٠ النيران ٠٠ عنده تعلق متسلط بالنيران ٠ قلت هذه نار طيبة ، فأنا أحب النار أحب وضع الفحمواشعال النار فى البيت وأحب كتل الأخشاب ، قلت « أنا أحب النار » ، نظر الى وقال :

وهنا قلدت لهجته الغريبة بصوت خافت يوحى بعدم الاهتمام ٠

ـ نعم ٠٠ النيران ٠٠ أنا أيضا ٠٠ أحب النيران ٠

قالت وفى عينيها نظرة فاحصة مخترقة ٠

ـ ان ابنتى « كاسندرا » لم تحبه من البداية ، عزوت ذلك الى انه حاول الخروج معها عندما قابلنا لأول مرة - ظننتها تغار منى ، قابلناه زوجى وأنا ونحن لا زلنا معا وعلى علاقة طيبة ٠ كلا ، « كاسندرا » لم تحبه من البداية ٠ هى لم تحبه ٠ من البداية ٠ هى لم تحبه ٠ ذات مرة ذهبنا معا ، « كاسندرا » وأنا الى كوخنا فى اسكتلندا وقاد هو السيارة طوال الرحلة وكان عندى زوج حذاء طويل الرقبة مشابه لحذاء ابنتى ٠ تركت حذائى فى الصالة فى الكوخ وفى الصباح نزلت وهممت ان البس الحذاء،

فاذا بى أجد بالحذاء قطعا طوليا وقطعة من الزجاج ملقية بجواره . ظننت ابنتى تغار منى لأنى ألبس حذاء مشابها لحذائها ، وعندما نزلت من حجرة النوم سألتها فى ود .

ـ « كاسندرا » حذائى مقطوع ، ترى لماذا قطع حذائى ؟

وردت هى فى لهجة متساءلة مستنكرة :

ـ نعم ، لماذا قطع حذاؤك ؟ من فعل هذا ؟

وأدركت على الفور انها ليست هى التى فعلت ذلك ، هذا أيضا سحر أسود ؟

ـ كلا ، ليس بالضرورة . هو شيء غريب وشاذ ولكن ليس بالضرورة سحرا .

قالت شاكية متألمة .

ـ هو شاب ودود ومخلص ويريد الخير لى ولكنه غريب الاطوار . ماذا أفعل له ؟

قلت لها بعد تفكير سريع مركز ، وكنت أعرف انه لا يميل لزوجها .

ـ غريب جدا ، الناس مزيج من الخير والشر دائما . اتركيه وشأنه لا يمكنك ان تساعديه ، لا يمكنك أن تساعدى كل من يطرق بابك طالبا المساعدة .

انفجرت ضاحكة عاليا . هى فعلا تساعد كل من يطرق بابها طالبا المساعدة ، تجهمت وقالت :

ـ لقد أساء التصرف جدا . ولما ذهب من القصر وجدت نفسى اتكلم مع رجل أعمال لطيف اسمه « ادوارد » وهو يحكى لى عن مشاكله العائلية وقلق على كثيرا ، كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل وقال لى « يجب أن اجعل سائق سيارتى يأخذك الى بيتك فى تشيستو » . وقرب الثانية عشرة مساء حضر « جلين » وكان أغلب المدعوون قد انصرفوا وقدمته لحلقة المدعوين الباقين التى كنا نتحدث اليها . وقلت ، هذا « جلين » مصور ويعمل لصحيفة فى « بريستول » . لكنه صاح : اننى لا أعمل لصحيفة فى « بريستول » وقال « ادوارد » صاحبك يبدو فى مزاج سيء جدا اليوم ، وعرض على ادوارد احضار بعض الشراب وعزمنا لنذهب الى بيته

لتدلة الجو قليلا ووافقت وقلت نعم هذا يكون أمرا لطيفا ولكن « جلين » صاح : انني غير ذاهب الى البيت ولم يرد أن يركب ادوارد معنا السيارة أيضا • وأنزله عند بيته وسار بسرعة قصوى وكدنا أن نسبب حادثة بشعة • قال لى « ادوارد » يبدو ان صاحبك هذا ممسوس •

قلت لها :

ـ نعم يا ماريان ، ربما كلامه صحيحا •

ـ ماذا أفعل ؟ لقد قلت له انه تصرف سيء وأنا عندى من المشاكل العائلية ما يكفى • فصاح بى « وماذا عما أمر به أنا » ماذا أفعل ؟

قلت وأنا أعرف كيف هى ، لا تسمع للنصح دائما •

ـ الأمر متروك لك ان كنت على استعداد لمصاحبة ومصادقة شخص مصاب بتسلطات غريبة ، ووجوده ، يخلق جوا من الرهبة والتوتر ، فاستمرى فى هذه العلاقة • الأمر مترك لك • الخيار لك وحدك •

لقد قلت له أن يخرج مع فتيات أخريات ، كان يعيش مع « مارجريت» وهى فتاة جميلة مثل الموديلات ولكن لم يكن بينهما جنس ويبدو انه عنده مشاكل جنسية • لا أدرى ، لا أدرى •

ـ تستطيعين أن تعرفى •

صاحت فى شبه استنكار •

ـ كيف • هل أمارس معه الجنس ؟

قلت فى بساطة تامة :

ـ كلا ، اسألى « مارجريت » •

قالت :

ـ كلا،هى لم تحبنى ولم تميل الى من أول مرة حييتها فيها• وهو كذلك عنده نوع من الغرام المتسلط مع صديقتنا التى تدرس الدراما وظل يتعقبها ويسألها أن تتزوجه لكنها رفضته • لقد قال ادوارد انه ممسوس •

وضعت يدى على يدها وقلت لها فى حزن وود وتذكرت آلام بداية شبابى ـ نعم ربما هذا يفسر اهتمامه بالكنيسة المحترقة • كم عمرك يا « ماريان » •

ضحكت عاليا قالت دون أن تسحب يدها لأنها تثق بى وبزوجتى ·

ـ أربعون عاما · أربعون عاما ويأتي هذا الشاب الطفل ذو الرابعة والعشرين عاما ويريد أن يتسلط علي ويتعلق بى · لماذا ؟ لماذا ؟ هل نخرج الآن ؟

قلت :

ـ نعم ، لابد أن أعود الى البيت · زوجتى فى انتظارى فى البيت مع نبيذ ·

ـ حاله غريب ، مسكين ·

ركبنا السيارة ·

قالت :

ـ لا يمكنك يا « ماريان » انكار حقيقة الاشياء · لا يجب انكار طبيعة الأمور ، والطبيعة البشرية ، ليس فى حياته فتاة « جلين » هذا · لو لم يكن فى حياتى امرأة لوقعت أنا أيضا فى حبك · انت صريحة وودودة، ربما أكثر من اللازم · انه أمر لا يمكن تفاديه حين يخرج رجل وامرأة معا مدة طويلة ، هذا العدد من المرات· انه متيم بحبك ولا يجرؤ أن يعترف بذلك الا تذكرى قوله : وماذا عما أمر به أنا ؟ حين ذكرت مشاكلك ؟ وهذا لأنك متعلقة بعائلتك وزوجك · حدث لى ذلك مع أول فتاة أحببتها · كنت فى التاسعة عشر ولكنى كنت أعرف ان تعلقنا لايمكن أن ينتهى الى زواج لأنها غنية جدا فلم أجرؤ على مجاهرتها بحبى · انه يحبك حبا شديدا · هو شاب غريب الاطوار · هذه أشياء مثيرة جدا وشيقة ·

قالت :

ـ مسكين « جلين » ·

قلت فى نفسى وأنا أحس بالعطف الشديد عليها وعلى اصرارها على مصادقته مسكينة « ماريان » هكذا فكرت ·

كنت أظنها أولا انسانة قوية لكن سيئة الحظ · كنت مختلط التفكير عندما قابلتها وزوجها أول الأمر · لكنى أعرف الآن انها مسئولة الى حد كبير عن مشاكلهما ومع هذا أنا لا أحب أن أدينهما · الله وحده يعلم كل شىء · هى تضر نفسها ·

عدت الى البيت بعد آن آنزلتها فى البار لتلحق بصديقاتها • أحضرت زوجتى الشراب • ثم قالت :

ـ اننى ذاهبة لأجفف شعرى •

صعدت الى حجرتها • وجلست أرقب التليفزيون وأنا أرقد علىمخدات كبيرة على الأرض • شعرت بالملل من البرنامج ومن الانتظار ونمت •

فى الصباح صحوت متضايقا • ولاحظت أن زوجتى حساسة أكثر من العادة ، سألتها :

ـ لماذا لم توقظينى أمس يا سلوى ؟ قالت شاكية :

ـ حاولت ايقاظك وناديت عليك أربع مرات • مدحت ، مدحت ،مدحت مدحت • لكنك لم تجب فى نومك ، ولم تستيقظ •

قلت معتذرا ، لأنى انســـان عاطفى ، وكان فى لهجتى كثــير من التردد •

ـ أنا آسف كانت البرامج فى التليفزيون مملة جدا ، لابد • نعم أعتقد ذلك •

لم يبدو على زوجتى الاقتناع ولم يخفف اعتذارى من خيبة أملهـــا • فقررت شراء زهور لها لأعبر لها عن تقديرى لها ولصبرها • رغم انهــــا تشكو من غلاء ثمنها • وتكاد ترفضها •

الريـــال الزائف

أرانى صديق انجليزى ريالا ذهبيا عليه صورة الملكة فيكتوريـــا فتذكرت الحادثة التالية :

بينما كنت أقلب جيوبى باحثا عن فكة أركب بها الأتوبيس فى ذهابى وايابى لعملى أحسست بالريال الوحيد معى أخف وزنا مما يجب • ولم يحتج الأمر لعناء حتى أعرف أنه مزيف ، مصنوع من الرصاص بدلا من الفضة • تذكرت كلمات جدى ، بينما كنت أرتدى الحذاء ، وكان عادة يجلس حين يتحدث لأفراد العائلة ، مرتكزا على عصاه وقد تدلت لحمتـــا أذنيه الكبيرتين وكانت أكثر ما يدهشنى فى وجهه الكبير المتغضن مثـــل جذع شجرة عمرها قرون • كثيرا ما تأملتها غير مصدق ما نســمعه من الكبار عن صمم جدى حينما كنا بعد أطفال نتسلل بين الكراسى على مهل ، حتى اذا أحسسنا بأن هناك تقبل لوجودنا من الكبار جلس كل واحـــد بين يدى والد أو عم •

لم أقبل فكرة الصمم تماما ، لأنى كنت أعرف أنه كلما كبرت الأذنان كلما ازدادت حاسة السمع • لكنى أخيرا قبلتها مرغما ، لما رأيت من كثرة خلافاته ، وعدم رغبته فى الانصات للآخرين ، وقد أشار بعضهم الى عنـاده وصلابة رأسه أكثر من مرة ، لكننى لم أفهم كيف تكون العلاقة بين الأمرين أو بالأحرى فهمت ولم أثق فى فهمى • قال جدى بلهجة تصميم لمن أمامه •

ـ الأخلاق •• الأخلاق هى اذا وقعت بين يديك قطعة نقود زائفة ، أن تتخلص منها مضحيا ، بدلا من امرارها ، واستمرار تداولها •

ذلك ما كان جدى يتحدث عنه ، لأنى أذكر أنى سألت والدى حين تعذر على الفهم ، فبسط الأمر قائلا : انه اذا وقع فى يدك قرش زائف فعليك

أن تعضه بأسنانك ، تتلفه ، ولما أثرت احتمال كون القرش الزائف فى صلابة القرش العادى ٠٠ أجابنى حينئذ : سر حتى الشط والقه فى النيل٠

وساعتها خطر لى خاطر احتمال عدم وصول العملة الى المياه ٠ ولكنى لم أفاتح والدى بتفكيرى خشية أن يظن بى عدم رغبة فى اتباع أصـــول الأخلاق فى أمر القروش الزائفة حسب تعليم جدى ٠

وبعد أيام هدانى تفكيرى الى القاء القرش الزائف فى البالوعة ٠وظللت أنتظر وقوع قرش زائف فى يدى حتى فرغ صبرى ٠ أما الآن فالريـال الذى تبـــقى من مرتبى ، زائف بأكمله ٠ وعلى أن أتدبر مشاوير العمل الباقية الى آخر الشهر ٠٠ كما أنه لابد من تدبير مشوار اليوم الى المكتب، وقد التحقت بالمصلحة حديثا ٠

وعلى مائدة الطعام طلبت من والدى نقودا ، بدعوى اكتشـــــاف ورقة زائفة بين نقودى ، ولم أذكر أنه ريال معدنى ٠

وبينما كنت أجفف وجهى أمـــام المرآة خطر فى ذهنى وجه ذلك الكمسارى الذى أعطانى الريال ٠٠ كان الوقت مساء والأتوبيس يســير فارغا خفيفا والاضاءة صفراء قاتمة ٠٠ لعلنى أذكره جيدا ٠٠ ان خط الأتوبيس أمام منزلنا قليل العربات ، لكنه طويل فهل سيقدر لى أن أعرفه؟ هل أكون قد رأيته من قبل ؟ واذا قابلته يوما فهل سأتذكره ، وأين يكون ذلك ؟ فى أى مكان فى القاهرة الواسعة سأقابله ثانية ؟ هل أحتفظ به فى جيبى ؟ وهل سيتذكر فعلته السوداء أم ينقلب على مهاجما ؟

الوجه لم يكن مقطبا مكرشا أو متهدلا ٠٠ نعم ولا العينين٠٠ فكانت بهما نظرة خفية متمرسة على الخداع ! لا ليس هناك شىء من هذا ٠

أخذت أمشط شعرى ، مررت عليه بالفرشاة ، وجهى ليس فـــائق الجمال « كدوريان جراى » ، كذلك ليس قبيحا كوجه سقراط ٠٠٠ لكن ينقصه نوع من التعبير المهذب ٠٠ وضعت هذا التعبير على وجهى وانصرفت من أمام المرآة ٠

اننى أحاول تحديد صورة ذلك الكمسارى بدقة أكثر ٠٠ كان شابا نضرا ٠٠ ولكن لا يجب أن أنساق وراء الأوصاف التى أقرأها فى كـــومة الكتب التى أضعها بجوار السرير وترتفع يوما بعد يوم ، ثم أعطيها لبـــائع الروبابيكيا ٠

في أغلب القصص الغرامية التي أقرأها ، يحكم الشاب النضيد رسم شاربه الأسود الأنيق ، وله دائما حاجبان جميلان .

وفي أغلب القصص البوليسية ، الحاجبان موثقان والجبهة عليها خطوط ماكرة .. لكن هذا الكمساري .. هل أجرؤ على وصفه اعتباطا ، بنفسي ؟ .. ان وجهه سمين قليلا ، ورقبته ممتلئة .. وعلى أنفه المستدير احمرار ، وفي وجنتيه حمرة ، أما تعبير وجهه .. فلا شيء ... هذا كل شيء .

وقفت وقفة أخرى أضبط سترتي الكحلية في غيابة ذهن وألقي على الأقسام بفرقعات ولم يكن البنطلون محتاجا لتنظيم فقد كان كأحسن ما يكون، وقفة الرجل تقبض جيدا على الحذاء .. كان عقلي يتجول ببلادة .. تلك المحادثة التي جرت بجواري مع الكمساري وسمعتها أذناي دون أن أفقه منها شيئا ما مغزاها ؟ كان رجلا في منتصف العمر وعلى عينيه ملامح الطيبة لكنهما نفاذتان ، وجسمه كبير لكنه مترهل قليلا ، قال للكمساري بهدوء :

ــ أعطني الباقي .

أجابه الكمساري :

ــ هل أكتب لك على ظهر التذكرة ؟

قال الرجل :

ــ لا ...

وسأله الكمساري في هدوء :

ــ لماذا ؟

استرعى هذا نظري فرفعت رأسي لأعلى .

أجابه الرجل في هدوء وفيما يشبه الهمس

ــ لأني أعرفك ورأيتك من قبل .

ابتسم الكمساري ابتسامة خفيفة وازداد احمرار وجهه وقال متسائلا:

ــ لماذا ؟ هل رأيتني أتعارك ؟

وسلمه نقوده الباقية وانصرف .

نعم ، حدث كل هذا في هدوء .

ذهبت الى المكتب .. جاء صديقي حسان زائرا أثناء العمل .. تظاهرت أولا بالانهماك ، ولكنني بعد قليل اكتشفت عدم جدوى هذا الأسلوب ..

انطلقت مرحبا بقدر ما أوتيت من حماس ، وقدمت له شايا بدون حليب، عدت من المكتب الى المنزل ، وتعليقاتنا عن الافلاس فى الشغل عالقة بذاكرتى • فسرت لا ألوى على شيء •

فى المساء كان عندى مشوار هام ، كلفت قبلا بالقيام به ، دفعوا لى فى المنزل أجرة المواصلات • خرجت ، كان الأتوبيس شبه خال ، والكمسارى جالس فى المقعد الأمامى •• دخل الأتوبيس الى السبتية، وبدأت الاهتزازات • قام الكمسارى بعد محطتين ووقف على رأسى • كنت بسبيل اخراجها دون أن أنظر اليه حين بدت منى لفتة عصبية • تسمرت فى مقعدى وقد التقى وجهه بوجهى • كان هو كمسارى الأمس ، وبسرعة وهدوء بحثت عن الريال ووجدته بينما أنا أرفع عينى اليه ، قررت أن تحمل عيناى علائم الغضب ، ووجهى علائم الجد ، لكنى خشيت أن يتصلب فكى فأبدو عصبيا وحولت نظراتى الى نظرة اتهام لأخلاقه •

فهم الرجل الأمر ، ولعله تذكرنى • وتحرك شاربه الأحمر ذا الشعرات المتباعدة فوق شفتيه ، وقبض يده لأخذ النقود فى عجلة • نظر فى الريال لحظة ودسه فى حقيبته الحافلة بسرعة • وكتب لى الباقى خلف التذكرة •

بينما الأتوبيس يتوغل أكثر فى السبتية وقف الكمسارى بين الدرجتين الأولى والثانية مستندا الى الحاجز متأرجحا معه ، بينما ظللت أنا أتأرجح وحدى دون أن أمسك المقعد الذى أمامى لأن سيدة كانت تشغله ، والآن تمدد طرى جسمها بين فراغات المسند •

عاد الكمسارى يعبث فى حقيبته ،وشددت جسمى لأقلل من أرجحته وعينى على الكمسارى وحقيبته المعلقة كالمخلاة فى عنقه •

علا صوت راكب من آخر العربة ينادى على الكمسارى مرتين فى صوت جاف •• عاد الراكب ينادى مطالبا أن يعود اليه بينما الكمسارى يقطع تذكرة فى المقدمة ويصيح بأنه لا يستطيع أن يترك الدرجة الأولى • نظر بعض الركاب الى الخلف • وجدنا شابا فى قميص أبيض يصيح فى انفعال :

وجاء الكمسارى ، ووقف الشاب •

— ماذا تريد ؟ لم أعطك ريالات •

— أتعطينى ريالا زائفا ثم تنكره ؟ ألم تعطنى باقى جنيه ؟

ـ نعم ، لكنى لم أعطك ريالا ٠٠ أعطيتك العملات الورقية ، ابحث فى جيبك ٠

ـ كيف لم تعط ولم يكن معى غير هذا الجنيه ؟

أخرج يده من جيبه بكبشة نقود أمام الجميع ومد ذراعه الى الأمام ٠٠ بدأت أقلق ٠

ـ هل أتجنى عليك ؟

ـ نعم لم أعطك ريالات ، وابحث من أعطاك الريال ٠

أخرج كل جيوبه الى الخارج وهو يزداد انفعالا ٠ وأخذ يحرك يديه بشدة ٠

ـ هذه جيوبى ان كان معى غير هذه النقود بدون الريال لا يكتمل الجنيه ٠

ثم عاد وصاح أعلى ، صيحة زلزلت أعصابى ٠

ـ هل تركب الأتوبيس لكى تغش وتضيع علينا نقودنا ؟

قال الكمسارى وهو يجمع أشتات الجرأة ، ويتمالك ملامح وجهه ، وفمه ينفرج ثم ينغلق وانطلق أخيرا بالباب :

ـ أنت تركب لكى تغش وتسرق مثل أمثالك ٠٠ أنت نصاب وعاطل

تقلص وجه الراكب وتعكرت ملامح وجهه وعاد للصياح :

ـ اذهب معك الى قسم البوليس ٠ لن أتركك الا هناك ٠

رد الكمسارى بعد مهلة ٠٠ كنت أراقبهما جيدا :

ـ تعال على القسم معى ٠٠ أنت تركب المواصلات لتنصبه ٠٠ وأنت لم تقل شيئا حين أعطيتك التذكرة ٠

لو لم أكن أعرف الحقيقة ، لاستطعت أن أقول بالبديهة أن الكمسارى يعمل عقله فى الشجار ، بينما ينفعل الراكب بكل أعصابه ، ويظهر بهذا المظهر السيىء ٠٠ وتدخل بعض الركاب واتسعت المناقشة وكانت محطتى قد أزفت ٠٠ وقدمت ورقتى للكمسارى فأعطانى الباقى ٠٠ وكانما كنت أخشى وأنا أنزل سلالم الأتوبيس أن تصطدم رأسى بفتحة الباب ٠٠٠ نزلت مطاطىء الرأس ٠

الأصدقاء والقرعة

اذكر اننا كنا جميعا فى الفصل الدراسى نحلم بكلية الطب او البحرية أو الشرطة . أما من لم تكن لهم أحلاما معينة فلم يصرحوا بما ارتضوه ، او تنتهي الدراسة التوجيهية بهم الى مجموع ضعيف . ومع هذا فكان اغلبنا يبذل الجهد مضاعفا فى الاستذكار أو القلق ، لكن لما جاءت اجازه منتصف العام الدراسي وجدت نفسي معرضا لاغراء رحلة لزيارة الآثار ، وتقدمت مع صديقى « عامر » اليها ولم تكن ستشغل سوى نصف الاجازة الدراسية الثانى .

لكن علمنا ان قرعة ستجرى على العدد المتقدم لأنه أكثر من عدد الأماكن فى رحلة الأقصر وأسوان .. فصرنا منتظرين فى قلق ..

واجرى مدرس الجغرافيا القرعة وفاز صديقى وفزت أنا بمكان آخر ، لكن علمنا أن القرعة سيعاد اجراؤها . ولم ندر السبب ولكن مدرسنا قال ان عددا آخر قد تقدم للرحلة . واجريت القرعة مرة اخرى ففزت أنا بمكان وخسر صديقى « عامر » مكانه . فقررت التخلى عن مكانى أيضا وتركته لعامر لأننى أكره السفر وحدى .

وعدنا من اجازة نصف العام الدراسى وفى أول يوم دخلت متأخرا قليلا مبحوح الصوت من كثرة الغناء والتهريج وشعري يبدو أطول مما ينبغى ، وفوجئت بالطلبة يصيحون : آه .. ها هو عثمان » كانت صيحة طويلة جماعية ، دهشت لها ، فأنا ليست لي شعبية ضخمة فى الفصل مثل بعضنا .

ولما جلست سألت صديقى « عامر » عن سبب تلك الصيحة الطويلة . وحكى لى صديقى أن مدرس الرياضة الشاب اللطيف الوديع سمع صفيرا خلفه وهو يكتب بعض المعادلات على السبورة وصاح :

«اسكت يا عثمان» . فلما دخلت كانت فرصة للتندر والمرح . وسررت بتلك القصة ، واعتبرتها نوعا من الاهتمام بي مهما كان نوع الاهتمام.. لكن سروري لم يطل لأن اليوم يمر وبدأ الكثيرون يعبرون عن مدى نوغلهم في المراجعة اثناء الأجازة ومدى تمكنهم من الدروس التي درسناها في النصف الأول من العام .

عند نهاية النهار أصبحت في حالة نفسية سيئة .. ولم ينقذني « عامر » منها لأنه لم يكن قد ذاكر هو أيضا كما أنه كان رياضيا ويهوى الكهرباء والميكانيكا لكن قليل الكلام ، وليس بالشخص الذى يبالي بشيء . لكن زميلا آخر « فؤاد » سألني عن سر قنوطي وعبوسي البادي وأنا أتحدث اليه .. شرحت له الأمر على مضض وأنا يائس تماما .

قلت له :

ـ ما أن جاءت أجازة نصف العام حتى لاحت فرصة للسفر الى أقاربنا في القاهرة وقضاء عدة أيام هناك مع اخوتي في الجامعة وكانوا في نهاية الخطاب قد كتبها الأقارب : « هذا هو أقل ما يمكن أن نفعل مقابل النزهات الريفية التي تمتعوننا بها خارج المنيا حينما نذهب لزيارتكم » . وجلست أحلم بزيارة القاهرة مرة ثانية وفتياتها الأنيقات كعارضات الأزياء اللاتي نرى صورهن في المجلات . وكان في العبارة مسك الختام ، فحزمنا أمتعتنا وحرصت على حمل كتبي معي وسافرنا . وفي أول يوم وصلنا كان أقاربنا وهم في مثل أعمارنا في الانتظار في محطة مصر واصطحبونا في التاكسى ذى العداد الى منزل العائلة .

وفي الظهيرة استرحنا وبعد الظهر اصطحبونا الى وسط المدينة وأعلنوا لي أن الاستذكار محال في اليوم الأول .. ودور السينما في القاهرة تشبه القصور ، خاصة بأضوائها الهادئة أو هكذا تخيلت القصور . وهي تقدم الكثير من الأفلام القصيرة حتى احسست أننا رأينا أكثر مما يجب مقابل ما دفعناه ، وكدت أنهض بعد آخر شريط قصير . ولكن اقاربي ضحكوا كثيرا وقالوا لي ان الفيلم الرئيسي لم يبدأ بعد .

والحياة في القاهرة لا تتوقف في اى ساعة من ساعات النهار والاماكن الشيقة الهامة تتناثر في انحائها لتجعل محب الاستطلاع مثلي يدور وسطها طوال النهار ، وأنسى المذاكرة ليوم كامل . المتحف المصرى وشارع فؤاد وكورنيش النيل وحديقة الأندلس .

وفي اليوم الثاني لبستني نوبة مناقشة أدبية وتناقشنا معا في

القصص القصيرة ، والطويلة والمسرح . وأصر سمير قريبي على اصطحابي الى مسرح الأزبكية وكان بالدراسة التوجيهية ايضا .. وشكوت من عدم دراستي وشكوت من الكيميا التي تتبخر بسرعة كالكحول . ولكنه لم يعبأ وأصر على انني لن أنسى الأمسية التي سنقضيها في المسرح طوال حياتي . وقررت أن أذهب ، على ان اذاكر في اليوم التالي .

لكن أيام الاسبوع مضت خفيفة هينة بدون مذاكرة . في الهرم ، والقناطر ، وحلوان ، وعند محطة القطار قال لي « سمير » ، « من الغد سأعود للاستذكار » . ولم اقل شيئا ..

استمع الى فؤاد في تعاطف وصبر وقال لي وهو يشير الى صدري بيديه النحيفتين في كلمات واضحة محددة :

ــ أنت مخطيء التفكير . يؤلمني أن أرى انك تنظر الى نفسك هذه النظرة غير السخية . ينبغي أن تعتبر نفسك افضل طالب هنا ، هكذا فقط تستطيع أن تأتي بنتيجة مرضية . اعتبر نفسك أفضل طالب في الفصل .

كنت واقفا استمع اليه في شكر داخلي وانا اعجب بروحه الوثابة وحماسه على الرغم من رقة حال عائلته المعروف بيننا .

لكني كنت أعرف ان القاهرة قد خلبت لبي ... القاهرة تمر بها كل الأحداث السياسية في مصر .. قصر عابدين .. البرلمان حيث قتل احمد ماهر .. النادي السعدي حيث قتل أمين عثمان . الجامعة حيث قامت كل تلك المظاهرات .. ضريح سعد زغلول وتمثاله وغيرها . وغيرها . أما « عامر » فقد حكى لي عن روعة الكرنك ووادي النيل عند أسوان .

كنت أعرف أن فؤاد طالب نابه ، وأخوه أيضا كان أصغر طالب في التوجيهية قبله وكان في مثل حماسه وطيبة قلبه .. وكان أصغر طالب حجما وسنا ، وتندر عليه زملاؤه في مجلة المدرسة في لطف وود وقالوا انه خرج في مظاهرة مرة فظن البوليس ان طلبة المدرسة الابتدائية المجاورة أيضا قد خرجوا في المظاهرة .

انتهى فؤاد من حديثه لي وساعتها ناداه زميل قصير قوي الجسم ، وكانا صديقين حميمين ، لأن كلاهما كان متفوقا محبا للعلوم وسمعتهما

يتناقشيان بجوار النافذة فى الرياضيــة والطبيعة وقررت أن أنسحب ، ابحث عن عثمان لأرتب معه شيئا بعد الظهر ولأ سأله أكثر عن كيفية قضاء أجازة نصف العام ولأحكى له عن أسبوعى فى القاهرة لكنى سمعت فجأة زميلنا يقول لفؤاد :

ـ يابنى يجب ان تطعم نفسـك جيـدا . انظر الى قوامك الهش النحيل .

وابتعد عنه خطوة لينظر اليه . ثم قال :

ـ يابنى التفت لنفسك ، وإلا ستموت بالسل .

نظرت من بعيد فلمحت نظرة كسيرة وديعة فى عينى فؤاد ، وقد احمر وجهه قليلا . كانت نظرة قصيرة لكنها كانت نظرة لينـة لا تريد الاستسلام أو الهزيمة . وكرر زميلنا الكلام وهما لا يدريان أن أحـدا يسمعهما .

ـ يابنى ستموت بالسل لو لم تأكل .

كان من الواضح أن الزميل القصير الممتلىء الجسم المتيسر الحال يهتم بفؤاد ، وبدا لى هذا الإهتمام كأقصى درجات الاهتمام ، أن ينظر الى فؤاد وصـحته نظرة واقعية لم يتيسر لأمر ما تكوينها فى أصـدقائه الآخرين . انه هكذا بدا لى الأمر ساعتها .

ومضى العام وانتهى ولم أدخل الكلية التى كنت أحلم بها ورضيت بغيرها ، وذات يوم من أيام الصيف القائظ الحار سمعت أختى تتحدث وتقول :

ـ صديقتى « شاهناز » تحـكى عن طالب حصـل على درجات عالية وقبل فى كلية الطب ، ولـكنه مرض بالتيفـود ولم يعـرف أهله مرضه . ولما جاءوه بالطبيب أخيرا كان الوقت قد فات .. ومات . هو من مدرستكم .

ردت أمى :

ـ البخت .

رويدا رويدا بدأ شعر رأسى يقف فى مكانه ، كانت « شاهناز » تسكن بالقرب من صديقى « فؤاد » فى منطقتهم بأطراف المدينة ،

سالت أختى وقلبى يخفق قليلا :

ــ ألم تقل اسمه ؟ .

قالت :

ــ نعم ، أسمه « فؤاد زكى » .

سقط قلبى فى صدرى « فؤاد زكى » ، هو . لقد حدث له ما حذره زميلنا منه . حصل على مجموع عال .. وتفوق ولكنه مات . لم يمت بالسل ولكنه مات بالتيفود ، لم ينفع التحذير لأنه لم يكن بيد فؤاد شيئا لفعله . تذكرت زيارتى مرة له وتذكرت أن زيارتى كانت فى وقت غير مناسب ، فقد كانوا يتناولون طعام الغداء ، لم أعتن لذلك كثيرا وقتها لكنى اذكر الآن ، أن طعامهم كان حفنة أرز فقط فى صحن صغير أمام كل واحد منهم .

ودخلت الجامعة ، وأمس قابلت زميلنا القصير الممتلىء فوق كوبرى القصر العينى يحمل سماعة ، فكرت أن احكى له عن صديقنا « فؤاد » ونهايته الحزينة ، ولكن سرعة خطواته ، وتعجله وطبيعته العملية ، جعلتنى أتخاذل عن استيقافه وحكاية شيء حدث من عامين فى المنيا . وسرت سارحا ، لكن مقابلة صديق « فؤاد » ذكرتنى بمناقشة غريبة كان بطلها خال شاب « لفؤاد » كان يتحدث فى حماس غريب عن كيف انه يجب ان تحسن أحوال كل رجال الدين فى مصر بحيث يستطيع جميعهم ركوب القطارات بالدرجة الأولى . جرت تلك المناقشة فى جنازة ابن أخته « فؤاد » أنا من عائلة متدينة محافظة ، تذكرت كيف كان يركب غاندى الدرجة الثالثة مع فقراء شعبه وهو المحامى خريج انجلترا . تلك المناقشة جعلتنى أحس بالغثيان من ذلك الخال الشاب، لسبب لم افهمه وقتها ...

الإعـــلان

أم شـكرى تطبخ وشـكرى يستعد في حجرته فغدا الامتحان ، وهناك عزومة صغيرة فى المساء ايضا لصديق والده . وشكرى أغلق النافذة والباب على نفسه لعله يستطيع أن يذاكر وسط ذلك الضجيج الهائل الآتى من الشارع ودقات الهون وامه تطحن الثوم . أم شكرى تصيح فى ولدها الأصغر :

ـ ناد يا ولد على الرجل ليصلح ماكينة وابور الجاز .

وكأنما سمعها الرجل فأخذ يصيح بصوته المجلجل فى أعلاه :

ـ نصلح وابور الجاز .

وقفز شكرى الى النافذة يعيد اغلاقها من شدة انزعاجه لكنهـا كانت محـكمة الاغلاق ، وعاد الى كراسته كمـا كان .. ثم فتح كتاب « الاعلان » واخذ يقرأ :

« وعلى المعلن الناجح أن تتوفر فيه عدة شروط : اولهـا تفهم نفسية المشـترى ومعرفة حاجاته بالتمام ، ثم العمـل على توفير كل هـذه الشروط فى بضـاعته المعلن عنها . فمثلا لا يصلح أن يعلن عن اللوازم الزراعية بين المدن الصناعية ، كما لا ينبغى أن يعلن عن أشياء مضى زمنها ومضى عليها الدهر فى مدنيـة "سـابق الزمن فى تطورها . فمثلا شركات التليفزيون واجهزة الاسطوانات « الستريو » لا يجب أن تعلن فى المجلات الريفية والمحلية بل يعلن عنهـا بفـاعلية أكثر فى كبريات الصحف ، لأنها بهذا لا تهمل حاجة القرى العملية وترعى تطـور المدن . مثل هذا الاعلان يحقق القيمة الكبيرة المرجوة منه ، وهكذا » .

وفجأة اندفع صوت باب يفتح وصوت ضلفة بابه تتحرك فى قوة مبتعدة عن الضلفة الأخرى بعد أن خـرج لســان الأكرة من مكانه . وسمع عوبل المفصلات الخـافت التى طالما تحـدثوا عن وضع بعض

الزيت عليها . وسمع شكرى صوت وابور غاز يدوى دويا عاليا وصوت المكبس يطرقع رائحا غاديا .. ثم تنبه الى صوت الرجل الجلى :

ـ الوابور يحتاج « فونية » فقط . ماذا عندكم أيضا للتصليح . اليس هناك حنفية او بلاعة ؟ كيف حال الأولاد والأفندية ؟

ـ الحمد لله يا عباس .. كيف حالك انت يا عباس ؟

أهه ، الصبر كويس .

وسمع صوت السباك الرقيق الحال المرح يتحدث فى جذل :

ـ « عباس رئيس » لو سمحت يا أم شكرى .. سباك يتجول تحت الطلب .

لم يستطع شكرى أن يضحك فالوقت ليس وقت ضحك رغم انه يذكر كل محادثات عباس الطريفة فى البيت مع الأهل وهم جالسون حوله . قفز شكرى من مكانه واغلق الباب بسرعة بضربة شديدة من قدمه فى غضب ، ثم هدأ قليلا من نفسه ، لأنه اخذ من شدة توتره . اهتزت أرجاء الشقة هزة عنيفة . لكن احدا لم يبال أو هكذا بدا .. صاح الرجل :

ـ أحضرت معى اليوم ماكينة ساكتة صوتها خافت ، لا صوت لها بالمرة ، يا ست أم شكرى

حمدا لله . تنهد شكرى . احد الاصوات الكثيرة المزعجة سيخفت الى الأبد .

كاد يصيح فى امه التى كانت تسأل عن الثمن :

ـ اشتريها .

لكنه تمالك نفسه وحاول أن يعود الى موضوع الاعلان .

ـ هذه ماكينة رائعة تعطى نورا أزرق ونارا حامية تصلى ، بعيد عنك .. لكن هناك شيء واحد يجب أن أحذرك منه ، لابد أن تظل الماكينة سامية والموقد يشتعل . لابد أن تحترسى منها لو عملت صوتا مدويا .. ووو ، هكذا . هه ، هذا خطر ، احذرى هذا الصوت المدوى ... ووو .. لأنه لو عملت الماكينة هذا الصوت فسينفجر الوابور .. ووو .. كده . نعم ، أم حسين فى بيت الحاج غالى فعل

الوابور هذا معها . اشترت ذلك النهار ماكينة من الصنف عينه ولم تاخذ حذرها . الماكينة ظلت تدوى ووزو .. ودوشة هكذا ، وبعد قليل انفجرت فى وجهها وجاء الانصاف .. وخطها .. بعيد عنك .

ـ اللهم الحافظ يا عباس .

يا لهذا البائع المزعج الطيب .. تعكر مزاج شكرى كثيرا .. هو معلن جاهل لا يفهم شيئا من أصول الاعلان ، يعرض مساوىء الماكينة الساكتة باستفاضه قبل محاسنها ثم يريد أن يشترى الناس بضاعته . لكن شكرى كان على يقين أن امه ستشتريها ، هناك ثقة بين العائلة وعباس .. قرر شكرى أن يهمل الأمر وذاكر قليلا . وبعد برهة تنبه الى دخان متسرب الى حجرته ورائحته كريهة . فتح الباب فوجد دخانا كثيفا فى الشقة وعباس يقول :

ـ الم اقل لك ياست ام شكرى . ليس عندى غاز فى الوابور ، لعلك تصدقينى الآن .

دخل شكرى الى حجرته ثانية وصاح منها :

ـ بلاش الصوت العالى عندى امتحان ، عاوز اراجع .

اغلق الباب لكن سمع اخاه المريض يناديه ، وكان قد سقط فى الصباح فريسة لحمى مفاجئة . هذا رغم انه طالب بالمعهد الصحى . زميله من السنة الثانية اقترح علاجا واعطاه له .. وسمع وقع اقدام امه ثم سمعها تفتح باب الحجرة التى يرقد فيها اخوه وصرير الباب يتكرر ، ثم صياح اخيه :

ـ اقول لك ان عندى طفح على جسمى وخير علاج لها الاقراص المضادة للهستامين وانت تقولين أن أستحم فى الردة . هل انت دكتورة ؟

وردت امه محتجة بصوت خافت :

ـ وهل انت طبيب ؟ قلنا لك اذهب الى الوحدة . زميلك فى السنة الثانية .

ضحك شكرى رغما عنه وفى سره ، من شاف بلاوى غيره هانت عليه بلاويه . اغلق كراسته وكتابه والقاهما بشىء من اللامبالاة . وهب من مكانه ورفع الكرسى الى الخلف وجرجره فضنغت أرجل

الكرسى تعاريج وثنيات فى الكليم . وسار نحو الباب فتعثر شبشبه وافلت من قدمه . ذهب الى حجرة أخيه ووقف امام سريره، والابتسامة والعبوس تتنازعان ملكية أسارير وجهه . صنع ابتسامة على فمه لكن عينيه وخديه لم يتمالكوا العبوس .

ـ مالك يا فكرى .. مالك يا أبا الافكار ؟ هدىء نفسك .. اهدأ قليلا ، حتى تستطيع أن تقوم على رجليك قبل الامتحان .. حتى لا ترتفع حرارتك أكثر .

ـ وهل قلت شيئا ؟ طلبت أقراص ضد الهنتامين .. لماذا لم يغلقوا كليات الطب والمعاهد الصحية ويفتحوا محلات دقيق وعطارة ؟

ـ يا أخى انت لازلت فى السنة الأولى ، هى تخشى أن يضرك الدواء ؟

حاول فكرى النهوض على كوعه وحرك يده الأخرى فى الهواء .. قال شكرى مبتسما :

ـ أجيب لك مربة خروز البقر ؟ انت حالتك ليست سيئة ، حاجة بسيطة . خذ اسبرين واشرب ليمون ونام شوية .. او اذهب الى الوحدة .

ـ الحبوب المضادة للهنتامين هذه شىء بسيط جدا ، اريد ان اعالج نفسى .

ـ لا ، الأحسن ان تذهب الى الوحدة .

ـ لقد استعملت بعضها وتحسنت ، اريد المزيد .. كان عندى عينة .

ـ اذهب الى الوحدة يا فكرى أمك خائفة أن تأخذ الدواء خطأ . هى لا يهمها أن تأخذ تاكسى ، وصلها «قرشين» من ايجار الطين وعندما فلوس .

ثم أضاف محاولا اقناعه :

ـ ناد على صاحبك فوزى ليذهب معك . وصلها قرشين من ايجار الفدادين .

ـ أريد أن اعالج نفسى ولو فشلت سأذهب للوحدة ..

ـ لا تتفلسف ، يجب أن تتحسن بسرعة ، لا مجال لعمل التجارب ، أنا مائل للاستذكار .

وعاد الى حجرته لكن « قدميه » قادتاه الى المطبخ ، قال فى ضيق :

ـ فكرى مزاجه متعكر وهو عنيد ولا يسمع الكلام . فاكر نفسه دكتور وأخذ حبوبا بدون اذن الدكتور ، هو يحاول أن يخفض نفقات علاجه .

ـ نعم انه يريد أن يخفض ثمن العلاج ، ولكنه سوف يسيء من حاله لو أخذ هذا وذاك . لماذا هذه الزوبعة ؟ هو يريد أن يختصر السكة .. « الردة » ... مجرد اقتراح .

الخصم .. تسللت الكلمة الى ذهنه .. الخصم .. هو احد وسائل الاعلان . يمكن المعلن أن يجعل مزيدا من العملاء يقبلون على بضاعته باعلان خصم لفترة مؤقتة . ويتطلب ذلك تضحية مؤقتة بجزء من الربح لكن هذا يمكن تغطيته من الفرق من تضاعف حجم المبيعات نتيجة الخصم ...

ورجع شكرى الى حجرته واغلق الباب . لكن الأصوات فى الخارج كانت ضخمة وعالية حتى بدأ الباب كأنه مكبر صوت ضخم .. يا عالم ، اريد أن أراجع . أن أراجع فقط لا أن اذاكر للمرة الأولى والأخيرة كما يفعل بعضهم . أما لمواعيد العمل فى ذلك المصنع من نهاية ؟ ذلك المصنع المتنقل الذى ينصبه عباس فى صالة الشقة . حاول أو يقرأ .. صاح عباس :

ـ خلاص ياست ام شكرى ، اعطينى الحساب لأمضى حتى يسهل لى ربنا .

ـ حسبنا ، طيب هيا نتحاسب ، ماذا فعلت ؟ ماذا اصلحت ؟

كاد شكرى يصيح لسبب ما .

ـ وماذا خربت ؟

ـ لحامين قصدير ، اصلاح ماسورة الماء ... الكوع . ثم ..

الصفحة لا يمكن قراءتها ...

ـ .. بسرعة ..

ـ .. قروش ..

ـ خمسة .....

الصفحة لا شكل لها . حتى رقم الصفحة تصعب قراءته ..

فس .. واطفأ الرجل موقده المدوى . وتسرب الهواء ببطء وتلذذ .. واطبق هدوء ... هدوء شامل ... هدوء شاذ .. هدوء غريب . وتمكن شكرى من سماع كل ما يقال :

ـ اعطيه أربعة عشر ودعيه يذهب .

ـ اعطيه اربعة عشر . هذا تبذير ، لا يمكن . ابنى لا يفهم . لا يمكن أن نضيع نقودنا هباء .

الميزانية ... لحام ... ميزان المراجعة .. ماسورة المياه .. دفتر الأستاذ .. دفتر اليومية ... الأستاذ سيدفع .. الذبابة تركت بقعة سوداء كالصفر أمام رقم وقلبت ميزان المراجعة وجعلت مكتب محاسبة بأكمله يبحث عن عجز تسع مائة الف جنيه لأسبوع كامل . الرقم كان مائة الف جنيه فقط .

اما لكلامكم من نهاية ؟ !! الا تنتهون من هذا السباك . كفاكم مساومة يا عالم ... اعطه يا أمى الأربعة عشر قروش ليذهب ... اسكتوا .. اصمتوا .

ـ نعم ، والمكنة الساكتة .. تذكرت الآن ثمنها اثنان وعشرون قرشا وليس عشرون قرشا .

السعر بالريال .. أسعار الفتح ... أسعار القطع ... السعر بالاسترليني .. جيزه (٣٠) البورصة ..

خرج لامه وهو لا يزال منهمكا فى لبس قميص :

ـ قبل ان تدفعى نقوده تذكرى انى اريد نقودا للمواصلات .

ـ لماذا يا شكرى ؟ ماذا هناك لتصرف عليه ؟ انت تراجع اليوم؟

ـ بالضبط . أود ان اذهب واذاكر مع مصطفى . انا لا استطيع المراجعة هنا واريد مناقشة بعض الأشياء معه ..

ـ ولماذا لا تجلس فى هدوء وتذاكر هنا . أخوك تعبان كيف تتركه وحده ؟ . الأحسن ان تبقى فى البيت ، هو متضايق الآن .

عاد شكرى فورا الى الحجرة .. السباك وجهه عليه ضماد وبنطلونه مرقع وممزق ، لكنه طيب وودود . زوجته متوفية ويرعى ابنته . حكاياته طريفة عادة ولكن ليس قبل الامتحان بيوم . ذهب الى مدرسة ابنته وقال فى دهشة وعدم تصديق أ

ــ دخلت فصلها فوجدتها قد جعلوها ريسة على الفصل والصبيح فى البنات فى غياب المدرسة قيام ــ قلوس ــ قيام ــ قلوس قيام ــ قلوس ..

ضحكت كل العائلة من كلمة « قلوس » ..

ــ والبنات يقفون ويجلسون حسب أوامرها . وبينهن أولاد ذوات ، الامتحان غدا . العقل يشتت . هذا شيء لا مفر منه . ابنة السباك نحيفة مثل أبيها ، شعرها مهوش . تصحبه فى أحيان نادرة فى جولاته اثناء عطلة الصيف . لو اتبع عباس أحدث نظم « دراسة الزمن والحركة » لما كان هناك مجال لحكاياته الطريفة .

عاد شكرى الى الحجرة وهو يخلع ملابسه وسمح لعقله أن يتشتت وان تنساب الأفكار اليه . لم يعبأ حتى أن يغلق الباب .. لا مجال للتوتر فالمسألة غير جديرة بكل هذا العناء والتوتر ..

ترى كيف يضبط ابى وامى الميزانية ؟ ما هى الأفضليات عندهم ؟ المسألة تبدو كأنها عشوائية « ويم » ثلاثة بنطلونات وثلاثة أحذية كل أشهر ثلاث بدلا من كل سنتين تقريبا . مصروف يد ومواصلات .. التعليم مجانى ، ثلث الماهية يذهب فى السكن ... الشقة واسعة رحبة . ايجار الفدانين يساعد كثيرا . الطعام .. التصييف فى راس البر ..

قالت امه من آخر الشقة :

ــ الا تغلق الباب خشية التيار ؟ انت تخلع ملابسك ، هذا الوقت من السنة هو اخطر الأوقات . الانسان نعرق ويتعرض للتيار مستهينا بالأمر بسبب الحر فيمرض . امتحانك غدا .

قالتها بصوت خفيض ..

صاح :

ــ عارف ، لا يهم . الكل سواء . مرض أو لا مرض نجاح ، و

سقوط . لماذا كل هذا العناء ؟ ثم بعد هذا الحياة فى مكتب محاسبة من التاسعة الى الواحدة ومن الثانية الى الخامسة أو من الخامسة الى الثامنة مساء ، وهكذا ..

تهادى الفكر فى ذهنه واحس ان جسمه كله فى حالة استرخاء بعد زيارة عباس السباك .. هناك أمور أهم فى هذه الحياة جدا من عبور امتحان . عباس هذا الذى لم يتعلم حرفا واحدا فى حياته ، انسان مفيد جدا وطيب .. الزبال مثلا هو انظف مخلوق فى القاهرة . هكذا قالها احد الاصدقاء مرة وضحك الجميع . ولكن هل فى الامر شىء مضحك .. شىء غريب أن تأتى هذه الافكار قبل الامتحان بيوم . ولكن هل هو شىء غريب ؟ الحياة هى أكبر جامعة . الحياة نفسها هى أكبر جامعة .. وحسب قول والده «من لم يربيه أبوه وأمه ، تربيه الأيام والليالى » .. مع هذا كثير من الناس لايتعلمون الحكمة ولايفهمون الحياة ، جامعة أو لا جامعة .

مرت امه بالحجرة ووجدته يفكر فى امعان ولاينظر الى كراسته . فهمت ولم تتكلم ، فقد أطلت عليه وتوقفت للحظات . فهم انها تفهم ، احيانا هى تبدو وكأنها لاتفهم الحياة فى الجامعة لأنها تربت فى الريف وتقرأ بصعوبة ولهذا تقرأ قليلا ، وتسمع كثيرا . هذه آخر سنة له فى الجامعة ، عادت أمه بعد لحظة وقالت :

— اذهب وروح عن نفسك . تمشى على النيل ، خد «بريزة» .

لم يستطع شكرى الاحتجاج واخذ البريزة التى اخرجتها أمه من صدرها . الحياة معقدة ، ولكن لايمكن التبسيط أكثر من اللازم . المشكلة هى الاعلان .. نعم ، لابد من هذا . لابد من الاعلان ، لكن اعلان الحقيقة بعد دراستها وتمحيصها وليس مجرد الاعلان عن البضائع . لابد أن يفكر الحكماء ، وأن يخبرونا بنتيجة تأملاتهم فى الحياة . يعلنوا عن افكارهم بدل هذا الكلام الفارغ الذى تكتبه الجرائد فى صفحاتها الأولى . لماذا مثلا بدل كتابة « تغيير الوزارة » بخط أحمر عريض . لماذا لا يكتبون .. ماذا يكتبون .. مثلا « الانسان حيوان يحب اللعب ، ولكنه احيانا يصنع المعجزات » ، هذه جملة أستاذ الاقتصاد . ثم مقال يشرح هذا .. التغيير الوزارة شىء غير هام يحدث كل ستة أشهر ، فما اهميته ؟ هل الانسان مجرد حيوان أم أن هذه افكار من الغرب ؟ يجب ان يناقش هذا المقال .. صديق متشائم اقتبس مرة الجزء الاول

من القول ، هل هناك فائدة من هذا التفكير ؟ أم هو جنون ؟ خــرج الى السينما .

لم ينم شكرى طويلا تلك الليلة . الفيلم بعضـه جيد وأغلبه كلام فارغ . ذهب ليرى كيف حال أخيه فوجده نائمــا ، تحسس وجهه فوجده باردا ..

صحا شكرى يوم الامتحان بعينين متورمتين قليــلا ، محمرتين قليلا . وسأله أبوه ان كان على مايرام . فقال انه فى حالة طيبة .

خرج الى الشارع فى الصباح فى طريقه الى الكلية والقى التحية فى هدوء على أحد الجيران العابرين ، فوجىء بعباس يقف عند ســيد البقال فى وضع غير عادى . لم يبال بتحيته عباس . سمع عباس يصبح ببساطة بعد أن نظر اليه من طرف خفى :

ـ الشباب اليوم طرى العود وليس مثل شباب الأمس فى قوته وصلابته مع أن عندهم التعليم والدنيا تقدمت ، ونائمون قائمون فى عز . الا توافقنى على هذا ياعم سيد ؟

ـ لم يرد عم سيد ، جاءه زبون ....

الدكتور «الكسندر هانك»

الأمور بيني وبين « الكسندر » تمر الآن بمرحلة حرجة وهو يحس بذلك ويعلم بغضبي منه ٠

مرت علاقتنا من قبل بمراحل حرجة حينما باهى بأنه سينام فى نفس السرير مع ثلاث فتيات في لندن فى شقة تمتلكها احداهن ٠ كان ذلك حينما لم يكن متزوجا عرفت أنها مجرد مباهاة وكلام فارغ ولكنى لم أرد مثل هذه السفاهة من انسان يخالط أولادى وبناتى ٠

الكسندر هذا كان مدرسا شابا في الجامعة في بولندا وحاصلا على الدكتوراة وتشاجر مع زوجته وهجرها الى الغرب فى رحلة جامعية وكانت حالته سيئة ماديا رغم انه لم يشكو لأحد مما حببه للجميع ، عمل في دار نشر فى الرسم والكتابة للأطفال فى مانشستر ٠ شعرت بالعطف عليه وأحببت صحبته ، أحسست أحيانا انه يستغلنى ولا يصادقنى بالقدر الذى أصادقه ٠ رغم هذا شعرت أن كلانا يحتاج للآخر وأن كلانا يستفيد معنويا وتسعده صداقة الآخر ٠

لم أبال كثيرا ببعض تصرفاته الحمقاء الغريبة مثل كراهيته للعواجيز ، الشيء الذى جعل زوجته الثانية يجن جنونها ٠ كذلك شككت أن طلاق والديه قد أفسده في طفولته دون أن يشعر وعرقل نموه النفسي والعاطفى ، لكنه نفى ذلك تماما ٠

كان هناك نوع من الصراع بين غيظى من أنانيته وتصرفاته الطفولية وبين عطفي عليه وانجذابى الى براءته الطفولية التى تبدو فى نظرته البهيجة الى الحياة ، وحماسه الشديد للصغير والكبير من تفاصيل الحياة واحتماله المشقات مثل عدم استطاعته شراء سيارة أو الحصول في البداية على سكن محترم ، كذلك كانت هوايته أن يأكل القليل مثل قطعة

شوكولاته وزجاجة كوكاكولا على الغداء أو طعام من مطعم هندى رخيص وخبز « بابادام » و « الكارى » ، ثم يوفر النقود للسفر فى رحلة رخيصة فى ربوع أوربا يتناول فيها طعامه المكون من السجق الأوربى والخبز ويقابل أصدقاءه فى مكان أو آخر ٠

كان ذكيا جدا نشيطا ، وحكى مرة أنه فى طفولته المبكرة اصطحبه امرأة ورجل مخابرات وتظاهرا أنه ابنهما فى رحلة تجسس الى بلد خارج بولندا ٠ سعد كلانا بالمناقشات الفكرية وكنت أول من كلمه فى الفلسفة فى انجلترا ، قرأت الفلسفة بحذر وشاهدت خمسة عشر برنامجا فلسفيا على المحطة « الثانية » ، جذب انتباهى ماركوز الفيلسوف العجوز لأنه لم يصبح اسمه كالطبل سوى وهو فى السبعين وبدأ متواضعا جدا ، كذلك ايريس مردوخ لأنها تحدثت عن كل من الأدب والفلسفة وهى أديبة وفيلسوفة وتحدثت عن الفرق بين الخيال والأحلام الهروبية وعن ضرورة عدم استخدام القصة كوسيلة واعية للاعلان عن الفلسفة التجريدية التى يعتنقها الأديب ٠

هذا يختلف تمام الاختلاف مع لورنس داريل الذى كتب (رباعية الاسكندرية) معتمدا على أن الحياة مادة فقط وأن المادة لها أربعة أبعاد هى الطول والعرض والارتفاع وزمن الاحتراق وأن كل شىء فى الحياة هو المادى فقط ٠

من الصعب الحكم فى أى الرأيين صحيح ، الجمع بين الأدب والفلسفة أم فصلهما ٠

وقابلت متخصصين فى الانجليزية لا يحبون الرباعية وغموضها ، وكنت قرأت الجزء الأول فقط منها مما ساعدنى على عدم التظاهر بحبها ٠ والمجاهرة بأنى فضلت الفيلم الذى تتسلسل فيه الحوادث عن الرباعية الغامضة المادية ، وكم ناقشناها ٠

لم يكن الصراع الآن بيننا خفيا ولكن كلانا كان على استعداد لاحتمال الآخر نظرا لأن كلانا متغرب عن بلاده ويعرف جيدا معنى الوحدة والغربة ٠ ومعنى الصدمة الحضارية واختلاف البيئة حيث تحس انك لا تعيش فى وطنك الجديد هذا رغم اعتبار كلينا لانجلترا كوطن ثان ، واكسفورد حيث نعيش كأنها القاهرة أو وارسو ٠ كذلك كان كلانا مستطيعا أن ينظر الى الغرب نظرة موضوعية من الناحية الاقتصادية والسياسية والفلسفية والحضارية ٠

اتصل بي إلكسندر تليفونيا بعد غياب وصمت ثلاثة شهور . لم أرحب بتليفونه ولم أصده أيضا . قال انه سيزورنا واتصـــل بالبيت قائلا انه سيحضر يوم الخميس ، وفعلا حضر يوم الخميس مع أمه . وكانت تصرفاته حذرة محافظة الى حد ما . أعطت أمه زوجتي ورود «دافوديل» صفراء رخيصة وبيضة من الشكولاته . تصرف في أدب وذوق شديد في البـداية وتملقني كاذبا لكنى أعرفه جيـدا لهذا لم أسمح له أن يلعب ألاعيبه . وتحدث لزوجتي عن تصحيح قصصه وقال ان اسمها سيوضع في الكتب مع قليل من المال .

قلت معاندا ، المال هو المهم .

قال : « بل الاسم هو المهم » .

قلت : « كلا » . كان هذا أول صدام .

أخبرته أن زوجتي تريد أن تبني مستقبلا في الكتابة بجوار عملها كسكرتيرة في شركة .

كان قد سبق وأحضر زجاجة نبيذ في غيابي وزوجتي وحدها وهو يعلم ذلك ، وطلب اليها تصحيح قصصه .

أجلت شربها لحين حضور والدته :

كتبت له خطابا رده البريد لعدم وضوح العنوان وكنت ســـأقطع علاقتي به .

بدأ أول ما بدأ في الزيارة بالشكوى من فداحة الفواتير لتصليح البيت الذي اشتراه بالتقسيط ووضع سقف لجزء اضافي .

قلت له : هذا الجزء الاضافي القديم . رفض ، وكأنني ملزم بقبول هذا المنطق والاستماع لشكواه .

بعد وقت قصير زال التوتر الى حد ما وتحدثت اليه على أمل أن يعيد المياه الى مجاريها . تحدثنا عن أحلامنا وآمالنا كما كنا نفعل قديما وهو فقير قبل أن يظهر كانسان قاس يستغل الناس لمصلحته الخاصـــة بكل مهارة ونعومة .

تحدثت اليه ناصحا دون كراهية وقلت له صراحة انه يتكلم دائما في الماديات وأن هذا هو ما يسمى بالمادية رغم أنه يهاجم « الرأسمالية الخاصة » .

قال فى لهجته البارعة : « أتقصد أننى لا أهتم كثيرا بالناس ؟ »
قلت : « نعم أنت لا تهتم بالناس بالقدر الكافى ·· أنت لم تكف عن الحديث فى أمور مادية منذ جئت » ··

هو يعرف الآن رأيى فيه بصراحة ، كان يتحدث عن تكاليف بيته وتكاليف هذا وذاك ويسأل عما ندفع نحن ، وقال انه لا يدفع شيئا من التقسيط لأن عنده سكانا يدفعون ايجارا يغطى الأقساط ·

سررت بذلك ولم أحسده لأن ماهيته قليلة نوعا · ولم أشعر بأى غيظ · بعد برهة قال انه يود بيع بيته بعد سنتين وشراء بيت صغير حتى يستطيع أن يسافر حول العالم · ويزور أصدقاءه ·

سررت بهذا لأن هذا هو الكسندر القديم اللامادى لكنى دهشت قليلا لأنه يفكر فى عمل ذلك بعد سنتين ·· تحولت دهشتى الى حذر لأنه هو هو الانسان الملس الناعم الكلام ·

تحدثت اليه فى المساء ونحن وحدنا عن عودته الى زوجته الثانية أو عودة زوجته الثانية اليه بعد انفصالها الذى دام شهورا ·

قال فى هدوء انه سعيد كما هو ويرى أن الزواج تعقيدا لا جدوى أو فائدة منه فى حياته · رغم قوله هذا أنا أعرف أنه حاول أن يكون علاقة مع زميلة له فى دار النشر دون جدوى ·

موقفى من ذلك كان موقفا محايدا فكثير من الناس يستغلون الزواج ·· والتزاماته القانونية ·

كان قد قال مرة بصراحة وبرود : « انت تعرف أنى أنانى لهذا أنا لن أتزوج ، فقط سأتخذ عشيقة » ·

قالها بلهجته الطفولية التى يستعملها فى الحديث أحيانا والتى سخرت منها أحيانا ، زوجته أمامى ، أنا أعرف الحرية التى يريدها لنفسه ولكن لا أوافقه على الحرية المطلقة التى يريدها والتى لا تضع اعتبارا للآخرين ·

أنا أيضا أحب قدرا كافيا من الحرية ·

فكرت أن أقول له : وهل تريد أن تسلم بالفشل فى العلاقات بالناس ؟ « لكنى لم أتحدث بأفكارى لأنى كنت أرى الأمر شديد الايلام له ولى » ·

قال لى :

ـ لا أريد الزواج والعلاقة الزوجية بمشاكلها السابقة .

قلت :

ـ كلا ، المشاكل يجب أن تحل قبل أن ترجعا أحدكما للآخر . أنت وزوجتك يجب أن تتكلما معا وأن تغيرا من موقفكما أحدكما للآخر على ضوء الفهم المتبادل لما يفرح أو يغضب أو يغيظ الآخر .. زوجتى وأنا تقابلنا ثلاث مرات مع الاخصائى النفسى الذى قلت لى عنه أنت بعد أن أقنعته أن يقبل مناقشة مشاكلنا . تحدثنا نحن أغلب الوقت وأعطى اقتراحات قليلة جدا لكن هامة جدا .

سألنى عن « بولين دافيز » وهى الفتاة التى رسمتها عارية ورسمته عاريا مرة . وثارت زوجتى عندما علمت بالأمر . كانت هى أيضـــا قد سألت عنه بتلهف عندما علمت أن زوجته تركته رغم أن بولين تدعى أنها متدينة ومحافظة .

هى رغم هذا ودون أن تعرف أنانية جدا . كلاهما يستحق الآخر .

قررت أن أخبرها بسؤاله عنها . فى جلســـتنا المسائية قلت له ولزوجتى :

ـ زوج هيلين نورييف قال نكتة لخص بهـــا تاريخ الفلسفة لـ « سقراط » قال :

ـ اذا أردت أن تكون فاعمل « دو » . و « كانت » .

قال : اذا أردت أن تعمل فكن أى « تو بى دو » وفرانك سيناترا قال : « دوبى دوبى دو » .

ابتسمت زوجتى قليلا لأنها كانت قد سمعت النكتة وعبس هو . ضحكت عاليا وقلت : من المضحك أن ينظر المرء الى عبوس « الكسندر للنكتة » .

وأنا أعرف جيدا أنه لا يحب الرجال بل نساءهم فقط .

ابتسم فجأة لملاحظتى له بأنه ربما هو عبس ويأخذ الفلسفة بمأخذ الجد التام . وها هو زوج هيلين لا يعيش فقط فى البيت معها بل يسخر من الفلسفة أيضا والكسندر يتخذ موقفا جادا من الفلسفة . طبعا لم تعجبه النكتة .

استمرت المنغصات . ففي اليوم التالي خرجنا سويا فى سيارتنا . هو يوفر نقوده حتى الآن وليس عنده سيارة . حدث خلل فى السيارة فتركنا وسار بعيدا وكأن الأمر ليس من شأنه ، وعند عودتنا نظر الى تمثال المحارب الأسود الحديدى الذى يحمل قوسا وسهما وسيفا وقال :

ــ هذا هو بروفسور فرانك . هذا هو بروفسور لوك وجهه مثل وجه بروفسور فرانك .

كان قد قال نفس الكلام في اليوم السابق وصمت وقتها . بروفسور لوك هو أحد شخصياته الكاريكاتورية التى رسمها وكتب عنها وهو انجليزى يدخن البايب . جن جنونى هذه المرة . يريد أن يعيش فى عالم وحده .

تمالكت نفسي وقلت له متحديا : لا تقل عن هذا التمثال أنه بروفسور لوك . هذا محارب أسود صنعه لي رجل من جزر الهند الغربية . لماذا تحاول أن تمتص الناس لكي يعيشوا فى عالمك الواقعي والخيالى ؟ . هذا ليس البروفسور لوك الأستاذ الغربي بل محارب زنجى .

تجهم وجهه وانمحت الابتسامة من فمه .

سعدت لأننى استطعت بشق النفس أن أوقفه عند حده ، وأن أعيد الى الجلسة صوابها .

جاء ناس كنا قد قابلناهم فى الفسحة وزارونا ، صنعنا لهم قهوة ، سألت أولادى احضار أطباق لمنع انسكاب القهوة على السجادة الجديدة .

قال فى هدوء : هذه السجادة الصفراء تلائمها بقع قهوة بنية .

قالها فى عدم مراعاة لمن سينظفها لو اتسخت .

قطعا ليس هو الذى سينظفها بل زوجتى . اغتظت جدا مرة أخرى وعبست للمزاح الثقيل والغيرة البادية فى كلامه . لكن لم أتكلم .

أخيرا ، أخذته ووالدته الى محطة الأتوبيس فى سيارتى ، تذكرت محاولته رشوتى « بكلامه » عند احضارى لهم حين قال شكلك مثل الفلاسفة المشهورين وأنت تدخن البايب . هو يتاجر فى الكلام .

قبل نزولهم من السيارة للمرة الأخيرة أعادت أمه السؤال : « متى ستحضر الينا ؟ » .

فهمت أن السؤال بايعاز منه لأنها غير معتادة على التعامل الشخصي معي في أكثر من كلمات قليلة بالانجليزية المتكسرة .

قلت : « غدا التاسعة والنصف أو التاسعة » .

قال في جرأة : « التاسعة والنصف ؟ » .

قررت اننا لو كنا مشغولين في الغد فلن أذهب . كان يريدني أن أحمل ثلاثة أبواب قديمة ضخمة .لكي يضيفها الى بيته ، في السيارة .

بدا لي ، ولزوجتي أيضا ، كما فهمت فيما بعد أنه لم يحضر لزيارتنا رغم كل هذه التعمية والمصادفة سوى لكي يطلب مني هذه الخدمة الهامة . هو الآن لا يمكن أن يظنني غافلا عن طريقة معاملة ايانا .

سألته : لم تتصل بنا منذ ثلاثة شهور ..

قال : الأيام تمضي سراعا وانا مشغول .

قلت : لم تخبرنا عن أسبوع العرائس العالمي أيضا ؟ .

قال : هذا شيء ضروري لعملي في دار النشر للأطفال .. لم أفكر فيكم .

نعم ، هذا كان كلامه ، تيقظت لجفوته وتكبره الشديدين ، فكرت أنها طريقة لاخفاء اخفاقه في حياته الخاصة .

لم أذهب الى بيته في اليوم التالي وفكرت في اخطاره بقطع العلاقة نهائيا ، لكني أخيرا ترددت أن « أبرد » العلاقة أو أن « جمدها » تماما وأدع تصرفاتنا تتكلم أعلى من كلامنا . تماما مثلما قلت له : « انني لا أتكلم مثلك في كل شيء ولا أعطي الكلام أهمية قصوى » .

حينما قلت له ذلك مسحت الابتسامة الزائفة التي وضعها على وجهه أعواما طويلة من الصداقة أو بالأحرى المعرفة .

انني لا زلت رغم هذا موزع الخاطر بين الشعور بالألم من أجل عدم نضوجه العاطفي وفشله الشخصي وبين الاحساس بضرورة التشدد معه حين يحاول أن يعبث بحياة ووقت الآخرين كطفل كبير خطر .

زوجتي وصفتني مرة بأني عنيف حين هاجمت العنف وتذكرت تعريفا للعنف بأنه : « استعمال القوة أكثر مما يلزم الموقف » .

أعتقد أن قراري تبريد علاقتي تماما بدلا من اعلان مقاطعتي له نهائيا لعله يرتدع ، قرار غير عنيف .

قابلت وصادقت هذا النوع من العباقرة التي تضخمت عقولهم على حساب نموهم النفسي أكثر من مرة .

وقالها كذلك أستاذ فن هولندي أعرفه ويسير ضد التيار العقلي الحضاري الحديث وكان محبوبا من زملائه رغم ذلك . أعتـــرف أنني شغوف به ، وأعترف أنني سأحزن كثيرا لو فقدت صداقته .. يجب أن أعترف لنفسي بذلك .. ولكن لا بد من الحزم وليس العنف .

سمعت انه « شبه » آسف على انتهاء علاقتنا ، من أحد المعارف .

اكتشاف طبيعة هانك تكرر أكثر من مرة بل وذكرتني بشخصيات بعضها من أرض الوطن ، وتكررت التجربة لكن لم تتكرر المعاناة .

اقتصاد عود الكبريت

كنت جالسا فى مطبخ عائلة ايفانوفيتش الفرنسـية الواسع فى مونبلييه · جريجورى ايفانوفيتش فرنسى يهـودى من أصل أوكرانى وروسى · وهو رئيس قسم التصوير فى مدرسة فنون · لهم منزلان ·

كان المطبخ به ابنته المراهقة ناتاشا وصديقتها المقيمة معها مقابل أجر فى حجرتها وزوجته سيمون · كذلك كان مع ناتاشا صديقها «بيير» الذى تعرفت عليه حديثـا جـدا ويملك محلين للملابس واسمهما « كارلو » ·

قالت سيمون فى جذل وحماس وانطلاق ·

ـ هذا (كارلو) صديق ناتاشا تعـال وقابله · يملك محلين للملابس ·

وهذا فؤاد ·

هكذا سيمون دائما ·

كررت لى من قبل شعارها « اضحك يضحك معك الجميع ·· ابك تبكى وحدك » ··· وهى لهذا تخفى دائما آلامها بقدر الامكان ·

سلمت على « بيير ». فقال مبتسما :

ـ اسمى « بيير » وليس « كارلو » ·

قلت :

ـ من أين أنت ؟ من مونبلييه ·

قال :

ـ كلا ، أنا من مارسيليا ·

قلت :

ـ سمعت ان أهل مارسيليا يجيدون السخرية ؟

تردد قليلا ثم رفع عينيه ونظر الى وشعره الأكرت الاصفر يحيط وجهه ثم قال فى نبرة عادية :

ـ نعم ، ربما هذا صحيح ٠

ـ لماذا ؟ لم أصدق الامر ، عندما سـمعت ذلك من زميل درس هناك ٠

قال :

ـ لا أدرى ٠

قلت :

ـ اللهم انك « انسان » قبل كل شيء وليس مجرد صاحب محـل ملابس أليس كذلك ؟

لماذا يقدم الناس دائما معارفهم بتحـديد عملهم بدل هواياتهم أو شخصياتهم أو أفكارهم ؟

أنت « انسان » ٠ أليس كذلك ؟

قال ضاحكا فى سرور وبدون تفكير :

ـ نعم ٠

كررت كلامى وأنا مغتاظ قليلا من سيمون وقلت مصرا :

ـ نعم ، انت انسان قبل أن تكون مالكا لمحلين ملابس ٠

ضحكت أم ناتاشا وقالت :

ـ نعم ، « كارلو » انسان ٠

ابتسم وقال فى اصرار هادىء ٠

ـ اسمى « بيير » وليس « كارلو » ٠

قلت وقد احسست بالحرج ، وأحسست بجرح « بيير » لانها تهتم بالمحلات وليس به هو ٠

ـ « كارلو » هو اسم « محل الملابس » ٠ اننى انسان قبل أن أكون « مدير مطعم صغير » ٠ هكذا أقول للناس ٠ قلت لعجوز أمريكية غنية حين سألت « ماذا تفعل ؟ » اننى أحاول أن أعيش ٠

دهشت وارتسم على وجهها الاستنكار وسألت ان كنت أعمل وقلت نعم •

انفجرت سيمون ضاحكة عاليا • هي تتهم زوجها بانه يريدها أن تعمل رغما عنها ، ولكنها تهتم جدا في قرارة نفسها بما يعمل الناس وتحترمهم بحسب مراكزهم المادية دون ان تدرى • بدأ « بيير » في الرابعة والعشرين فقط وبدأ مستريحا مسترخيا في المطبخ الواسع الجميل ، رغم ان هذه كانت أول مرة أقابله هناك ، وأنا أتردد كثيرا على عائلة ايفانوفيتش •

أشعلت الغليون الذى معى من صندوق كبريت موجود على مائدة المطبخ أمامي • كان الغليون مسدودا دون أن أدرى فقد كنت حديث العهد بالتدخين • اقتضى الامر اشعال عدة أعواد من الكبريت الواحد تلو الآخر •

جمعت « ناتاشا » عيدان الكبريت الواحد تلو الآخر وكنت قد وضعتها فوق بعضها ، وضعت ناتاشا العيدان بحرص في المطفأة ولكن بدون ضيق • علاقتي بناتاشا جيدة فقد صادقت العائلة كلها ، والعائلة تمر بمرحلة تفكك شديد ، لم أفضل أبيها على أمها أو أمها على أبيها ، بل صادقت الجميع و هكذا حاولت •

أحسست بآلام ناتاشا المراهقة وتحدثت معها احيانا في مصارحة ونحن وحدنا عن تصرفات والدها وخروجه مع نساء أخريات وعن أمها وقوة شخصيتها الزائدة ومحاولات فرض ذوقها على ناتاشا •

أذكر كيف كان هذا يحدث مع أمي في مراهقتي وكذلك أبي • لهذا ناتاشا وهي في سن ابنتي الكبرى تطمئن الى الى حد كبير • حدثتها عن التوتر العائلي الذي مررنا به في العام السالف أيضا في صراحة فعائلة ايفانوفيتش من العائلات النادرة القريبة الى نفسي •

انفجرت مرة ناتاشا في والدها وثارت عليه لانه ترك البيت •

وكان هناك دردشة ثم قال جريجورى :

ــ لم أعرف انك تدخن •

قلت :

ــ هذا ليس دخانا ونيكوتين ، هذه أعشاب معالجة تعطى لذة التدخين بدون نيكوتين • أعشاب معالجة بالعسل الاسود وعسل النحل وعصير الفواكه •

قال جريجورى :

ـ لقد احتاجوا لمئة عام ليكتشفوا مضار التدخين .

فهمت انه يقصد أن الاعشاب أيضا لها مضار لم تكتشف بعد .

ضحكت ناتاشا وقالت مشاكسة لى :

ـ هو يدخن مخدرات ... أعشاب مخدرة .

ضحكت أمها كثيرا معها .

التفت لجريجورى أمام زوجته وابنته فى هذا اللقاء النادر للجميع معا ، وقلت شاكيا قليلا فى نبرة واقعية .

ـ زوجتك وابنتك يظنان انني ظريف جدا ومضحك . ماذا أفعل ؟ هم يظنون ما أقول هزلا ظريفا بينما أنا جاد شديد الجد .

قال :

ـ اجلس وتمتع بالامن . استمتع بانك وطرافتك محل اعجاب الناس .

قلت :

ـ نعم ، ولكني أحب أن يأخذوني بمأخذ الجد . كيف تصرفت مع نساء بيتك ؟ كيف تتعامل معهم ؟

ضحكنا أكثر وأكثر . ولم يغضبنى ذلك بالمرة هم يضحكون مثل كثير من الناس حين لا يفهمون .

قلت :

ـ بخصوص التدخين . جدتى فى ريف المنصورة فى الدلتا فى شمال مصر ظلت تطبخ على « كانون » مدخن وعاشت خمسة وتسعين عاما فى صحة تامة وكانت تناقش فى السياسة وتستحم فى البحر فى الاسكندرية الساعة السابعة صباحا فى قميص النوم .

قال :

ـ هل كانت تستعمل روث البهائم كوقود ؟

قلت :

ـ نعم وغيره . روث مجفف يسمى « جله » .

قال :

ـ قرأت ان هذا هو ما يسمى « اقتصاد روث البهائم » وان هذا يحرم الارض من خصوبتها •

وجدت كلامه على غير أســاس وغير معروف لى • ولكنه عاد وأضاف •

ـ فى مصر عندكم الطمى •

ـ نعم الطمى الاحمر فى الصيف كان النيل يمتلىء حتى الحافة ويتحول لون الماء الى الاحمر البنى القانى •

قال :

ـ هذا اختفى الآن مع السد العــالى • لا يجب العبث بالطبيعة ، والسمك أيضا اختفى •

اشــعلت الغليــون وقلت وأنا أنظر الى الأرفف الــكثيرة وموقد البوتاجاز والاباجورة المنخفضة ولون الحــائط البنى ثم الملصــقات العديدة •••

ـ كلا ، كنت فى مصر من وقت قريب ، بحيرة ناصر يخرج منها الآن آلاف الاطنان من السمك • فقط السمك عند مصب النيل ، الاسكندرية ورشيد ، ليس بالكثرة السابقة • ولكن هناك آلاف الاطنان من السمك خلف السد • سمك ضخم جدا ، ذو أسنان قوية أيضا •

قال جريجورى وعلى وجهه الشباب علامات وتعبيرات قليلة واقعية وغير عاطفية •

ـ نعم ، ولكن الارض ضاعت خصوبتها •

أجبت :

ـ نعم • نحن نستعمل السماد الآن • ولكن أصبح لدينا كهربا للمصانع لا غنى عنها • نعم لم تنخفض أسعار الكهربا كما وعدنا • ولكن منذ سنين لم نكن أكثر من مزرعة قطن لانجلترا • الآن نصــنع قطننا بأنفسنا • البيوت فى القرى كما هى •

قال :

ـ الخسارة كبيرة • هل هى تعادل المكسب ؟ أليس هذا جميل ان

تظل البيوت على عهدها السابق البسيط البدائي الذى لا حضارة ولا تعقيد فيه أكثر من اللازم مثل بقية الحضارات الحديثة ومشاكلها •

كان في يدى عود آخر • توقفت عن اشعال الغليون لأخبره عما حدث في ٧٣ • لكنه كان واقفا بالمرصاد وقد بدأ التوتر والقلق على جسمه وذراعيه ووجهه وقال وقد وضع يديه على حافة المنضدة فى تحفز •

ـ ان العود سيحترق • العود سيحترق عبثا • اشعل غليونك •

نظرت اليه فى برود وقلت له دون ان أشعل الغليون •

ـ جريجورى ، لا بد انك يهودى •

انفجرت سيمون وناتاشا ضحكا وبيير أيضا انضم اليهم • هما عادة شديدى الحيوية • مضت فسحة من الوقت لم يتمالك بعدها جريجورى سوى أن يضحك هو أيضا • انفرجت شفتيه عن أسنانه الناصعة وارتخت ملامح وجهه الشاب وظللنا نضحك لمدة طويلة • أخيرا قال مفسرا وهو يبتسم •

ـ انني أكره الاسراف •

هو يعرف انني مصرى •

قلت :

ـ كنت أود أن أخبرك بمعلومات هامة جدا • عن السد العالى وما حدث عام « ٧٣ » •

مصر كانت مهددة بفيضان خطير ، كلا أقصد مصر كانت مهددة بشح خطير فى مستوى مياه النيل • كانت مهددة بمجاعة ولولا السد العالى لما مر العام على مصر مثل بقية الاعوام العادية ، ولقاسـت من الهوان والمجاعة فوق ما فيها من مشاكل ومصاعب •

هكذا كثير من الناس فى الغـرب يتمتعون بميزات التكنولوجيا والصناعة ثم يتشدقون ويتحدثون وكأنهم يعرفون كل شيء ولا يروا ان تتمتع دول العالم الثالث بميزات التكنولوجيا أو لا يريدون أن يعرفوا الحقيقة • كثير من الناس يفـكرون بهذه الطريقة وكل شيء له ميزات ومساوىء فى الواقع •

وقلت متضايقا بل مغيظا •

ـ هم يريدون عالما ثالثا بدائيا يقضون فيه أجازة شهر فى أفخر الفنادق ويشاهدون البدائية من بعيد دون أن يقاســـوا آلامها ويمتعون أنفسهم كسواح لا يعرفون عن واقع الحياة ، حيث يصبحون شيئا ٠

سكت ثم أضفت :

ـ اننى رأيت ان هذه المعلومات أهم من عود الكبريت الذى أقلك احتراقه عبثا ٠

ضحكنا مرة أخرى ضحكة قصيرة ٠ كان الجو مرحا أكثر من العادة٠ أعتقد ان الضحك الشديد كان يخفى كثيرا من التوتر ٠ جريجورى كان فى أجازة نصف العام الدراسى وابنته ناتاشا كانت مزمعة أن تذهب الى اسرائيل للعمل فى « الكيبوتز » ٠ وهذه الفترة القصيرة التى اجتمع فيها شمل الاسرة سبقتها فترة كان جريجورى يعيش فى شقة صغيرة مفروشة بعيدا عن زوجته وانفصل عنها لمدة سنتين ، كانت تنتظر منه أن يسأم وأن يعود ٠ مع هذا ، الاشياء بينهما ليست على ما يرام ٠ هو لا زال يحاول الابتعاد عن زوجته ويصادق امـــرأة أخرى متزوجة وتدرس فى الجامعة لها أولاد وتركت زوجها ٠

زوجتى الجزائرية طلبت منى الطلاق أو سألتنى ان أطلقها اذا أحببت بسبب خلافاتنا الشديدة مدة أربعة أشهر لكنى رفضت من أجل أولادنا ٠ ليس عندى المقدرة أو الرغبة فى السيطرة على زوجتى واخضاعها كما تتمنى خفية أحيانا ٠ وحينما تتوتر الامور بيننا اكتفى بالوقوع فى غرام أفلاطونى مع نساء اليهن أزواجهن ٠ وقعت فى غرام أفلاطونى مع سيمون فى البداية لكنى عدت واكتشفت انها هى أيضا مسئولة عن انهيار زواجهما مناصفة مع زوجها ٠ لانها محبة للسيطرة وتعتبر جريجورى مصدر أمان واحترام فى حياتها ولا ترعى احتياجاته تماما ٠ طلبت اليها أن تؤمن وتثق فى الله ٠ رفضت بشدة وهاجمت الدين بعنف وأدب ٠ قالت لى أن هذا الاتجاه الدينى مبعثه بيئتى الشرقية ، وهكذا أيضا رغمتى ان تحترمنى وتطيعنى زوجتى طالما اننى انسان معقول ٠

افهمتها أو حاولت افهامها كيف ان الامور بينهما سارت فى اتجاه خاطىء لانها حاولت أن تلعب دور « الآلهة » فى عائلتها وتوجيه الأمور بحيويتها وجاذبيتها ٠ وكان آخر ما قلت لها ٠ لقد أصبحت عبدة ، رقيق، نتيجة لتشبثك بزوجك وهو الآن لا يحترمك وربما يحتقرك كما تقولين ٠ يجب أن تثبتى له احترامك لذاتك أولا قبل أن يستطيع أن يحترمك هو ٠

كذلك عدنا ونحن جالسون في حجرة الاستقبال المريحة المزدانة بالفازات واللوحات البارزة الخزفية وجهاز « الستريو » الثمين والاباجورة الكبيرة ، الى الوقت الذى تزوجته ، حين كانا طالبين فى كلية الفنون ، وقلت لها .

ـ من كلامك افهم انك استخدمت زوجك جريجورى لاغراضك الخاصة . نظرت الى حجرها وكفيها ثم رفعت عينيها الى وقالت وعلى وجهها علامات الجد :

ـ نعم . أردت الامان والاطمئنان العائلى ولكنه لم يكن مستعدا للمسئولية ولم يكن ناضجا بما فيه الكفاية لكى يتزوج .

ـ رغم هذا حملت منه وتزوجته وهكذا ظل طوال حياته يحس بانه مكبل وأسير .

قالت فى سكون شديد وهى تضع رجلا على الاخرى وكانت مرتدية بنطلون قطيفة .

ـ نعم .

كانت لحظة اعتراف ووقار . لم يكن هناك صياح وعصبية وصوت عال كعادتها أحيانا ، بل كان هناك جد يشبه جد حجرة الاعتراف . لكنها مع هذا تكره الدين والسياسة .

تذكرت كيف نادانى جريجورى من حجرة التليفزيون صائحا وأنا فى المطبخ ذلك اليوم .

ـ يا فؤاد سيوقعون المعاهدة الآن ، تعالى .

كانت هذه أول مرة ينادينى لكى أفعل شيئا معه . ووقع السادات وبيجن وكارتر المعاهدة . تركنا واقفين فى وسط الحجرة وحدنا وسيمون فى المطبخ وحدها . وصاح وهو الشخص الذى لا يقدر أن يعبر عن عواطفه الا بالكلام .

« لقد فعلناها » قلت : « نعم فعلناها » .

لقد صليت لله لكى يوقع جريجورى وسيمون معاهدة صلح مشابهة فى حياتهما الخاصة . ومن يدرى لعلهما يستمعان لنداء السلام ، والمحبة ، وعدم الانانية والتضحية .

قلت لناتاشا :

ـ حين تذهبين لإسرائيل سأعطيك عنوان مدرسة فرنسية تدرين الرسم فى مدرسة في القاهرة ..

وأعطيتها عنوان المدرسة فى حالة زيارتها للقاهرة ، وسر بذلك جريجورى وسألنى :

ـ هل هى فرنسية ؟

قلت :

ـ نعم وعنوانها على عنوان بعض الامريكيين فى القاهرة .

سألت ناتاشا :

ـ هل هم من « جيش السلام » ؟

قلت :

ـ نعم ، ولكن ليس بالضبط « جيش السلام » الذى صنعة كيندى انتهى .

سألنى جريجورى .

ـ لقد قرأت عن الشرق الاوسط . كيف يمكن تعريف الاسلام ؟

ـ الإسلام مشابه للتوراه هو دين الاله الواحد ، ودين القواعد والشريعة .

قال فى حماس .

ـ المسيحية كذلك مؤسسة على التوراة .

قلت :

ـ المسيح قال ان الله محبة وان المحبـــة هى تكميل الشريعة والناموس .

قال :

ـ سمعت ان النبى محمد عليه الصلاة والسلام قال « اطلبوا العلم ولو فى الصين » .

ـ نعم هذا « حديث نبوى » .

اكتشفت مؤخرا لدهشتى ان الصوفيين يحبون جدا فلسفات وأديان الشرق الاقصى ··· وفى زيارتى الاخيرة للقاهرة اشتريت لاولادى طاقية من حى الازهر مشغول عليها كلمات « الله محبة » .

ضحكت أسارير سيمون وناتاشا وقالت سيمون :

ــ هذا رائع . هذا محور السلام .

أومأت ناتاشا برأسها موافقة فى بطء وشىء من الحزن ، أومأت عدة مرات . لاحظت تلك اللمسة الخفية من الحزن على وجهها .

أعتقد ان ناتاشا تحترمنى لانى رفضت تطليق زوجتى من أجل أطفالى ولأنى أحبها . كنت سألتها فى لحظة يأس يا ناتاشا أيهما أحسن للأبناء حين يوجد خلاف شديد بين الأبوين ؟

هى عادة تبدو قوية لكنها قالت ردا على سؤالى فى وهن شديد « أعتقد ان الطلاق أحسن » .

ناتاشا قالت لنا من قبل وهى تدخن السجاير أمام زوجتى مما أثارها ، انها كانت تلعب الجيتار مع فرقة شباب تغنى أغانى الانجيل فى الشارع ولكنها تركتهم لانهم رغم جمال اغانيهم وجدت أنهم ليسوا واقعيين بما فيه الكفاية ، وعلى غير اتصال كاف بالحياة والناس . غنت لزوجتى ولى وصديق آخر أغنية على الجيتار عن صديق وغرفة فى فندق بعيدا عن جو البيوت المحطمة . غنت لنا وانتهزت فرصة ذهاب والدتها لاعداد بعض القهوة وراعت أن تغلق الباب حتى لا تسمعها أمها . كان والدها فى الخارج ذلك المساء مع صديقة .

بعد أيام سألت سيمون ونحن وحدنا عن تليفون ابنهما «لوسيان» الذى يعمل فى مطعم طعام نباتى فى مدينة على شاطىء نورماندى . أعطتنى الرقم وقلت لها وكان الوقت متأخرا .

ــ أتذكر حين كنت مع جريجورى عند توقيع المعاهدة ان لوسيان دخل علينا فى الظلام وسلم على فى بطء وعندما عدنا الى المطبخ سأله أبوه فى عجلة .

ــ منذ متى وأنت هنا ؟

قال له لوسيان فى لهجة عتاب لا أنساها ، لهجة فيها كثير من الألم .

ـ انني هنا منذ ساعة • ولكنك كنت مشغولا •

قالت سيمون وقد ران على وجهها شيء من الحـــزن ونظرت الى المنضدة •

ـ هل قال لوسيان له فى عتاب « أنا هنا منذ ساعة ؟ » •

ـ نعم •

ـ نعم لوسيان يحس بان والده قد تركه ولم يعطه المشــــورة اللازمة وانه أخلى نفسه من مسئوليته بعد انتهاءه من دراسة التصوير • هو يحس ان والده قد تخلى عنه ،

لن أنسى مظهر الألم الصامت فى عينيه وفى نبرات صوته • وجهه يشبه وجهها بشعره الاسود الكثيف وملامحه البارزة الحســـاسة ورقبته الطويلة • هذا سببه أيضا الدم الاســـبانى الذى يجرى فى عروقها • كان يمارس « التأمل المتسامى » وهو مذهب هندى تحدث فيه أشياء غريبة جدا •

سألت :

ـ ماذا أقول له فى التليفون ؟

ـ انى أخشى أن يحس بأننى أتطفل عليـــه • هـل يكره الأكل الغربى ؟

ـ كلا ، هو يحب ان يتكلم معه الناس فى التليفون •

لم أكن متأكدا من ذلك وكنت أيضا أعرف ان السبب أن جريجورى لم ينصح ولده لانه لم يعرف بماذا ينصحه •

شكرت جريجورى وسيمون على القهـــوة الطيبة وعلى عيدان الكبريت • وفى اليوم التالى اشتريت ولاعة غازية معتدلة الثمن بدلا من العيدان التى كنت أحرقها باسراف •

قلت لجريجورى عندما قابلنى مؤخرا اننى تعلمت منه درسا فى الاقتصاد • استمع هو أيضا الى عن رأيى فى ممارســة اليوجا الهنـدية فى رحلة البحث عن سلام داخلى وانصت الى بمعلوماتى عن رجال الهند المقدسين الذين يحاولون غزو عقول وجيوب أهل أوربا وأمريكا ، ويدعون الكمال الالهى وهم بشر من « طين وعجين » كما نقـــول فى مصر • جريجورى عنده سوء هضم مستمر وتوتر ، وأخبرته كيف ان أحـــد

هؤلاء المعلمين « الكاملين » عنده قرح فى المعــــدة وتوتر . وأرانى جريجورى صورة لنفسه وهو ممسك بدفتر شيكاته ويرتدى قبعة البحار التى يرتديها فى قيــــادته ونزهته فى مركبه الشراعى ، كان يراقب قطرات المطر تتساقط من حافة بسقف بيته . قلت له مماكسا :

ـ هذه قصة حياتك ، تقود سفينة حياتك محاولا ان تشترى كل شىء بالمال . قلت : « انني أشتري المطر » .

قال :

ـ ربما .

كان قد قال فعلا لى « انني أشترى المطر » فقلت له .

ـ أعز الاشياء وأثمنها في الحياة هي أشــــياء لا يمكن شراؤها بالنقود .

وفى اليوم التالى قابل زوجتى معى فى حفل موسيقى وسخر لها من قولى فى تخابث ومداعبة . لكننا لا زلنا صديقين حميمين نتقابل حينما تسمح مشاغل الحياة فى مونبلييه لنا باللقاء . فقط هناك شىء من عدم الثقة بالناس الحه خلف تودده مع كل الناس . بل انه سألنى مرة حين قالت ابنته انها ذاهبة الى حفلة تنكرية وعرضت أنا الذهاب فى زى مصرى بلدى .

ـ هل أنت مزيف ؟ هل تتنكر كغيرك ؟

واحتجت زوجته على ذلك . لم أغضب لانني أعرف تشككه فى صدق كثير من الناس . هو نفسه يحس أحيانا بأنه مزيف . ويحس بالفصام ، وبالغربة وسط الناس أيضا .

كشف ذلك فى خطاب غريب ، خطاب اعتراف نادر وجهه لنفسه وتركه على المائدة لتقرأه « سيمون » .

الوطن والغربة

لابد انى فتى شرير ولا اعرف الولاء لانسان او عمل . هكذا كنت اقولها على الرغم من أن كل اصدقائى يتهموني بالسذاجة والصراحة أكثر من اللازم ، وينصحونني باللجوء الى شيء من الخداع والحيلة وقسوة القلب لأشق طريقى فى هذه الحياة بعد اعوام من انتهاء الدراسة .

لقد شاهدت منذ شهر زميلة الجامعة «احسان» وهي تسير فى الجيزة متأبطة ذراع زوجها وجسمها يتأرجح يمينا ويسارا من جراء الحمل الذى تنوء بحمله والذى ظهرت اعراضه على الفستان المنتفخ يرتفع ذيله من الامام ارتفاعا واضحا عنه فى الخلف فتذكرت لو كان قلبى قد لان يومها لما حدث ذلك ، فكيف يقول اصدقائى انى ساذج وصريح اكثر من اللازم . يومها لم أقل لها كلمة واحدة او عزاء لخاطرها ، ولا قلت لها أيضا اننى لا أحبها .

كان موقفا سخيفا ذلك الذى اوقعنى فيه رشدى .. كنا وقتها نستعد للامتحان النهائى فى الكلية ، حين جاءتنى «احسان» دامعة العينين . وكان كل واحد مشغول بنفسه فى تلك الايام فلم يلحظ أحد من الزملاء ما تشعر به احسان من الم نفسى .

واسرعت أسألها عن سبب الدموع التى تتساقط بين الحين والحين ، وكانت تمسكه بأصابع طليت أظافرها على عجل . قالت :

ـ بالأمس جاءتنى « آمال » وقالت لى أنها فى طريقها الى منزلى قابلت «رشدى» واخبرته عن وجهتها وداعبته وسألته ان كان يرغب فى المجيء معها فقال لها ...

ولم تكن جملتها ، فقد غلبت العواطف والشجون احسان واخذت

تشهق شهقات صغيرة رقيقة وأخذ هذا شيئا من الوقت ، وقفت فيه في صبر وهدوء حتى تهدأ .

وفعلا هدات أخيرا وكفت عن البكاء .. انتظرت قليلا حتى استراحت ثم سالتها فى لطف .

ــ ماذا قال «رشدى» ؟

فردت بصوتها الرقيق . وسط نهنهة خافتة مستمرة :

قال :

ــ « لا » اننى لا استطيع أن . . . اذهب ... الى بيت احسان . . واخاف أن .. يغضب مؤنس .

مؤنس هو انا . وقد عادت احسان الى شهيقها الخافت وبكائها بعد هذه الجملة ولم تجف دموعها .. ولم أدر أن الامر حساس الى تلك الدرجة بالنسبة لها . ولم أعرف لماذا تثير اضطرابها جملة عابرة كهذه .

لكن رشدى مر بنا فى تلك اللحظة ولاحظ عينى « احسان » المحمرتين وانفها . وفى صراحة وبراءة وشىء من الغباء وشذوذ الطبع سألها عما بها . اثبت لى ذلك أنه لايفهم احسان بالمرة ، وانه برىء لكنه يجهل تماما طبيعة وحساسية العلاقات مع الفتيات ، وزاد ذلك الطينة بلة . لكى حاولت صرفه بان قلت له انها تعانى صعوبة فى الاستعداد فى بعض مواد الامتحان .. لم ينصرف بل أخذ يهون عليها الأمر ويطمئنها على نفسها ، بل صرح لها بانه متأكد انها ستتفوق عليه هو شخصيا ، ثم انصرف حين لم تجب بكلمة واحدة . لم تبد احسان اى ضيق نحوه ، لم تصرخ فى وجهه أو تتعارك معه كما خيل لى انها ستفعل ، وأرجعت هذا لطبيعتها اللطيفة وتركيبها الشخصى والجسمانى الرقيق .

ظلت احسان واقفة لاتقول شيئا . كنا أصدقاء طوال العام ، ورويدا رويدا بدأت أدرك شيئا مما تريد احسان أن تقوله لى بلغة النساء تلك اللغة التى لا تتكلم بصراحة ولكن ليس عن خبث . انها تريد أن تقول لى «ان الناس يتكلمون عن صداقتنا ، لقد حان الوقت لان تفكر فى خطبتى ، وأن نتقدم لأهل لخطبتى ، العام سينتهى أو قد انتهى فعلا ، ومع هذا فأنت لم تقدم على شىء .. أو شىء من هذا

القبيل . كانت هـذه أول مرة أفهم تلك اللغـة . لم أكن قد تعديت حدود الزمالة البريئة ووجدت شيئا من الشجاعة اصمد بها أمام هذه الحملة التى اتقن اختيار وقتها . وقت ضـغط الامتحانات . وهـكذا استطعت أن أقسى قلبى وان أخفى صراحتى ولم انطق أمامها بكلمة واحدة . وقررت أنها ازمه عابرة وستمر بمرور موسم الامتحانات ، وهكذا لم أقل لها «انا لا أحبك ، ونحن مجرد زميلان لا أكثر » .

لكن قلبى الآن قد ذاب وانا أراها تنوء تحت ذلك الحمل الثقيل، وتسير معتمدة قليلا على ذراع زوجها ، هذا بينما اسير انا خفيفا أكاد أجرى أو أطير ولاشىء يقيـدنى . كـذلك لاحظت أن لون وجهها كان متغيرا ويميل الى لون الرماد . كان مكان اللقاء شوارع الجيزة .

كنت سمعت أنها قد تعطلت عن عملها بعد الزواج وأنها لم تقابل أحدا من الخريجين من مدة .

ومع أنى لم أكن قد استقررت تماما فى عملى وكنت أعانى من المدرسة الخاصة التى اقوم فيها بالتـدريس مؤقتا ، الا انى حسبت نفسى أفضـل منها حالا وأعد لى مزيد من الفرص . فانا الآن أحاول الزواج من فتاة أعرفها دون جدوى ، حتى الآن ، لـكنى لا أيأس ، أما احسان فقد تزوجت ومع هذا فلا أرى على وجهها علامات السـعادة وهى تسير مع زوجها .

أنا أعمل فى غير مجال تخصصى ، فأنا خريج قسم اجتماع ، لكنى لا أريد أن أترك القاهرة . لكنها هى لاتعمل بالمرة انا نحيف جدا لكنى أتمتع بصحة جيدة أو هكذا أقول لنفسى لاننى نشيط جدا ولا أظن أن نشاطى هو قلق شديد مبهم . أما هى فسمينة ورجلاها متورمتان وبها سكون أكثر من اللازم .. سكون وشبه كآبة ، هكذا لاح لى الامر . وهكذا كان ملخص الأمـر ، فى كلمتين ، اننى سعيد جدا بينما هى بائسة سيئة الحال . انا أعيش حياة متنوعة اتنقل بين الوظائف وهى تعيش حياة آسنة . لو كان عنـدى ما أقدمه تعويضا عما فعلت من قبـل لأقدمت عليه ولكن الوقت قد مضى وفات . لقد تزوجت . لو كنت تزوجتها أنا لأجلنا الانجاب مثلا وتمتعنا بالحياة مدة طولا وعرضا قبل الانجاب .

ومررت بجوارها هى وزوجها ونظرى متجه نحوها ونظرت الى ، ولكنها أدارت رأسها واخذت تتحدث الى زوجها فى شـبه همس . وأحسست بكل ماذاب فى قلبى يتحجر ويتجمد ، وعنفت نفسى على سذاجتى وبلهى .

. فهاهي احسان تجد من تتحدث اليه ربما يكون لون وجهها الرمادي مبعثه الحمل والتغيرات الهرمونية التي تحدث في الجسم . هي لاتحتاج الي بينما انا احتاج لمن أدردش معها وكثيرا ما لا أجدها . هي لاتشقي في العمل في مدرسة خاصة مدرسا ومشرفا اجتماعية في آن واحد بمرتب ضئيل . هي تعيش سعيدة هنيئة راضية البال في شقتها تعمل على مهل في انتظار زوجها وتعيش في عالمها الصغير السعيد .

لابد ان اغير وظيفتي . لابد ان افوز بذلك العمل الذي سيضع قدمي على الطريق ، الطريق لتحقيق أحلامي في بحث اجتماعي عبقري عن احد جوانب فترة المراهقة وهل يساعد توفر الامكانيات المراهق على النمو بسرعة ، أو ان التغلب على العقبات والصعاب هو الذي يولد النضج والعمق . مقارنة بين الحياة السهلة والحياة القاسية الصعبة. هناك وظيفة مدرس ومشرف اجتماعي في مدرسة العياط للبنات . هذه هي الوظيفة الوحيدة التي اجدها امامي وهم يريدون مشرفة لكنهم لايجدون واحدة وسأنتهز انا الفرصة لاضع قدمي على الطريق وادرس دراسات عليا في المساء في القاهرة واكمل بحثي .

. وعرجت على شارع عباس لكي انحرف اليه وفوجئت امامي مرة أخرى باحسان وجها لوجه تبتسم لى هذه المرة ، كدنا نصطدم ، ويبدو أن هذا هو مالم يترك لها مجال سوى للابتسام . حسبتها تبتسم لزوجها وخطر لي انه لابد قد قال لها شيئا شيقا وطريفا . ولكن زوجها كان بجوارها صامتا ينظر الى مكان بعيد . ولكزته بعد أن وقفا ممسكة اياه من ذراعه ومدت يدها الى مسلمة ثم قدمت زوجها لى :

- الاستاذ «مؤنس» زميلي .. «ماجد» زوجي .

. وشددت يدي النحيفتين على يده مرحبا ، فآلمتنى هزة يده لى كتفي . وشددت يدي على يدها الممتدة بارتخاء وصافحتها في حذر . وبعد ان سألتني عن الاصدقاء والمعارف قالت لى :

- انت شيخ جارة يعرف الكثير . الا يوجد يااستاذ مؤنس مكان خال لمشرفة بجوار الجيزة هنا . زوجي يرى الا أعمل في أى مكان بعد الوضع الا اذا كان قريبا،لهذا لم اعمل حتى الآن . لكنى اتوق للعمل ونحن نحتاج لتحسين مركزنا المالى . اقساط السجاجيد والثلاجة والطقم الذهبي عالية جدا .

أكبرت فيها هذه الروح الوثابة وحبها للعمل لكنى لم أقل شيئا • أعادت على السؤال :

ــ هاه ، ألا تعرف لى مكانا للعمل ؟ انك نحيف كالاصبع ووجهك باهت من كثرة التجوال والنشاط . يجب أن تستريح قليلا .

اجفلت لهذا الاهتمام بى ، ولم أملك سوى أن اخبرها عن مدرسه العيـــاط وشكرتنى • تذكرت مثل أبي المفضل « قليل الصـــيد كثير النط» لكن احسان قالت :

ــ كلا ، كلا . هذا مكان غير مناسب لك يجب أن تبحث لك عن عمل في القاهرة لانك مشغول وليس عندك وقت للسفر •

وغابا معا فى الزحام ، وأنا العن نفسى الشريرة التى تفكر السوء فى فتاة مضحية دؤوبة مثل احسان . مررت بين عربات الباعة وكان الوقت مساء • و « الكلوبات » مضيئة • عدت رغم عني للتفكير في مثـل أبى المفضل . ربما أنا لست صيادا . ربما أنا «مستكشف جوال» . ولكن لعل من الضرورى للمستكشف أن يصطاد شيئا بين الحين والحين، حتى يستطيع البقاء والمحافظة على النفس في رحلاته الاستكشافية • اذ اعترفت لنفسى انى اجد صعوبة بالغة فى تلك المرحلة من حياتى فى الجمع بين الاستكشاف والصيد والمحافظة على النفس . سالت الله ان يهدينى الى بنت الحلال حتى استقر فى عمل مناسب وأستطيع دفع مصاريف الدراسة العليا فى المساء ، هكذا كانت نصيحة رجل عجوز هولندى حكيم قابلته صدفة فى القاهرة فى احد الفنادق السياحية . قال لى انه فى طريقه الى افريقيا لالقاء محاضرات وأحاديث ثم الى جنوب آسـيا وغربهـا .

بعد أسبوعين قابلت فتاة نصف مصرية عاشت مع والديها متنقلة بين القارات بحكم عمله فى الطيران حتى انفصلا . وبدأنا نخـرج معـا وارتبطنا أحدنا بالآخر ارتباطا شديدا • هى تعرفنى على العالم الخارجى باتساعه وتنوعه الشديد ، وانا اعرفها بمصر التى افتقدتها منذ طفولتها، وانغمسنا كلانا فى امتصاص عوالم الآخـر ، بل والتخلص من الافكار الجامدة .. كأننا نكمل احدنا الآخر ، هى توسع لى نظرتى بخبراتهـا البانورامية البسطة وانا اعبر واعمق لها نظرتها فى الحياة بتركزى فى حياتى وتفكيرى فى مكان واحد .

لعلنى قد وجدت أخيرا ضالتى المنشودة ؟ حدثتنى فى تردد أحيانا عن سكان استراليا الأصليين وما حدث لهم على يد المستوطنين البيض

وكان بعضهم مجرمين منفيين ، وحدثتني عن كيف يدوم شروق الشمس لستة أشهر في اسكاندافيا ، وصححنا كثيرا من أفكارنا الخاطئة عن الحياة في الغرب التي كونها لنا أفلام هوليوود ـ السيء منها • وهي بجهلها بالأفكار والأعمال الفنية الحديثة حدثتني عن الاحتفالات الدينية في دول آسيا البوذية ومهرجاناتهم وعاداتهم الغريبة مثل حمل أحمال غريبة الشكل على خطاطيف مغروسة في جلود ظهورهم وسألتها عن فيلم «عصفور الجنة» الجميل وظاهرة السير على النار ، فكشفت لي عن جانب خفي هو طقوس السحر والأرواح الشريرة التي تسبق هذه الطقوس الدينية .

ربما هذا هو عالمي الذي أريد أن أعيش فيه ، عالم المعرفة ، عالم الخبرة الانسانية الواسعة مع عائلة الانسان اينما كانت في أرجاء هذا الكوكب من أقصاه لأقصاه .

اما عالم الوظيفة الثابتة وعالم الشقق المفروشة بالسجاد العجمي والمحلاة بالنجف الكريستال وانجاب الطفل بعد الطفل فهو شيء أجد شخصيا صعوبة شديدة في التأقلم عليه .

هناك بشائر طيبة . تلك الفتاة التي قابلتها اخيرا تشاركني نفس الشعور وتتحدث عن كيف انهار عالمها الحافل بأنواع الترف المادي حينما حصلت القطيعة بين والديها وانهارت أركان شعورها بالأمان فلم تعد تؤمن بالماديات أو على الاقل ادركت ان الماديات ليست ـ كل شيء وبدأت تحاول التفكير لنفسها بدلا من ان تترك التفكير وتخطيط مسار الحياة للآخرين . حكت لي عن آلامها النفسية الدفينة واحلامها أولا في عبارات مقتضبة ولكن كافية ، وحكيت لها عن أصدقائي الاغنياء والمتوسطي الحال وكيف أن كل انسان يقابل صعابا ومتاعب وانه يجب الخيار بين الهروب المستمر طوال العمر من المتاعب ، أو مواجهتها بقدر المستطاع وسؤال الحكمة من الله في الداب على طلب المعرفة ، والسماح للنفس بالتأمل المستقل في لحظات الهدوء في أحلام البشرية بحياة أفضل وعالم أحسن .

شيء مثير بدأت ألاحظه بعد مزيد من اللقاءات • لاحظت ولاحظت ياسمين ـ وهذا اسمها ـ أيضا أن الدور أحيانا ينعكس وانها أحيانا هي التي تعمق نظرتي في الحياة وفي معرفتي بنفسي وتنصحني بعدم الهروب من الواقع بينما كنت انا أحكي لها عن اشياء تحدث في العالم الذي كانت تظن انها تعرفه اكثر مني ، لكن فات ملاحظتها مثل ظنها

ان التوسع والاستعمار الغربي قد افاد شعوب افريقيا وآسيا فى كل ناحية من نواحى الحياة ، بأن علمهم العمل والدأب والنشاط ولو قسرا وحررهم من الخرافات ، وقفز بهم مئات السنين نحو التحضر والعلم والتكنولوجيا . ناقشتها فى مفهوم التقدم ، وعلمتها التشكك فى قيم حضارة تعتمد على العنف فى فتح أسواق اقتصادية لمنتجاتها الصناعية وتلجأ حكومتها الى تحطيم وتغيير تقاليد الشعوب قسرا تماما مثلما فعل الروس فى أوربا ، والفرنسيون فى الجزائر والانجليز فى الهند وأفريقيا .

لم نتشاجر بل اشارت الى فى لطف ولين كيف ان الواقع هو غير ما تراه هى أو أراه أنا بل انه أقرب الى مزيج من الاثنين . وحكت لى أن الغربيين ايضا قد تأثروا اثناء ذلك اللقاء بين الحضارات الى حد ما بالشعوب التى غزوها وان أفكار هذه الشعوب وعاداتها وتقاليدها قد بدأت فى الانتشار بين شعوب أوربا بما فيها من خير وشر .

كان ذلك منها نوع من الاعتراف أجبرت نفسها على التصريح به . وقررنا انه من الخير أن نترك العالم وشأنه أحيانا ، لكنى عدت من باب امتحان فكرها وأخبرتها عن صديقى الذى اشتغل فى شمال افريقيا واتخذ من خادمته الضخمة الأم ذات الطفلين عشيقة وعاش على شاطىء المحيط وسمع هدير الامواج وصفير الرياح العاتى حيث يعيش وحده وقال لى أن الفرنسيين ذهبوا الى شمال افريقيا واستعمروه . وكل ما فعلوا — هذا قوله — هو انهم علموا الناس البسطاء استعمال الشوكة والسكين وممارسة الدعارة . فذكرتنى فى هدوء « بألف ليلة وليلة » وقالت لى بواقعية محتجة ان مهنة الدعارة هى اقدم مهنة فى العالم بين كل الشعوب ضحكت أنا ، وسحرت منى بشدة . ثقافتها كانت غريبة وكانت لا تتقن من العربية سوى كلمات قليلة . لكنها كانت تتمتع بالمقدرة على الانصات والاستوعاب . جرحنى صديق حين وصفها بأنها « بوزميط » .

الغريب هو أن كلانا لم يقنع بأفكار الآخر على التو . ولكننا كنا على استعداد للمحاورة وتبادل الآراء دون غضب رغم اختلافنا على كثير من الامور . وبدأنا نكتشف اننا نحب احدنا الآخر . وعند هذا صارحتها المصارحة العظمى ، اننى طوال حياتى أخاف لأن الناس يتهموننى بعدم الولاية — أصدقائى أو بعضهم — يقولون لى اننى لا استمر فى مكان ووسط مجموعة واحدة . صديق لى فى الكلية عنفنى لأنى دخلت فى صداقة عميقة مع طالب فى السنة الأولى بينما كنا فى السنة

الثالثة . البوليس راقبني لأن هناك صداقات ومعرفة تربطني ببعض الغربيين العاملين في بلادنا ، في وقت العداء الشديد للغربية وأمريكا .
حتى منــذ الصـغر أمي عنفتني واتهمتني بخفة العقـل لأنني لعبت واستمتعت جدا باللعب مع فتاة شقراء تصغرني بأعوام مما يتنافى مع التقاليد والاصول . احسست بأني غريب في وطني الذي كدت اموت مرة في خدمته حين ظللته اعمل وانا مريض .. صديق او زميل آخر هاجمني واحتقرني لأني فكرت اثناء الدراسة في ترك الاسرة وبيت العائلة رغم ان دافعي كان هو تخفيف اعباؤهم الباهظة وحل مشكلة عـدم تفاهمي معهم .

ولكنها عادت واعترفت لي بدورها انها تخاف الرجال خوفا عميقا لسبب لا تدريه وربما لتداعي العلاقات بين أبيها وامها الاسبانية وقالت انها تفضل لو أنهما تطلقا وانصرف كل منهم الى حالة . سالتها عما كان يحدث لها فلم نعرف بما تجيبه . كان هذا سرها الدفين . ادركنا ان امامنا حياة غير سهلة لو تزوجنا ، حياة حافلة بالعقبات ، لكنا ايضا لسبب لا ندريه قررنا الا يفارق أحدنا الآخر ونستمر في علاقتنا الحلوة الجميلة على ان احاول الاستقرار في العمل وعلى أن نتزوج بعد نصف عام .

لعلني لست شريرا كما كان كثير من أصدقائي يقولون لي .. لعلني ادين فعلا بالولاء لشيء . ما هو ؟ حينما كنا في الكشافة كنا نهتف بالولاء لله وللملك والوطن . وأحيانا أخرى كان بعض القادة يرفضون هـذا ويهتفون «الله . الوطن . الملك» . واضعين الوطن قبل الملك في تحدي رزين . ترى لمن أدين أنا اذا بالولاء ؟ أعتقـد انني أدين بالولاء لوطني بلاشك . ولكني أعتقد أن ولائي يتسع اكثر حتى يمكن تلخيصه ، بأنه ولاء وحب لله والبشرية جميعها أينما وجـدت وأينما عاشت . لعـل هذا سر سوء فهم ـ بعض ـ أصـدقائي لي . الغريب انه رغم اتهامات أصدقائي لي كانوا يحبونني وكنت أحبهم جدا . ودائما أو احيانا كان هذا الاتهام يتخذ شبه مداعبة . ولكنه كان يقلقني حينما أفكر فيه بيني وبين نفسي ...

انني لست أشد الناس اتزانا وحكمة ، وفتاتي ياسمين ليست اجمل نساء العالم وليست ملاكا ، ومع هذا فكلانا يحس بأنه لايستطيع أن يعيش بدون الآخر ...

الفيروس المظلوم

كنت أعيش فى فترة من فترات غربتى فى لندن وذات يوم ذهبت لزيارة صديق فى احدى المقاطعات ، نحن نسمى المقاطعات هنا بالارياف ونصف أصدقاءنا المصريين وغير المصريين بأنهم لايعرفون معنى الحضاره كما هو فى لندن . هذه طبعا نكتة وليس هناك فارق بين المدن الكبرى فى الغرب وحتى الريف «متقـدم» جدا تكنولوجيا ويستعمل أحـدث الآلات وتنتشر فيه مصانع . عيبها انها تشوه جمـال الريف وتحـول بعضه الى القبح الشديد .

صاح فى صديقى بعد المجـاملات المصرية اللائقة وبعـد تقـديم الشـاى :

ـ عندى كلام كثير أقوله لك . ثم اضاف :

ـ لايجب أن أصيح هكذا ..

وتحول الى الكلام الهادىء والمزاج المعتدل واستطلاع الاخبار . أدركت انه غاضب من شىء وانتظرت .

تحدثنا عن عمله فى معمل التحاليل بأحـد المستشفيات ، هو دكتور تحاليل صغير . وتحدثت اليه عن عملى كمترجم لغـة عربية فى اماكن متفرقة فى لندن ، منها هيئة الاذاعة البريطانية . هناك مكسب كثير فى هذه الوظيفة بسبب بترول العرب ...

سالنى :

ـ انت لا تتوقف عن الترجمة . ألا تترجم الأدب أحيانا ؟

قلت :

ـ احيانا نادرة .

قــال :

ـ نادرة ؟

قلت :

ـ ليس بالقدر الذى أود أن أفعله .

سألنى :

ـ أليس عندك أفكار خاصة تريد أن تكتبها أنت . بدل نقل أفكار الناس ..

قلت :

ـ كلا .

وكنت اتمنى ما اقول ..

نظر الى في دهشة ولم يقل شيئا .

اضفت :

ـ الكتابة مسئولية ووجع دماغ ، أفضل البقاء بعيدا عنها .

قــال :

ـ أنت تهرب اذا ..

قلت :

ـ كلا ، فقط عنــدى أشــياء أخرى افعلها فى الحياة غير نشر الافكار ..

قــال :

ـ انت تنشر الافكار بترجمتك .

قلت :

ـ كلا ، فقط انقلها من مكان لآخر . مثل الشيال فى مصر أو سائق عربات الحمولة هنا . أفضل الاحتفاظ بأفكارى لنفسى .

صاح فى :

ـ اما انا فلا أستطيع الصبر . قال : متأسف لايجب أن أصبح هكذا . انت متعب من قيادة سيارتك ، كم جالونا اخذت الرحلة ؟

قلت وكنت فعلا متعبا .

قـال :

ـ هـذه مسافة . شـكرا على المجيء . الأولاد سـيفرحون بك ، لا أحب لهم أن يعيشوا فى عـزلة عن المصريين لكن ظروفنـا تحتم علينا الحياة بعيدا عن المصريين .

قلت :

ـ أحسن .

قال :

ـ لـماذا ؟

قلت :

ـ المصريون لايتوقفون عن التحدث عن مشـاكل مصر ومشاكل العالم .

سـألنى ...

ـ هم هذا يؤلمك ؟

قلت :

ـ نعـم .

قـال :

ـ انت حساس تماما كما كنت طوال معرفتنا القصـيرة هنا . هكذا شككت . لاجدوى من الانزواء فى ركن .

قلت :

ـ ستة جالونات .

ـ أليس هذا أحسن من الانفجار غيظا .

ثم سألته حين لاحظت انه يظن اننى لا أرحب بالحديث .

ـ احكى لى .. ما الخبر ؟ لماذا انت «مش على بعضك» لماذا انت غاضب ؟

سكت ثم قال :

ـ عمي مات من شهرين وحار الأطباء في التشخيص وعملوا له كل التحاليل اللازمة واختلفوا على التشخيص ودام فى غيبوبة شـهر أو

شهرين ، نسيت . التشخيص سهل ، بعضهم قال فيروس وبعضهم قال جلطه ، بعضهم قال ضيق شريان .

قلت :

ـ كيف عرفت ، هل أرسلوا لك التحاليل والاشعة ؟

قال :

ـ كلا .

قلت له ساخرا قليلا .

ـ هل أنت دكتور أم ساحر ؟

نظر الى فى عتاب وقال بالعامية بعد أن كان كلامنا مزيج من الانجليزية والعربية .

ـ حضرتك بتتبكت على ؟

ـ متأسف . لكن يجب أن نكون واقعيين . أنت دكتور تحاليل .

قال وهو الانسان المهذب دائما ، مؤدب ولكن ليس ضعيفا .

ـ يلعن التحاليل واللى اخترع التحاليل . الطب الآن يقول اننا مجرد أنابيب حافلة بالكيماويات .. آلات .. وليس حتى حيوانات .

قلت فى هدوء ، وأنا أحس انه فى أزمة شديدة .

ـ تعلمنا الهدوء من الانجليز ، هل هذا يعنى أننى سأراك ان شاء الله فى الأسبوع القادم تكنس الشوارع أو تعمل فى الميناء ؟ هناك الماهية عالية جدا واتحاد العمال قوى جدا ؟ هم يحصلون على كل ما يريدون بقوة الذراع .

قال ساهما :

ـ لا أعرف . يا ليتنى أعرف ماذا أفعل . زميل من الطب ذهب الى بؤرة دعارة لاول مرة ثم سقط بالشلل . وشخصوها انها «فيروس نادر» واحد فى المليون ، حكى لى قصة بؤرة الدعارة بعد سنة زميل . والحكاية كانت شعور بالجرم وعقاب للنفس . عائلته كان عندها شىء من القيم الانسانية .

جلست على مقعد «جمل» احضره من مصر من خان الخليلى .

قلت هذا المقعد مقعد الجمل ويسمى فى الصعيد « شباغر » اسم غريب ... على العمــوم احكى .. احكى .. انت لا تتوقف عن الكلام عندك كلام كثير .

صمت ، فقلت مصر :

ــ احكى ، طلع اللى فى قلبك . بلاش تاكل فى روحك ياأخى .

قال لى وهو ينظر الى طويلا :

ــ أتعرف معنى هــذه الجملة التى قلتهــا الآن «بلاش تاكل فى روحك» هذه جملة من الطب القديم والطب الحديث قبل أيام التحاليل. الفكرة ان الانسـان الذى يغضب أو يحقد أو يقهر يفرز افرازات ســامة تاكل انسجة جسمه . أخيرا العلم الحديث اكتشف أن الجسم يأكل نفسه ، ولكنهم يرفضون أو نسوا من مدة سبب هذا ، نسوا أو تناسوا ان قهر النفس هو السبب .

قلت له :

ــ ماذا عن عمك ؟

قال :

ــ قبل ان اتكلم عن عمى أود ان احدثك عن حالة قرأتها فى مجلة « المرأة » عن طفلة ذهبت فى غيبوبة ، طفلة انجليزية .

قلت فى شىء من الضيق :

ــ أنا لا أفهم فى الطب ، لماذا تقرأ مجلة المرأة .. «وومان» هذه ؟

قال :

ــ هذا ليس طبا . ولكنه شىء يتعلق بالطب . طفلة راحت فى غيبوبة بعد حادثة ، وقال الاطباء لأهلها انها ستعيش هكذا بقية حياتها بعد ان جربوا كل شىء .. رفضت الأم قبول هذا ، ظلت تتكلم شهورا معها ، شهرا بعد شهر ، يوما بعد يوم لابنتها وهى نائمة . بعد شهور استيقظت البنت . القصة الحقيقية مكتوبة فى ثلاث صفحات طوال عراض ، أكبر مرض فى الغرب الآن هو الانقباض . النفس مريضة . هذه احصائيات لا يتحدث عنها كثير من الاطباء ، هم فى حيرة .

ــ وماذا عن عمك ؟

قــال :

ـ قبل ان اتحدث عن عمى حتى لاتسيء فهمى ، المشكلة ليست مشكلة الاطباء فى مصر بل فى الغــرب كله . مشكلة الطب الحــديث . ومشكلة الطب الزائف فى البلاد المتأخرة ، ايضا .

قلت مستسلما وصابرا .

ـ احكى .

قــال :

ـ هذه التحاليل بركه ولعنه فى وقت واحد .

ـ كيف ؟

ـ قابلت صديقا لى معرفة ، هو رجل اعمال صغير اسمه مستر « هارى » قابلته فى الشارع بجــوار السينما . هــل تعرف سلسلة السينمات « أ . ب . سى ؟ » ؟ طبعا . بينما نتحدث لاحظت عنده سنة سوداء ، قلت له ان صديق طبيب أســنان اقترح عليك الذهاب اليه . كنت أعابثه ، فاذا به يقول :

ـ شيء غريب أن تقول هذا ، انت طبيب . منــذ شــهور بدأت تصيبنى آلام فى نصف فكى ، ذهبت الى أستاذ فى الجامعــة فى أحــد الفروع . وأذ الالم يشتد حتى اقنعته ضد ارادته بخلع أحد ضروسى ، وزال الألم لمدى شهر ثم عاد كما كان . الآن أحس بألم فى هذا المكان . هل يمكن عمل تحاليل لى ؟

قلت :

ـ كلا ، انا لست طبيب أسنان .. التحاليل لابد أن يوصى بهــا الطبيب .

قال باصرار :

ـ هنا ، الألم هنا .

قلت فى دهشة :

ـ ليس هناك سنة مكان الألم .

قــال :

ـ نعم ، جعلت الأستاذ يخلعها لى . ولكن كلما خلعت ضرسا ، أو

سنة تحسنت حالي ثم أعود كما كنت في شبه حلم أو دوخة ، انني لست على مايرام طوال الوقت .

قالها همسا فهو رجل أعمال ولايحب أن يعرف أحد ذلك ، وسألته .

ـ ماذا قال الاستاذ لك ؟ أود أن أعرف .

قال :

ـ هذه حالة «آلام مجهولة» والاصطلاح اللاتيني من أول مرة هو كذا كذا .... ونحن لانعرف شيئا عن هذا المرض ، اسمه «تيك دولوريه» .

سألت صديقي الطبيب :

ـ ماهو الاصطلاح اللاتيني مرة أخرى ؟

صاح في غضب :

ـ ماجدوى الاصطلاح اللاتيني ؟ ماذا سيفعل ؟ الرجل ؟ انظر الى نهايته التعسة .

انتظرت .

لكنه استمر يصيح .

ـ ماذا سيفعل الرجل بالاصطلاح اللاتيني « يكتبه على ورقه ويشرب ميتها » أم كما نقول بالبلدي « يمسح بها ..... !!! »

بدأ القلق يتسرب الى نفسي ، تمالكت نفسي .

قال :

ـ سأكمل لك الحكاية . سألته عن صحته عموما ، حالته الصحية العامة . كل الاطباء والاساتذة يجب أن يفعلوا هذا .. فبماذا أجابني .. أجابني .

ـ شيء غريب أن تسألني هذا . كلما ضايقتني العاملات على الآلة الكاتبة والبنات في عملي أحسست بشبه ألم في صدري . ألم أفقي ، ليس ألما لكن وجع .

قلت له ؟

ـ انت رجل أعمال وتدير عملك الخاص ولا تعرف أو تجد من الصعب تحديد قدر المجهود الذى تقوم به ، الاطباء وحدهم لايجب أن يشخصوا حالتك . انا بهذا اقطع رزقى ورزق الاطبــاء ، لكنى أريد مصلحتك . علاجك فى فهمك الصحيح للحياة الزوجية والحصول على السلام . تحتاج لفلسفة للتخلص من الضغط الشديد ، يجب أن تتعلم اين تتوقف عن العمل وأن تتعلم ماذا يجب أن تتحمل من مسئولية وماذا يجب أن تتركه لله . مؤقتا خذ مهدىء . ذلك الأستاذ ولا مؤاخذة غبى . ماذا فعل لك الإسم اللاتينى ؟ إنا لم أحصل على شهادة واحدة اعلى من البكالوريوس ، لكنى ذهبت الى معاهد كبرى لمجرد تجديد معلوماتى . لم يكن لدى شىء افعله فذهبت لأجــدد معلوماتى وليس للاستزادة ، اننى أعرف كيف يفكرون ، اكتشفت ما لا يعلمونه : هــذا شىء هام ...

سالت صديقنا صابرا :

ـ وماذا عن عمك ؟

ـ عملوا له أشعة على المخ ملونة وغير ملونة . خضراء وصفراء وحمراء . شخصوا غيبوبته اولا انها ضيق فى الشرايين فى المخ . ثـم شخصها آخرون على انها جلطه . كان قد بدأ بضعف فى بصره .

سالته :

ـ انا لا إفهم فى الطب . ولكن ماهو الخطأ فى هذا ، هذا الاختلاف فى التشخيص ؟

قــال :

ـ هل الاختلاف فى التشخيص شىء يمكن التعامى عنه . دعنــا من التشخيصات .

ـ كنت فى زيارة عمى من عــدة شــهور وتراسلت معه وأعجبته رسائلى لانى تحدثت فى الدنيا وعلم النفس وفى الاجتماع والمجتمع . وعن الناس وعن الدين ... والمتدينين والكافرين واحوال الدنيا فى الغربه .

اضــاف :

ـ لكن يبدو أن الد سائل لم تغير من طبيعته

ــ ماذا تقصد ، هل تقصد الاصطلاح الانجليزى « لقد تم صب القالب » ؟

ــ لقد ولد عمى فى قرية فقيرة جدا فى الزقازيق وتعلم فى القاهرة ونبغ فى علمه • لكنه ركز على العمل الدائب فقط وضمان المستقبل المادى لأولاده •• أحس بنقائص الحياة فعمل بدأب ولكنه صار قاسيا على الناس لا يحب العبث • سمعت « طراطيش » كلام عنه فى عمله • كان أستاذ جامعة يدرس الكيميا •

ــ ثم ماذا حدث ، أقصد أكمل كلامك •

ــ ثم حدث له شىء سىء جدا • طرد من عمله الهام لسبب تافه واضطر للافتراق عن أولاده والعمل فى الخارج ؛ هذا ربما جعله يخشى الناس ويكرههم • أصبح فى هدوء فى عداوة مع الناس ، ولم يخرج عن محيط عائلته • كل هذا فى صمت •

ــ لا حول ولا قوة الا بالله •

بدأ الغم يعترينى •

ــ ثم أحيل الى المعاش ، أولاده كبروا وصار لهم أولاد • ولم يعودوا يحتاجونه أو يبدو انه هكذا فكر • هم كانوا يحبونه بشره • ولكنه أحس بنفسه كانسان بلا فائدة • كان لا يخرج من البيت • ظل ذكاؤه متوقدا ، صار يرعى أحفاده •

ــ كويس •

ــ لأ • مش كويس • حدثت له الغيبوبة بعد ضعف بصره ••

سألته :

ــ ما هو تشخيصك ؟

ــ قرأت كتبا خارجية غير مقررة على الأطباء ، كتبت للناس • وقرأت علم النفس منذ أيام المراهقة ، لنحل مشاكلنا الخاصة • ودخلت فى مرحلة دينية متطرفة لكنى درست الروحانيات • ولا زلت أومن بها • عمى هذا لم يمت بواسطة فيروس كما قال الأساتذة • الفيروس مظلوم • عمى هذا مات لانه فقد الرغبة فى الحياة •• كيف يستطيع رجل أن يتقبل طويلا فى مصر أن يحل محل مربية أولاد عجوزة أم « سيد » هذا صعب على رجالنا • خطاباتى لم تغير من تفكير عمى ، كان حريصا جدا ، لم يتعلم

العفو ، لم يتعلم ان يثق بما فيه الكفاية فى الله لانه كره الاستسلام الشديد فى التحدى للقدر • لم يتعلم ان لب الروحانيات هو المحبة والمغامرة ، فقد الرغبة فى الحياة بعد أن صمد لخمس سنوات بعد المعاش • هنا فى الغرب ظاهرة ملحوظة • الناس الذين يركزون على عملهم يموتون بعد شهور من الاحالة على المعاش التعبير الشائع « يضع البيض كله فى سلة واحدة يطبق عليه ، البيض كله يتكسر • وفى مصر النساء الذين تدور حياتهم حول أزواجهن فقط ويعيشون عيشة هنيئة طويلة فى رابطة قوية يمتن بعد شهور من وفاة أزواجهن • والدة صديقى جنازتها كانت فى ذكرى عام وفاة زوجها • وأخـرى جنازتها كانت فى ذكرى الأربعين لزوجها • بل أنها صلت اليه فى جنازته قائلة « يا رب خذنى اليك كما أخذته » كانت الزوجة الثانية بعد وفاة الزوجة الأولى ولم تكن على علاقة وئام مع أولاده • أولاده أصدقائى • ولكن كان هناك ذلك التوتر الخفيف الخفى • أرادت الموت فماتت •

قلت :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله • هذا كلام مهم جدا •

صاح فى :

ـ الى متى ستظل تردد هذا الكلام ؟ كلنا نؤمن بالله • ولكن لابد أن نفعل شيئا • الكلام لا يكفى •

قلت فى اخلاص شديد :

ـ هل تريد أن تتغلب أفكارك على أفكار الأساتذة • انت لست سوى طبيبا صغيرا أجنبيا لا أهمية له هنا ؟

صاح وكانت أمامه كرة أرضية أشار فيها الى عدة أماكن :

ـ هؤلاء حمير ، سواء هنا أو هناك أو هناك •

هدأ ثم قال بعد برهة فى صوت خافت :

ـ ليس كلهم • هناك بعض الأطباء الذين يؤمنون بمثل ما أومن ولكنهم اقلية • وهناك التباعد بين الأخصائيين والدين ، والتباعد بين الأخصائيين والأطباء الآخرين • لى أصدقاء فى مختلف معسكرات الطب •

قلت له :

ـ وما الحل ؟ هناك دائما الشىء الصحيح والشىء المزيف •

نظر الى للحظات في ذهول وألم وقال في استسلام :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ٠

أحسست بيأس شديد في داخله ، وجدت نفسي أقول في هدوء :

ـ لا تيأس كما أيأس أنا أحيانا ٠ ثم أضفت :

ـ يوضع سره في أضعف خلقه يا صاحبي ٠ لا تنس كلام الناس في مصر ٠ الكلام الكويس ، وليس الكلام الفارغ الكثير ٠

قال :

ـ وما أكثره ٠٠٠٠٠ ثم أضاف :

« ابن خالي مات من شهر أيضا كان طالبا في الجامعة ٠ مات من التوتر والقيء بعد الامتحانات ٠ ذهبوا الى أربعة دكاترة أحدهم أستاذ كلهم طمأنوهم حتى آخر يوم ٠

لم أتحمل أكثر من ذلك ٠ ذهبت وجلست في الجراج مع سيارة ساعة كاملة ٠ فأنا آلة والسيارة آلة أما صبحي فليس آلة ولا طبيب هو انسان ٠ حكيم ٠ حكيم ٠ حكيم ٠

بعد ساعة أخرجني من الجراج ٠ كانت في عينيه دموع مسحها قبل أن يحضر الى ويقول مازحا ساخرا قليلا : عجبتك العربية خالص ؟

دخلنا بين مرة وأخرى ومررنا على حديقته الصغيرة ٠ جلس وعمل شايا بليمون وقال :

ـ مراتي في الخارج لم تعد بعد من العمل ٠ هل تعرف أن الدكتور المفتي أستاذ الطب ذهب الى أمريكا وعمل تجربة قال لهم : أريد أن تعطوني مئة حالة ٠ ولا أريد أجهزتكم ٠ لابد انه طلب فقط السماعة وجهاز الضغط ، لا أعرف بالضبط ٠ أحضروا له مائة حالة ، شخص منها اثنين وتسعين حالة تشخيصا صحيحا ٠ هل سمعت بما فعله عبد الناصر ؟ كان رجلا في المليون المفتي هذا ٠

قلت في خوف :

ـ أرجوك ، لا داعي لهذا الكلام الخطير ٠ سمعت كلام ٠

قال :

ـ ما الخطير ؟

قلت فى اضطراب :

ـ لا أحد يعرف ما يخبئه المستقبل فى هذه الدنيا ٠

قال لى فى تعاطف وفهم :

ـ طول عمرك حذر ٠ الحذر كويس لكنه لا يكفى ٠

ثم أضاف :

ـ أنا أعرف ما تقصد « الدنيا على كف عفريت » فاكر تمثيلية نجيب الريحاني العالم كله تحت لعنة ، غربه ، وشرقه ، وشماله ، وجنوبه ٠

قلت فى ضيق :

ـ الدنيا قد تكون « على كف عفريت » العالم قد يكون فى يد الشيطان ولكن الله يمسك زمام الشيطان ، وكل شيء بسماح الله لحكمة ٠ وهو وحده يفهم ٠

نظر الى وفى عينيه ألم شديد وسكون ٠ لم نتكلم مدة طويلة ٠ أدرنا اسطوانة من مصر٠الصوت خافت كالانين احيانا٠عال كالصراخ٠ والضحك والصخب أحيانا أخرى ٠

قلت له :

ـ هل جهازك فيه خلل ؟

قال فى غير تفلسف :

ـ هذا شأن الدنيا ٠ يا رب ارحم ٠

ابتلع قرصا مسكنا فى جرعة صغيرة مع الشاى وقال :

ـ هذا قرص « فاليام » ٠ ماذا أفعل ؟ يا رب رحمتك ٠

وتنهد تنهيدة طويلة ٠٠

المقهى الأنيق الصغير

المقاهي في بلاد الانجليز نادرة مما سبب لى كثيرا من الضيق عند وصولى وساهم فيما يسمى « بالصدمة الحضارية » لكن أعجبتنى أشياء كثيرة أيضا هناك . مثل الاصطفاف وعدم التزاحم والأدب ، لكنى دخلت المقهى الأنيق الصغير ذا الأسعار المعقولة الذى يملكه رجل ذو اسم هندى أو ايطالى . هذا هو المقهى الوحيد الذى استريح اليه فى كل المدينة والفتيات فيه ذوات ذوق طيب فى الملابس والشعر والمعاملة..

جلست فى مكانى كالعادة ارقب الديكور والمصابيح القديمة الشكل الحديثة الصنع . الحيطان لونها برتقالى وتعليها فى احد الأركان مرآة كبيرة وطوب فاتح اللون . التأثير الأوربى بدأ يزداد على انجلترا ، وهناك مزيد من المقاهى كما الآن فى مدينتنا ، منذ الدخول للسوق الأوربيه .

جلست ، وسرعان ما لمحنى ، كما توقعت انتقل بسرعة من مقعده حيث كان جالسا ينظر يمينا وشمالا ويحرك نصفه الأسفل كله نحو فتاتين ، الفتيات على مقعد نصف دائرى مجاور . جاء وحيانى .

ــ كيف الحال ؟

قلت فى هدوء وكان فى فمه رائحة خمر ويبدو فى الخامسة والعشرين من العمر :

ــ لا بأس .

ثم أضفت :

ــ اننى متأسف ، قد نسيت اسمك .

ــ « جون » . قابلتنى عند « كولن » نسيت اسمك أيضا . قالها بقلق .

ـ انني بهجت • أذكر ذلك جيدا اسمي بهجت •

ـ كيف حالك ؟

ـ لا بأس • هل أنت على مايرام ؟

ســألته في شيء من الاهتمام ، لانني أعرف انه بلا عمل ، كثيرا من الوقت يشرب البيرة وغالبا يقترض النقود من كولن ، لانه كان في يوم من الأيام أحد تلاميذه واحتفظ بعلاقته معه الآن • كولن شخص قدير جدا وثرى يحتفظ بمجموعة من الناس الذين يحتاجون اليه والى معونة مادية ومعنوية هو يحب أن يلعب دور الأخ العطوف بطريقة محببــة للنفس جدا ، ولكن أحيانا يضيق بكثرة المساعدات المطلوبة منه • اقترض منه جون في ذلك اليوم نقودا وأعطاه اياها كولن • ولما ذهب قال كولن في شبه دهشــة واستنكار ، هو أعزب وبلا أطفال ويكره الأطفال انهم يريدون أن اصــبح مصرف فلوس يلجأون اليه متى شاءوا •

سألت جون :

ـ أين تعمل الآن ؟

ـ كنت أعمل في معسكر صيفي للعائلات •

ـ كحارس ؟

أجاب وعلائم الحيرة والضياع تبدو على ملامحه :

ـ نعم ، ولكنهم طردوني •

قالها وهو مستمر في تحريك رأسه يمينا وشمالا وينظر حوله •

ـ انني أحب الشرب ••• وحين اشرب كثيرا تنتابني رعشة •

ـ ربما عندك مشاكل • لماذا لا تحل مشاكلك ؟

ـ نعم ، زوجتي تركتني • كنا نتشاجر •

ـ أين تسكن ؟

ـ أبيت أحيانا عند كولن لليلة واحدة مثلا •

دهشت لأن كولن أعطــاني فكرة انه لا يحب جون ويضــيق به رغم حسن معاملته له •

ـ حين لا تبيت عند كولن أين تبيت ؟

ـ كلا ، ليس لي مكان محدد •• انني ••••

تردد • لم أتكلم وظللت منتظرا اجابته ناظرا اليه في صمت وأردت مساعدته •

قال :

ـ انني ابيت على محطة القطار أحيانا ، واحيانا في المرقص ٠

تذكرت اننا لسنا في لندن بل في مدينة صغيرة ولهذا لا يطردون فيها الناس الذين ينامون في الأماكن العامة كما يفعلون مثلا في محطة « بادنجتون » في لندن ٠

ـ المرقص مفتوح طوال الليل ؟

ـ نعم ٠

شعرت بالأسف لكنني كنت قليل الكلام ذلك اليوم ٠ فجأة قال في نفس اللهجة :

ـ روح عن نفسك ٠ روح عن نفسك ٠ لا تكن كئيبا هكذا ٠

اخذت على غرة فقد كنت أحاول أن أهتم وأن أرعاه ولكن اكتشفت انه لاحظ حزني وكدري ذلك اليوم ٠ لم اعرف ماذا أقول ولكن هذا لم يقلقني٠ سألني :

ـ ما رقم تليفونك ؟ هل عندك تليفون ؟

قلت في بطء ٠

ـ نعم ٠

ـ ما رقم تليفونك ؟

صمت ولم أتكلم وظللت أنظر اليه ٠ لم يلح أكثر من ذلك ٠ كانت زوجتي قد زجرت ابني اكثر من اللازم وتدخلت بينهما فتشاجرت زوجتي معي وتحولت المشاجرة بينها وبين ابني الى مشاجرة معي ٠ ابني عمره ثلاثة عشر عاما ويحب الخروج مع اصدقائه لكن زوجتي لا تثق فيهم كثيرا ولا تفهم طبيعة ابني أحيانا رغم حسن نيتها ٠ لم استطع التفكير في الامر والصمت أكثر من اللازم ٠ سكت برهة ٠ كنت قد لمحت فتاتين جالستين معهما كراسات رسم ضخمة دلالة انهما من كلية الفنون الصغيرة في المدينة ٠ رغبت جدا أن أرى بعضا من رسوماتهما ٠ قلت لجون :

ـ عن اذنك ٠

همهم كلاما سريعا ٠

ذهبت الى الفتاتين نظرا الى نظرة عادية جدا ٠ قلت :

ـ انني أنحت وأهوى الرسم • هل يمكن أن أرى رسوماتك ؟

ـ كلا لست أنا الرسامة ان الرسم ملكها هي • وأشارت الى الأخرى

ـ هل أنت في كلية الفنون ؟

ـ نعم •

ـ هل يمكن أن أرى رسوماتك ؟

ترددت كثيرا ثم قالت وهي تضع يدها على الكراسة الضخمة بجوارها •

ـ كلا • رسومي سيئة • قالتها بلهجة اعتذار لذلك لم أشعر بالحرج •

قلت برفق :

ـ لا تخافي ، لا يمكن أن تكون رسوماتك بهذا السوء •

ـ كلا ،

قالت معتذرة وهي تنظر الى بعينيها الخضراوتين وشعرها المهوش يحيط وجهها :

ـ كلا لا استطيع ، لابد انك رسام جيد • رسومي سيئة •

قلت وانا أتمالك نفسي بشدة :

ـ وهو كذلك ، كنت احب ان أرى رسوماتك ولكني لن اصر • حسنا ، سأراك فيما بعد •

عدت مكاني وجلست أمام جون - فكرت في نفسي انني لا استطيع أن أعطيه رقم تليفوني والا ظل يتصل بي ليل نهار وهو على حالته المضطربة التي احسست اني ليس في مقدوري تحمنها لوقت طويل • انا هكذا • أحب مساعدة الناس • ولكن هناك بعض الناس الذين ألمس اضطرابات شديدة في داخلهم مما يجعلني أشعر بالألم الشديد لهم « كولن » يحتاج لهؤلاء الناس بقدر ما يحتاجونه هم • أنا لا احتاجهم لاني متزوج بينما « كولن » مطلق مرتين ويعيش وحده • ومع هذا فقد أحسست بوخز الضمير وشعور بالضيق لأني لا أستطيع مساعدة جون • المشكلة هي انه ربما يرغب في المبيت عندي في البيت وأنا عندي ولد وبنت مراهقين لا استطيع تعريضهما اكثر من اللازم لاشخاص مثل جون • أحيانا يأتي الى بيتنا

أشخاص مثل جون • ولكنهم لا ينامون فى البيت ، مرات آوينا أناس لم يستطيعوا الحصول على « أوتو ستوب » فى الطريق ولكن كان ذلك بعد أن دردشت معهم فى السيارة وتأكدت من طريقة حديثهم والموضوعات التى تناولناها أنهم أناس يمكن الوثوق فيهم ، وحتى هذا يعتبره بعض أصدقاؤنا مغامرة كبيرة • وربما اعتبرتها أنا كذلك وأنا أفعلها لكننى كنت متأكدا مئه فى المئة من انهم أشخاص طيبون • كثير من الناس « المحترمين » لايمكن أن يؤوا شخصا يسافر بالتلويح للسيارات فى الطريق العام بين المدن • لكن هناك طريقة يتحدث بها كل شخص • هناك الطلبة وهناك الرحالة وهناك المغامرين ومن يتعاطون المخدرات ، ولهم لغة أخرى مختلفة وطريقة مختلفة في الكلام تعلمتها وأفهمها ، أنا ، رغم انى أعمل مدرسا فى كلية تكنولوجية واعتبر من الطبقة المتوسطة •

قابلت بعض هؤلاء عند « كولن » وقابلت بعضهم فى هيئة تطوعيـة للشباب • هم ليسوا شياطين كما يظن « المحترمون » ذوو الياقات البيضاء والفساتين ذات الالياف الصناعية التى تشترى من « ماركس وسبنسرو » « س • و • أ • »

بعد قليل قلت لجون :

ــ عن اذنك ، ينبغى أن أذهب الآن • أرجو ان اراك مرة اخرى فى مكان ما ، هل ستعمل فى هذه المدينة •

ــ كلا ، وعدنى صديق بوظيفة فى مكان آخر « أوزويسترى » •

ــ « أوزويسترى » ! اننى متأسف لاننى لن استطيع مقابلتك ، على كل حال انت ستظل على اتصال « بكولن » اليس كذلك ؟

ــ نعم وهو كذلك • قالها ملوحا برأسه فى حركات غير منتظمة ، كنت متيقنا انه لن يظل طويلا فى وظيفته • ولكن متى أستطيع أن اقابله ؟ هذا هو ما لم يعرف أو أعرف أنا •

سألت نفسى هل سيحدث هذا لى لو تركتنى زوجتى ؟ هل سأشرب وانتقل من وظيفة لأخرى • لا أعتقد انى سأشرب ولكنى لابد سأحتاج لتعاطى بعض المسكنات من الطبيب العام •

هم يعطون المسكنات مثلما الامهات اولادهم الحلو لتسكيتهم • مئة قرص مئتى قرص أو ثلثمائة قرص • من يرغب فى ابتلاع كل الاقراص

مسئول عن نفسه • ولكنهم طبعا يحولون الناس الذين في حالة سيئة جدا الى الاخصائيين • ينفضون أيديهم منهم دهم ـ مثلما لم استطع مساعدة جون ـ لا يستطيعون مساعدة مرضاهم في مشاكلهم • الناس مثل السيارات •

فان كان هناك خلل في الجسم الخارجي فهناك طبيب الجلد وان كان هناك خلل في المفاصل واللوالب فهناك طبيب العظام • كل هذا جميل ولكن ان كان هناك خلل في السائق ، العقل ، هذا السائق يفسد السيارة بسوء استعماله لها فماذا يفعلون ؟ انهم يحولونه الى طبيب يعالجه بالأدوية• بدل ان يعلمه كيف يحسن قيادة السيارة • أما جون هذا فيشرب الخمر ليغرق فيها مشاكله • دارت هذه الخواطر في رأسي للحظات قصيرة • نظر الى جون وسألني •

ـ فيما تفكر ، القلق يبدو عليك • القلق •

ـ كلا ليس هناك ما يمكن أن أفعله أو تفعله انت •

قمت لأدفع الحساب • سمعت فتيات القهوة يتحدثن قائلات :

ـ هذا الشاب يزعج المكان كلما حضر هنا •

فتيات القهوة لسن سيئات أيضا لكنهن يحتجن للهدوء لادارة المكان الجميل المحترم ولا يهمهن سوى ذلك • احداهن تبدو عابسة • حييت الفتاة ذات العينين الواسعتين الجميلة خلف البار ، وحيتني برفع عينيها وابتسمت قليلا وسريعا فظهرت اسنانها البارزة أكثر من اللازم • ودفعت الحساب الصغير لنفسي ولجون وانصرفت من المكان الجميل أجر أذيال الهزيمة •

سرت في الشارع الصغير حتى وصلت الى مقهى « ويمبي » هناك الفتيات مختلفات ، يتحدثن بلهجة شعبية • وهناك ضوضاء عالية من غسل الشوك والملاعق والأطباق • هناك وجدت « علي عصمت » الشاب اليمني الذي يلعب الملاكمة وهو جالس داخل الواجهة الزجاجية الواسعة • لوح لي حين رآني وسألني الدخول •

ـ اين كنت ؟

ـ كنت في المقهى الصغير في نهاية الشارع كان هناك مغاربة يعملون في المطعم الموجود أسفل المقهى الذي يسمى « فينيس » مرة

تظاهروا بأنهم ايطاليون وسالنا ونحن نتناول العشاء عن اسمه فقال لنا ان اسمه « يوسف » . لم يكن يعرف انى شرقى وأخبرناه انه ليس ايطاليا مثلما يتظاهر . أخيرا قال لنا انه مغربى .

ـ هل حدث هذا ؟

ـ نعم .

ومرت احدى فتيات المقهى فقال لى « هذه الفتاة كانت تسكن بجوارنا سألها :

ـ ما عنوانك ؟

أخبرته ، طلب لى عصمت قهوة وطلب لنفسه ساندوتش . بعد لحظات ونحن نتحدث مر بعض الشبان ، شابان انجليزيان وشاب أسود . لوحوا وهتفوا . فهمت انهم أصدقاء ويريدون الحديث اليه .

قال :

ـ عن اذنك دقيقة واحدة .

اختفى لربع ساعة وقلقت . لم يكن من المعقول أن آكل سندويتشاته وادفع الحساب . ثم انى لم أكن مستعدا ان أدفع الحساب له . مضت نصف ساعة . وقلقت ثم عاد لى وهو لاهث الانفاس قليلا ، وقد اصفر وجهه وقال لى :

ـ انني غير جائع . كل هذا .

قلت

ـ كلا ، لست جائعا أيضا .

لاحظت خدوشا فى عقل أصابعه . لم أدهش لان مع عصمت يجب أن تتوقع أى شيء . سألت بلطف وأنا لا استطيع تخيل ما حدث :

ـ هل تحدثت الى أصدقائك ؟

قال :

ـ نعم .

ـ هناك خدوش على عقل أصابعك . ماذا حدث ؟

جاءت فتاة المقهى لأمر من الأمور ، قال لى :

ـ لقد ضربت ذلك الولد العبد من جزر الهند الغربية وحاول آخران الحيلولة بيننا فضربت راسيهما ببعض ·

لم تعجبني كلمة « عبد » تلك المرة لم أقل شيئا ·

قلت بشيء من الاهتياج لفتاة المقهى الانجليزية :

ـ لقد جرح نفسه ، لقد جرح يده · هل عندك شيء لعلاجه ؟

قالت في هدوء وهي تمسك بيده وتنظر اليها :

ـ نعم ، سأحضر شيئا ·

استدارت ، كانت قصيرة بشوشة ذات ابتسـامة حلوة · سـألت « عصمت » ·

ـ ماذا يحصل ؟

قال وهو يلهث وقد بدا عليه تحكم شديد في اهتياجه :

ـ هذا الولد العبد ، أتى الى المرقص الذى أعمل فيه على الباب وقد شرب كثيرا · وقلت له في هدوء لا تستطيع الدخول هذا المساء لأنك شارب أمسك ببذلتي وقال لي « من تظن نفسك ؟ » قلت له « سأقابلك في يوم آخر ونصفي الحساب معا » · قابلوني وأنا أرتدي حلتي الجديدة ، بعد ذلك في الشارع الرئيسي ، قلت له حلتي جديدة ، اليوم ضربته ، كان لابد أن ألقنه درسا حتى لا يستوقفني ومعي زوجتي « جاكلين » · حضرت فتاة المقهى ومعها مطهر ومشمع وقطن ومسحت يد عصمت وانصرفت الى الآلة الحاسبة · لم يكن هناك سوى عدد قليل من الناس في المقهى ·

كان يأكل ساندويتشه بصعوبة · قلت له :

ـ اذا فقد خدشت نفسك في حائط خشن ·

لم يتكلم ، وصمت أنا ، عصمت شخص يحب مصادقة جميع الناس وهو يجيد الكلام وملم ببعض الكتاب الانجليز ويتقن العربية والانجليزية لكنه عمل بعد ترك المدرسة مباشرة وقد كان بلا عمل حتى وقت قريب · لكنه يعمل في مرقص في المساء · ويعمل في بناء محل تجارة لشخص يمني أثناء النهار ، ولكنها وظيفة مؤقته ·

عرفته عن طريق نادى اجتماعي افتتحته احدى الهيئات لأهل حيهم الشعبي حي الميناء · أحسست ان الأولاد هناك يعجبون به ولكنهم يكرهون

استخدامه لتفوقه العضلى أحيانا ، خاصة الأولاد العرب وكان بعضهم مسكنه فى الحى بجوار الميناء حيث استقر أهاليهم عند حضورهم بالسفن فرادى من الشرق ٠

تذكرت جون المكسيح النفس ٠ لابد اصابته طفولة تعسة ، نشأة حافلة بعدم الرعاية بذلك الكساح النفسى الشديد ٠ وأخذت أقارنه بعصمت الذى يضرب زوجته جاكلين ويستخدم قوته فى اخضاع من حوله بالقوة ولكن المقارنة توقفت عند هذا الحد ٠ نهضنا لنذهب الى سيارتى ٠ عند الآلة الحاسبة نظر الى وقال :

ــ اسكت انت ٠

لم أفهم ٠ أضاف قائلا للفتاة التى عالجت جرحه :

ــ لقد وضعت اليوم ليسون حلاقة «بروت» هل يمكن أن تشميه ٠

مالت عليه الفتاة تشمه تحت أذنه فأسرع بوضع قبلة على خدها ٠ وقفت مذهولا ، أخذت الفتاة الحساب فى هدوء واطمئنان وسعادة ٠

صحبته الى بيته فى عربتى ٠ لكنه قال لى :

ــ لست ذاهبا الى بيتى لانى ذاهب الى القصر والى حديقة الحيوان الصغيرة الخاصة لاقابل صديقتى ٠

ذهبت معه ، توجه الى الفتاة التى تؤجر السيسى للأطفال ٠ تحدث اليها بلهجته السريعة العالية الخالية من العمق ٠ به كثير من الاحساس وروح المرح ٠ أحسست ان عصمت انسان يبحث عن شىء ، مثلى ٠هذا الشىء هو القبول « الغربى » ٠ زوجتى لا تتقبلنى تماما هى تتحدانى أما هو فيخشى عدم تقبل المجتمع الغربى له لانه يتمسك بالدين ولونه بنى رسمته فى المقهى فكرة شكله ٠ استغربت جدا ٠

ذات يوم عدت الى الحديقة مع زوجتى وابنى وبنتى ٠ مررنا على الفتاة وقلت لها :

ــ ينبغى أن تحذرى من عصمت هو صديقى ولكنه متزوج وانت شابة صغيرة ٠

قالت وهى تحرك رجلا بعد الاخرى وعلائم الصحة تبدو عليها ، ثيابها بسيطة ٠

ــ كل الناس يحذروننى منه ، قال لى انه يعيش مع امرأة وليس متزوجا ٠

ـ كلا ، هو متزوج . هذه زوجتي وابنـاي ، نحن نسـكن بجوار المدرسة الثانوية .

وأشرت عبر الطريق الكبير .

ـ أهله غاضبون عليه « عمه » الشيخ حسن .

قالت :

ـ أنا أيضا أسكن هناك ، بجوار المدرسة الثانوية .

ـ هل تعلمين ان عنده طفل أيضا ؟

ـ كلا ، انني أدرس في المدرسة الثانوية .

نظرت لزوجتي . وأحسست بالأسف لعصمت مثلما احسست الأسف لنفسي مثلما احسست الأسف لجون . ثم عدت أفكر في كولن . اقترح مرة أن أتخذ عشيقة لتسليني عن همي كما يقولون . الشكوى لغير الله مذلة .

احيانا شكوت لكولن لم يدلني .

وجاء صوت ابني :

ـ لماذا انت متأخر هكذا ؟ أسرع حتى نذهب الى البحيرة والغابة ثم الى القصر . انه يرجع الى القرن السابع عشر وكانت تسكنه أسرة ...

لم أسرع وتوقف ابني :

قلت له :

ـ لقد قررت انني لا استطيع أن أكون مثـل جون أو كولن او ان أكون مثل عصمت . هل تعرفهم ؟ هل أخبرتك شيئا عنهم ؟

ـ نعم ، لكنك تتكلم بالفوازير مرة أخرى يا أبي .

فقررت أن اخبره بقصة كولن وجون وقصة عصمت كخطوة أولى ..

الجيران يتكلمون

أثناء وقوفي على محطة المنشية لم أعرف علة انهماكي في التفكير في حصص الكيميا العملية أثناء الدراسة الثانوية ، وكيف كنت أقضيها في وزن المخلوطات وعيار المحاليل بدقة وتسجيل هذه المقاييس في الكراسة ، حتى اذا انتهيت من هذه العمليات كان وقت الوصول الى النتائج قد فات . هكذا العقل لا يمكن التنبؤ بمساره أو تفسير كثير من الخواطر .

رويدا رويدا رأيت خاطري يسرح في اتجاه آخر ، في عائلة صديقي « حسان » الذي تتردد عليهم كل شلتنا من الجامعة شبان وشابات . أخته قالت لي مرة بعد وفاة والدهم ان الجيران يتكلمون .

لم أكن قد قررت أن أذهب اليهم في الأزاريطة ، كذلك أيضا لم يكن لي رغبة الآن للعودة الى شقة أخي المقيم بسبورتنج .. ولما جاء الاتوبيس وجدتني أقف في جمود أفكر مرة أخرى فيما اذا لم يكن من الأصوب لو انني أتممت الوزن والقياس في حصص الكيميا على عجل ، ومارست خطوات التجارب حتى أصل الى النهاية ولو كانت خاطئة ، ثم لفقت النتائج ، وأجريت التوفيق بينهما وبين ما ينبغي أن تكون عليه فعلا ، مثلما كان البعض يفعل ، تلك العملية التي كانت تسمى « طبخ » النتائج .

... وهكذا لم أصعد الى الاتوبيس والناس الذين يسرعون هربا من تباشير طراوة سبتمبر دون تسابق كريه مثلما يحدث في المسطس . الاسكندرية جميلة في سبتمبر ..

أخيرا استقر رأيي على ان اذهب الى عائلة صديقي « حسان جلال » ، وقررت ان لا بأس من أن أحمل معي على سبيل المزاج فاكهة .

وفى تراخ عبرت الشارع وسيارة تمرق بجانبى مسرعة وسائقها يصيح فى .

كان هناك رذاذ خفيف لكن ذلك لم يحرك فى ساكنا . وقررت أن آخذ خط الاتوبيس الآخر لانه أسرع . كنت أتدبر اتخاذ خطوة جادة مع « أميرة » أخت « حسان » وأن أسألها ان تخرج معى وان يثق أحدنا بالآخر جيدا ، تقدم مرة خطيب لأخته ورغبت والدته فى القبول خشية المستقبل لكن « حسان » تحدث معى فى الأمر وكنت أعرف الشاب ، ودون اهانة اتفقنا على انه غير مناسب .

لكن الجميع لا يحترمونى كصديق حسان . طلب منى زميل فى الكلية ممارسة الجنس معى وأهاننى أمام الجميع .

لا يجب الظن انى محل احترام الجميع .

لم يكن هناك تفكير فى ذهن أحد عن احتمال ارتباطى « بأميرة » وقتها لكن الامر قد طال بيننا كثيرا وعطلت حواجز العقل اندفاعنا فى الحب أكثر من اللازم ، وحتى موجات العاطفة الخفيفة التى أحسسناها، تسيطر عليها وتخنقها ـ نعم هكذا قررت ـ ثقة والدة « حسان » الكاملة فى ، وتحولها الى صداقة مثل باقى الصداقات .

وهكذا لم تحرز عواطفنا تقدما بالمعنى الصحيح لكنه ليس تزمتا أيضا . فماذا يكون ؟ لست أدرى .

لا بد أن نخرج لنذهب الى ديليس أو تريانون وسأنفق هناك كيفما اتفق ، فليس هناك من أود أن أخرج معها فى مغاغة .

وستخوننى النظرات وأنا معها وأحدثها بكلمات الحب . لن تسيل وتذوب من الخارج بل ستبدو قوية أكبر من سنها ، ربما مثل أمها ، ستكون رائعة وهى تنصت لى بوجه خفيض وعينان تختفيـــان حتى لا ألمح العاطفة فيهما والحب بيننا من الداخل . سيكون كل شىء فى ذوبان ، ثم ... ثم ابخرة رقيقة مثل الشبورة وربما يصير غليان ... نعم غليان سريع . وستسير بجانبى وكعبها يضرب الطريق مع ضربات حذائى بثقل جسمها ولا وعيها . ستكون شبه نائمة وهى تدعى اليقظة .

عند ذلك حينما تعترف انها تحبنى سأعرض عليها الزواج .

بعد لحظات جاء أتوبيس آخر وصعدت وجلست بجوار الشباك

وجاء الكمسارى فأخذت أبحث فى جيوبى باحثا عن فكة صغيرة ومال ثقلى على الرجل الجالس بجوارى لكن نظر الى نظرة ملاطفة ٠

ونزلت من الأتوبيس وذهبت الى هناك وأنا لا أحمل شيئا من الفاكهة فلسبب ما بدت الفكرة سخيفة وخشيت أن يبدو الامر تقليديا جادا ٠ وما ان دخلت الشقة حتى وجدت « أميرة » مع « غدير » ابنة عمها التى تقضى عندهم الصيف وكانت أكبر قليلا من « أميرة » وأعرفها وعائلتها من القاهرة ٠

كانتا جالستان تعدان السلاطة بينما رائحة الطعام تتسرب من المطبخ الى ارجاء الصالة وهو شيء أكرهه ومع هذا احتفظت بمزاج هادىء :

ــ كيف أحوالكما وكيف حال تانت « فوزيه » ، أين هى ؟

ــ ماما فى الخارج مع عمى وعمتى ٠

ــ وأين « هاله » أختك و « حسان » ؟

ردت « غدير » مقاطعة ٠

ــ غير موجودين ٠

ثم اضافت :

ــ وأين أنت ؟ ومتى جئت من مغاغة ؟ أين كنت ٠٠ سمعنا بوصولك ٠

قالت « أميرة » :

ــ نعم أين كنت طوال الوقت ؟

قالتها بشيء من السلطة ٠

ــ فى مغاغة ٠

قلتها مستسلما وأنا لا أرى معنى هذا المزاح ٠

ــ انهم لا يأكلون الناس هناك فلماذا أنت نحيف وأسمر ؟

ــ من الشمس والحر فليس كل الناس يعيشون فى بلاد جميلة على البحر مثل الاسكندرية ٠

هناك شمس وعرق فى الصعيد ٠

قالت غدير :

ـ ظننتك ستستمر وتقول « دموع » .

ـ كلا . ليس هناك دموع في مغاغة ، للاسف .

صمتت غدير لانها لم تفهم ما قلت .

ولكنها بعد قليل عادت تقول بلهجة تحدى وشقاوة :

ـ عندنا فتاة نريد تزويجها . محاسن بنت خالى هلال عمرها ثلاث سنوات . على قدك .

أجبت بلا تفكير :

ـ ولماذا انتظر خمسة عشر عاما وأنا يجب أن أتزوج بعد خمسة عشر يوما .

أجفلت « أميرة » قليلا ونظرت لحظة ولاحظت ذراعها يتحرك حركة عصبية مبالغ فيها وهى تمدها لتتناول سلطانية السلاطة . ونظرت الى الطبق الذى أمامها فوجدت أنها خرطت قليلا جدا من البصل وانه لم يكن هناك داع لتناول السلطانية .

وجاء الطعام وعزموا على فاعتذرت انى تعبان وكان هناك مكرونة مصنوعة في الفرن فقلت وتفكيرى فى حالة شلل تام لعبث غدير معى .

ـ هذه المكرونة رائعة لكنى أريدها المرة القادمة أكثر احمرارا ومحترقة قليلا ، مفهوم ؟ ابتسمت غدير ورفعت حاجبيها بمكر فابتسمت أنا قليلا أيضا .

ردت أميرة فى جد .

ـ حاضر ، فى المرة القادمة

صاحت غدير بها مصممة كأننى غير موجود .

ـ كلا ، قلت لك اعترضى .

هنا ابتسمت ابتسامة بلا معنى . بعد دقائق كنت قد القيت ملخصا لكل أخبارى وأحوالى وانتهينا من الطعام الذى أصرت أميرة أن أتذوقه وأخذنا في رفع الاطباق من على المائدة وبدأ صوت الاطباق وهى ترتطم بعضها ببعض فى أيديهما يثير أعصابى ويذكرنى بجو ربات البيوت وأيام عمل والدتى المنزلى الطويل الذى لا ينتهى لكثرة عددنا . وسرعان ما انتهينا من حمل كل شيء الى المطبخ . واختفت غدير وأخذت

أقرأ الصحيفة وبعد مدة خرجت غدير تحمل حقيبة على كتفها وقد ارتدت ملابسها كاملة ٠

ـ انني ذاهبـــة لألحق بعمتي ٠ أما أنت يا أمـــيرة فاعملي ما أوصيتك ٠

قالت أميرة :

ـ حاضر !٠

فهمت ان في الامر شيئا لان أميرة غير معتـــادة على الانصياع لغدير ٠ فرغم ان غدير أكبر منها الا أن « أميرة » تحس لنفسها بمكانة أكبر منها وأحيانا تشتبكا في شجار لهذا السبب ٠ مرة واحدة في الحقيقة وليس أكثر من ذلك ضربتني « غدير » بحقيبتها وحملتها ويدها الطويلة تتأرجح ومضت وهي تبتسم لنفسها ٠ قامت أميرة تعمل شايا لكلينا فعرضت أن أعمل الشاى بدل منها وتوجهت الى المطبخ لكنني لم أعرف مكان علبة الشاى ووقفت وسط المطبخ مستسلما ألقي نظرة فيما حولي وأفكر جديا في الكلام معها في أمر خروجنا معا ٠ نظرت لي نظرة عابرة فلم أجد وقتا لأقول لها ما أود أن أقول وافترقت عيوننا كل الى اتجاه مخالف ٠

قلت انني لا أعرف مكان علبة الشاى ٠ تركت الصنبور مفتوحا والرذاذ يتناثر على القميص وأخرجت علبة الشاى ، ونظرت الى اللبن وكان لم يغلي بعد ٠

وفي عودتها مرت بجوارى مباشرة وقالت وهي تتحرك بجوارى متفادية اياى في صوت طال انتظاره ٠

ـ لماذا تقف في طريقي هكذا ؟

وكأنها تريدني ان أبدأ الحديث ٠ فكرت في التقاط الحديث من هذه الجملة لكنها لم تنظر الى من مكانها أمام الحوض بل كانت تنقل نظرها من الاطباق الى اللبن الذى تنتظر غليانه ثم من اللبن الى الاطباق وسألتني ان أرقب اللبن حين لم أقل شيئا ٠ اســـتدرت نحو اللبن فوجدته موضوعا فوق شبكة عازلة من الشئ تستعمل في معامل الكيميا كذلك الاناء نفسه كان من الزجاج غير القابل للكسر على غير العادة ٠ تذكرت ان والدها كان كيماويا كبـيرا في شركة ٠ وهذه آلات معمـــل لا أدوات طبخ ٠

ـ لماذا تضعين هذه الشبكة هنا ؟

ـ أمي لا تستعمل مثلها على موقد البوتاجاز •

ـ لا شأن لى بأمك •

قالتها باباء وشىء من التبرم الهادىء البارد •

لم أفهم سبب تبرمها فقلت وأنا أحس بالخـــــواء يملأ داخلى والارهاق يشغل فراغى •

ـ فى بيتنا لا يغلى اللبن هكذا •

أخيرا غلى اللبن فاتت وافرغته فى ابريق صينى وتسللت من قاع اللبن رائحة احتراق شديد ، فالشبكة العازلة عطلت غليانه فى الوقت المناسب • تمنيت أن أخرج من هذا المطبخ الذى يحتوينى واياها ودولابا للادوات وموقد بوتاجاز ومطبقية وحوض ومنضدة •

ويبدو ان الملل الشديد كان ينضبح على وجهى لانها قالت فى صوت واهن :

ـ اذهب الى الصالة •

سرت فى بطء وجلست على كرسى ولكنى سرعان ما سمعت جرس الباب فذهبت لأفتح وقد ملأ الخوف قلبى من أن يكون القادم هو عم أميرة أو زوج عمتها • لقد هبطا مرة وكنت موجودا وحـــدى مع أميرة وقريبتها واستقبلتهم استقبالا عاديا واهملت أميرة من الداخل فقبلوها على الخدين وجلست فى احترام بينما أميرة تهتف فيهم هل اذيقكم كعكتى ؟

كنت أرتب الكلمات المناسبة كالعـــــادة لاقولها لقوم يهتمون بالسلامات والترحيبات وكيف الحال •

حين لاحظت نظرة جانبية فاحصة جادة على وجه عمها المكتنز وهو يسددها نحوى من تحت أجفانه الثقيلة • لاحظت ذلك حين التفت على غير قصد وأدركت أنه كان يلتفت الى لفترة طويلة ... مما لاحظت • قلت اننى لا أجىء الى الاسكندرية كثيرا لان عندى تكليف فى مغاغة لكنى أرجو أن ينتهى بسرعة ...

وبينما كان جلوسى فى ارتخاء كان كل عقلى يقظة وقد تعلمت أن أفعل ذلك منذ أن اكتشفت كثيرا من الامور التى لا يمكن للشباب

أن يستوعبها وحده وان على المرء أن يعاشر الكبار وأن يحـوز ثقتهم فلا مجال هناك للتغافل عن نفوذهم كما كنت أفعل وأنا لا زلت طالبا لانه مهما تجاهلت الكبار فهم لا يختفون من على وجه الارض ويبسط نفوذهم الادبي كما هو • يومها استأذنت وخرجت ثم لمت نفسي على هذا التقهقر السريع •

فتحت الباب وبدأ القلق على وجهي لأن سعد وهو صديق آخر نشيط سريع الحركة دخل وقال :

ــ ماذا في الأمر ؟

قلت :

ــ لا شيء •

قال :

ــ أين الجميع ؟

ودخل وأبلغ رسالة من حسان لأخته عن تأخره في العمل ، وقال سعد انه يجب أن يذهب بعد قليل ، فخرجت معه الى ميدان الرمل • وفي الطريق قصصت على سعد قصة نظرات عم أميرة ولكنه لم يبد اهتماما بل عبر عن شيء من السخرية فحسبت اهتمامي بالأمر سخف فسكت • وسألني عن وجهتي فأخبرته بها وعن عزمي العودة في المساء حين يعود حسان من العمل كما قال في رسالته ولاحظت على وجهه علامات تصميم لا معنى له وهو يقول :

ــ نعم أنا عائد الى هناك أيضا في المساء •

ودعته دون أن أربط بين تعبيرات وجهه وبين قولي عن العودة في المساء كذلك لم أفهم سر قلة كلامه فكلانا يتردد على البيت دون هدف سوى التمتع باحاديث الاصدقاء الشيقة •

ملامح سعد خليط من ملامح أمه الصومالية ووالده المصري المقيم في الصومال ، وكان هو يدرس بمنحة في الجامعة في الاسكندرية • قضيت فترة العصر فيما لا أتذكر لكنني كنت مستلقيا على السرير أتأمل سحابة بيضاء كبيرة من خلال النافذة وأفكر فيما وراءها من نجوم وعوالم • سمعت صوت مذياع الجيران وأغاني شائعة غير ملفتة للسمع ، وفجأة وجدت تفكيري يتركز وسمعي يرهف وأتتبع نقاشا طويلا بين جار وزوجته ولم أدر لماذا جذب ذلك النقاش انتباهي ، كانت تريده أن يفعل شيئا وكان هو

يسألها ان تقوم بمهمة مفاتحة أقاربها في المشكلة لانها في المعتاد أحسنهن استعدادا للقيام بالمهمة • ظننت أولا ان المسألة مسألة صراع بين الارادتين ولكني أعتقد غير ذلك الآن وان كلاهما كان يفضل ان يقـدم الآخر على الخطوات الاولى في مفاتحة أقاربهما •

باختصار ربما لم يكن أيهما مقتنعا بالخطوة التي يريدان خطوها •
هل هناك خلاف بين موقفهما وموقفي مع أميرة ؟

سؤال سريع باهت مـر بخاطري سرعان ما غاب في الزحام في المسـاء .

عدت لبيت عائلة المرحوم المهندس « جلال » وعرفت ان حسان وسعد موجودين من مدة وفهمت ان سعد في حجرة أميرة مع غادة ويتحدثون في كل شيء ولا شيء كالعادة بين عائلة جلال وأصدقاء العائلة • وجلست في الصالة مع حسان وأمه وسألتني هي عن مغاغة وعن حياة العزوبيـة وشرحت لي طريقة عمل البطاطس والمكرونة في الفرن على طريقتها ثم سألتني أخيرا عما اذا كنت أنوي تعلم طبخ كل شيء أم انني سأترك هذا الأمر لزوجة المستقبل ، ولم أجب .

بدأت أميرة تلبس ثياب الخروج فأتى سعد الينا وتغير محور الحديث الى ازدحام الاسكندرية بالمصطافين رغم حلول سبتمبر ثم تحدثنا عن جماعة من القاهرة تقضي الصباح مع أولاد وبنات عائلة جلال في الكابينة وكانت أم جلال تعرفهم كلهم رغم انها في الستين من عمرها وألقت على ملاحظة عابرة عن أحد الفتيان وقالت عنه انه ظريف لكنه يقسو على الفتيات ، واسترعت وقتها انتباهي • كنت أستمع الى الحديث في صمت ليس لاني أعرف المجموعة بل لاني حديث التعرف بها وقضيت معهم يومين أو ثلاثة وقد قدمني حسان اليهم كعادته في خلط من قاده ، وسألتني أم حسان وهي من أوائل النساء المتعلمات في بداية القرن وسارت في مظاهرات مدرسة السنية •

ـ ألم تعجبك المجموعة ؟
ـ بلى ، أعجبتني •
ـ اذا لماذا لم تندمج ؟

هكذا هي دائما تهتم بالجميع كعادة زوجها قبل وفاته ، وأجبت :

ـ أنا أرحب بالاندماج لكني لسـت سريع التعرف على الجميع •
تعرفت بسرعة الى نشأت

ـ هو أقل حدة فى كلامه من سعد ٠

قلت لسعد وهو متطرف :

ـ ثمن الخبز الذى توفره الثورات المتطرفة باهظ ٠٠ الثمن هو حرية الناس ، انها مشكلة ومأزق ٠

قالت غدير معاكسة :

ـ اذا لماذا لم تتعرف عليهم جيدا ، هل هى لهجتك الصعيدية ، هل هذا ما تعلمته فى الصعيد ؟

فهمت إنها تمزح وقلت :

ـ هل يجب أن أصرخ وأصيح مثلا لوللا وسمير فى الكابينة حتى أثبت اننى اجتماعى ٠ أنت مهرجة ٠

ـ هل عندكم شلل أصدقاء فى مغاغة ؟

تحاشيت السؤال . لكنها نظرت الى فى تساؤل واصرار :

ـ عندئذ ٠ وأضفت ، لقد انسجمت مع نشأت الذى يتحدث عن سارتر والوجودية ويعمل فى التليفزيون ، قال أن مشاعر الوجودية ومحورها هو أن الحياة شىء يجب احتماله ، هو قراءة الوجودية بالفرنسية ٠

ثم أضفت :

ـ كلا ، أنا لم أختلط الا بالقليلين بمغاغة وأسافر أحيانا كثيرة الى القاهرة فى عطلة نهاية الأسبوع ٠ قالت غدير وهى التى لم تقرأ حرفا واحدا فى الوجودية وتعمل فى مدرسة أطفال كمدرسة ٠

ـ لابد أن هؤلاء الموجودين كلهم معذبون وغلابى وبؤساء ٠٠٠٠ مثل حضرتك ٠

ورفعت عينيها الى بعد كلمة « حضرتك » دون حرج ٠ لم أفهم كيف تظننى انسانا معذبا وأنا أعمل فى وظيفة حكومية لها بدل لا بأس به ولى هوايات أتمتع بها بشدة ٠ لكن كلامها لم يقلقنى لانى أعرف أن غدير تميل الى ، ورغم انها مخطوبة فقد كانت مستعدة للزواج منى قبل ذلك وأنا لا زلت أعزها كثيرا ، لكنى قلت لنفسى أن مشكلتى هى اننى لم أعرف

او أجد بعد ما أريده بالضبط من الحياة ولم أرد أن أبدأ بزواج يعرقل سيرى وعثورى على بغيتى . أما الوجودية فملخصها أن الحياة شيء يحتمل ولا يمكن التمتع به . وهم لا يسمونها « حياة » بل « وجود » مجرد وجود شأننا شأن الجماد والحيوان . وجود ومعاناة وتعبير عن المشاعر لا كلام « عقلانى » جلف ومنطق بارد كالنيار الذى سبق الوجودية .

المرحوم الباشمهندس « جلال » كان رجلا ذا مكانة اجتماعية مرموقة ورباهم تربية ممتازة.ولم يكن هناك مجال للعبث بين مجموعتنا الشابة. وأمهم تسير السفينة على خط سير والدهم وتتوقع النضوج وتحمل المسئولية منا والتفتح والود للجميع . هذا ما يعجبنى فى كل العائلة . حضرت أميرة من حجرتها الى الصالة فى كامل زينتها فقررت الخروج معها على أن أذهب معها حيثما تريد ثم أعرض عليها أن نمر على كازينو على الكورنيش لنجلس ونتحادث . سألتها عما اذا كانت تنوى الخروج فأجابت بالايجاب.لكنها عادت مرة أخرى الى حجرتها تعبث فى محتوياتها ونظرت خلال الباب المفتوح لأرى ماذا تفعل فوجدتها رغم وقوفها أمام المرآة لا تمشط شعرها بالمعنى الصحيح . وقفت فى اسهام وقلبت الأدراج وتحركت فى مهل شديد شارد البال دون أن تجد شيئا ما تريده . وجدت أن هذا من طبائع الفتيات الغريبة التى لا نفهمها ولعل الأمر لا يعدو تواكل أو كسل أو سأم ، قررت الصبر والانتظار قليلا .

أخيرا قام سعد وسأل أميرة ان كانت تنوى الخروج وخرجت من حجرتها فنهضت وخرجت وخرجنا ثلاثتنا . لم يهمنى ترتيب سيرنا لكنى وجدت سعدا يسير بجوارى . ووجهتنا محطة ترام الرمل . مع هذا لم تصعد أوتوبيسا مزدحما واضعين أميرة فى اعتبارنا ومر أوتوبيس ثان وثالث ووقف الثالث سمعنا الكمسارى وفجأة صعدت أميرة على عجل وصعد سعد وراءها والأتوبيس يسير بسرعة فاختفيا فى لحظة وامضة . وجدت نفسى وحدى على المحطة أقف فى حالة سكون وسلبية بعد اختفاء الأوتوبيس ، وفهمت وادعيت لنفسى عدم الاهتمام ولكنى سألت نفسى :

ـ لماذا يبدو وكأن صداقاتى تسير فى طرقات مسدودة كبيت جحا ؟ لماذا تؤول أغلب محاولاتى فى الحيـــاة حتى الآن الى لا شيء ؟ هل هى الوجودية التى تقول عنها غدير ؟ لماذا ؟ هل أنا خائف من الناس . من الحياة . من المجتمع ؟ أم اننى خائف من نفسى ... من عواطفى ؟ هناك مدرسة وجودية مؤمنة بالله . ربما أحاول أن أعرف المزيد عنها ، لعل هذا يخفف من عذابى .

قال نشأت مرة قولا غريبا عن سارتر أن صديقا وصفه بأن « يداه مثل يدى مجرم » قالها بالفرنسية ، مرة طلب صراحة عمولة لاخراج مسرحية لى فى التليفزيون ورفضت ٠

مضت أيام ثم زرتهم مرة أخرى ، وعند بداية العمارة فوجئت بجارتهم الزميلة السابقة من الكلية القميئة القصيرة تحييني بابتسامة تفيض رقة وعذوبة وتدعوني الى زيارتهم « تفضل مرة » هذا رغم أن عائلتها من عائلات الجيران الذين يتكلمون عن عائلة « حسان » لكني دخلت باحثا عن حسان ٠ لم أجده ولم أجد غادة أيضا في الصالة ولكنها بعد قليل ظهرت مرتدية ملابس الخروج ، قالت انها خارجة لمقابلة خطيبها وبدت مرحة أكثر من العادة ، وكأن طبيعتها الحزينة قد اختفت تماما ٠ تلك الطبيعة التي اكتسبتها بموت والدتها واساءة زوجة أبيها اليها وأخيها مما جعلهما يتعلقان ببعض ويعيشان معا بينما هجرهما الأخ الأكبر٠ جلست كالعادة أتحدث في مواضيع مختلفة كثيرا بكلام قليل ٠ هذه المرة طرقنا أكثر من عشرة موضوعات في عدة جمل ٠

وضعت أميرة سندوتشين تناولناهما في مهل شديد ٠ فكنا لا زلنا كعائلة واحدة ٠ بعد الأكل صاحت في الخادمة وأرسلتها تشتري خبزا من مخبز بعيد ٠ وعلى غير توقع وجدتها تقترب الى في صمت وفي يدها شيء رفعته فوجدته لفافة بنية بها صورتين لوالدها وفي هدوء مبالغ فيه سألتني :

ـ أي صورة تعتقد انها الأفضل للوضع في الجرائد بمناسبة مرور عام على وفاة والدي ؟

نظرت الى الصورتين وأنا محتار لهدوءها الشديد واخترت واحدة :

ـ أعتقد هذه أفضل ٠

قالت :

ـ لقد اخترنا احدى الصورتين ٠

سألت :

ـ أيهما ؟

قالت :

ـ الأخرى ٠

قلت :

ـ انني أرى غير ذلك ، هذا هو انطباعي .

وهنا صاحت في عناد واصرار وغضب :

ـ كلا ، الصورة الأخرى أحسن .

لم أكن على استعداد للدخول في معركة فغيرت لهجتي وعدت وكررت رأيي في لطف .

ماذا تحاول هذه الأنثى ؟ هل هي تريد الانتقام مني لاني لم أتحرك بسرعة في صداقتنا ، هل هي تريد أن تذكرني بوالدها الراحل والمكانة المرموقة التي كان يحتلها . والدي مدرس بسيط وأمي مريضة بمرض شديد . أم هل هي تود استشارتي فعلا ؟ كلا بالطبع .. ماذا تحاول أن تفعل إذا ؟ هل هو السأم ؟ هل هي تحاول أن تذل كبريائي وأن تخضعني لارادتها لانني لم أستجب من قبل لماكساتها الخفية مثلما فعلت حينما صعدت السلم أمامي وهي تهتز يمينا ويسارا في مبالغة . الحقيقة التي يجب مواجهتها هي انني كنت أكره جدا كسلها الشديد ورسوبها المتكرر في المعهد ، بغض النظر عمن كان أبوها . هل نحن شديدا الشبه أحدنا بالآخر ؟ أنا أيضـــا صادفت متاعب دراسية شديدة لمرض أمي الطويل ، واهتم بالتأمل في الحياة والناس والمصير . أيضا أبدو شديد التكاسل في نظـــر البعض . عقلي فقط سريع دؤوب جدا ولكن الحـيرة الشـــديدة وكثرة الأسئلة في ذهني تخفيـــان ذلك تمـــاما للمعـــارف السطحيين . حسان يعرف عقلي ويفهمني وأفهمه تماما . ماذا تحاول ؟ اثارتي واخراجي عن هدوئي أو برودي ؟ هذا مستحيل . لانني حين أفقد أعصابي أو أخرج عن أطواري أتصرف وأقول كلاما غير مقبول . وينظر البعض الى في دهشة لاني أقول ما لا يصح أن يقال . ربما أنا لا أفهمها وهي لا تفهمني ليس هناك تفسير آخر . هل هو « الصراع بين المحبين » الذي يتكلم عنـــه سارتر ؟ سارتر هذا كلامه غريب ، ولكن له جاذبية مغناطيسية .

أبوها العظيم كم هي حيرتني ، أبوها العظيم دللها أكثر من اللازم ، لا أريد أن أقول أفسدها .

استأذنت في الانصراف وخرجت من شقتهم وقابلت الخادمة نوال على السلم عائدة بخبز محترق غير منتظم الشكل بما يبقى في المخابز

عادة في المساء . قلت لنفسي لعله قانون تنافر الأقطاب المغناطيسية المشابهة يسرى على علاقتي بأميرة ..

عدت اليهم بعد اسبوع وكانت أمير كالمعتاد مع ابنة عمتها وسعد وتناولنا شايا بالنعناع . جرى الحديث عاديا تماما عن السينما والمسرح وأسعار التين البرشومي وأهل القاهرة وزحمة الصيف وأرانا سعد اللوحة الصغيرة التي رسمها حسان لمجموعة من الناس يهمسون ويتناولون سيرة النــــاس كانوا بدون ملامح ولا يمكن التعرف عليهم ، وجـــوه بلا تفاصيل . أعجبت بناحية التركيب فيها . سألت في غير وعي « أين الملامح » ؟ ثم قلت بعد فترة سكون انني ذاهب الى الشارع « شارع سعد زغلول » لكي ندردش ونتهامس في القهوة . هل يريد أحد مصاحبتي ؟ ونظرت الى سعد . نظر الى سعد وحـرك حواجبه في شقاوة وهو دائما الانسان العاقل الجاد ، وركز نظره علي قائلا :

ــ نعم ، سنذهب الى الشارع . شارع سعد زغلول قبل الخطوبة بيوم . سنذهب لشراء الدبل من الصائغ .

لم أفهم ، واستغربت . كثيرا ما يتكلم بطريقة سيريالية عن أحلامنا وآمالنا وأفكارنا الناضج منهـــا وما لم يتشكل بعدنا ويســاعد كلامنا ونقاشنا على تشكيل الخواطر في صيغتها النهائية فماذا يقصد ؟

بعد أيام دعينا الى فرح صلاح وشادية من الشلة ، وكان الجميع في مزاح مناسب . دار رقص على موسيقى هادئة ، وصاخبة طوال الليل في الكازينو على البحر . أحسست برومانتيكية شديدة وذهبت الى أميرة وعرضت عليها ان أصحبها الى البيت في نهاية السهرة لأن أخوها أيضا ذهب مع خطيبته ولكنها قالت :

ــ كلا ، شكرا أنا ذاهبة مع آخرين .

لعبت الفرقة الأغنية « أنت تعرف القصة وكيف تدور . قصة آدم وحواء » تذكرت أسئلتها العشوائية اللحوحة مرة لي عن آدم وحواء .

في اليـوم التالي أعلنت خطوبة أميرة وسعد في الكابينة وحـدث صخب وصياح ومرح .

أخذت أول قطار الى القــاهرة وأنفقت آخر جنيـــه في جيبي في الاسكندرية . لم أنس عند توديعي لحسان أن أنظر الى النافذة المجاورة

حيث زميلتي السابقة تقف أحيانا ، لمحتها تمر عبر الشباك دون أن تتوقف . قابلتها في الوزارة في القاهرة مع بعض الزملاء . حدث شيء تافه لا أذكره وغضبت مني بلا سبب وصاحت :

ـ أنت دائما هكذا تأخذ كل شيء بمأخذ الهزل . لحظ أحد الزملاء المجادلة ! وعلق مداعبا وكان قصيرا نشيطا بشوش الوجه .

ـ يا أخي التفت الى الناس التي تلتفت اليك .

قلت بصراحة :

ـ هذا محال . ثم أضفت بعد ثوان ودهشة . لاني لم أظنه بهذه الدرجة من الفهم :

ـ طول قامتي ضعف طول قامتها وشعري أطول من شعرها الأكرت ، وعائلتها تحب الكلام الكثير . كانت تسكن أمام عائلة صديق لي في الاسكندرية .

سألني :

ـ ماذا تحب أنت وعائلة صديقك ؟ سأخبرك أنا ، معاشرة الناس والاحساس بالحياة حلوها ومرها بعمق ، وتحب عامود الأربعاء في الصحيفة .

ـ كيف عرفت ؟ انني أحب وأقرأ كل كلمة يكتبها ذلك الكاتب الوحودي الذي يقف في قهوة البن البرازيلي كل مساء وعلى وجهه علامات التفكير العميق والاحساس الشديد . كيف عرفت ؟ هو يكتب أحيانا عن أمه .

قال :

ـ الامر واضح كالشمس . ثم انهمك في أمر آخر وانشغل في نشاط دائب في تصفية أموره مع الموظفين كأنه يعرفهم منذ الطفولة ..

على ضفاف قنوات أمستردام

انني رسام مصرى فقير سعيد . فقير لأنى لا أملك سوى سيارة « داف » هولندية صغيرة وهي أصغر سيارة فى أوربا وأعيش فى « الهيج » عاصمة هولندا . سعيد لأن لى طفلة عمرها شهران معقولة . اول مرة قررت أن أزور امستردام وحدى عرفنى شخص على « هوستيل » مناسب قريب من محطة القطار الرئيسية .

ذهبت الى هناك فقالوا لى انهم لا يسمحون بالبقاء لمن هم يبلغون أكثر من خمسة وعشرون عاما ، اعطونى عنوان هوستيل آخر قريب طيب وذهبت اليه . حذرنى البعض من نوع من أماكن الاقامة التى تنتشر فيها المخدرات وتستخدم فيها البنات عرايا أمام الرجال . فكرت فى النزول عند صديق مصرى ثم عدلت عن الفكرة . أحيانا كنت أحس فى الغرفة كانى فى كوكب آخر . التاقلم مؤلم .

سرت محاذيا لقناة ووجدت الهوستيل بسرعة . وضعت حاجياتى على السرير واخذت محفظتى معى ونزلت الى صالة الأكل حيث يتناول الجميع العشاء . مدير المكان ودود وطيب ، كان هناك شبان صغار منتظرين فى المكتب . لحظ المدير ترددى فقال لى فى ود ماذا تريد ؟ قلت له انني اريد سفينة اسمها « لوجس » بديرها مجموعة من الشبان ويتحدثون للشباب الذين يسيرون بلا هدف او بحثا عن المخدرات المنتشرة فى امستردام يتحدثون اليهم عن حياة ذات معنى وايمان بالله . اجابنى لطلبى وقال لى ساشرح لك طريقة الوصول ، سهلة جدا . ورسم لى الطريق على ورقة . كان معى خريطة مجانية لأمستردام .

احسست بالوحدة . جلست وتناولت العشـاء مع مجموعة من الشبان ، تحدثوا الى حديثا قصيرا وانتهوا من العشاء واختفوا . لم يريدوا مصادقتي لأنني أكبر منهم سنا .

وبعد العشـاء ذهبت وجلست امام التليفزيون اسأل نفسي من يا ترى سأستطيع أن اصادقه ؟

تكلمت الى شـاب لكنـه أجاب أجابة مقتضبة فتركته .. كانت هنـاك امـرأة في الأربعين ذابلة نوعا جالسـة منزوية في ركن تراقب التليفزيون .. جلس شاب وحكى لى كيف هـرب من جمـاعة دينيـة آسيوية فى محاولاتهم فى غسيل الذهن بتضحيتهم .فجأة فى الرابعـة صباحا للغناء وترديد مستمر للفظ واحد وحمام بارد . ثم انصرف . عالم غريب ، عالم واسـع ، عالم محير نوعا . لـكن لابد من شيء من المغامرة فى هذه الدنيا ..

ذهبت الى الغرب بدون وعى لاستكشاف بعض منابع فكرنا مثلما ذهب المستكشفون الغربيون للبحث عن منـابع النيـل العظيم . القلق يعتريني كثيرا . وكأنني أفكر اى مصير سـالقى ، المستكشفون كانت مصائرهم متباينة . ريتشارد بيرتون أصيب بخيبة الأمل حين لم تختره الجمعية الجغرافية للذهاب مرة أخرى وتعارك معهم وكان قد اتخذ لنفسه محظية من القبائل أو ربما محظيات . صمويل بيـكر ذهب مع زوجته ولم يخف الزنوج وكان انسانا سمح الأخلاق وكانت رحلته ناجحة « سبيك » انتحر حين لم يؤيده ريتشارد بيرتون فى قوله انه وجد مصب النيل . الطبيب « لفنجستون » ظهر أن كل نظرياته خاطئة عن منبع النيل وكان قد سمع من الزنوج عن اسم نهرين ، ولكن أعماله العظيمة كانت فى رعايته الطبية لأهل القـارة وعطفه الشـديد عليهم ومواجهته للأخطار فى شـجاعة نادرة . مات ودفن تابعـه قلبه تحت شجرة رمزا لحبه لافريقيا . يا الهى ان الغرب عالم واسع ماذا سيحدث لي .. هذا كان مصدرا للمخاوف المبهمة التى اكتنفتنى طوال اعوامى الأولى حتى وجد الطبيب من الضرورى اعطائى ادوية ضـد الهبوط النفسى .

حل بى الملل سريعا . المدير مشـغول ، ولابد انه قد رأى آلافا مثلى ، ولا يريد ان يتكلم أو يدردش هباء .

وأخيرا وبعد نصف ساعة قررت ان ادردش معهـا ، مع المرأة ذات الاربعين عاما .

وكان أول سؤال طبعا هو « من أى بلد أنت ؟ » قالت «انجلترا؟» قلت « أى مكان ؟ » قالت « لندن » قلت « اذن انت انجليزية » قالت « كلا ، أمريكية » .

كان حديثى لها بالانجليزية الواضحة لها والجميع يتكلمون الانجليزية فى هولندا . اتقنت الانجليزية فى هولندا . كان يبدو على ملامحها الافول وعدم الحماس للحياة بشيء من الملل العام . وكانت تتحدث ببطء ولم تكن جميلة ولكنها كانت تبتسم بين الحين والحين ونحن نتحدث فى نوع من الانكسار .

قلت لها « ما مشروعاتك هنا ؟ » قالت « اننى فى انتظار فتاة طيبة لكن مجنونة سنركب العجل سويا ونسير أميالا فى الريف الهولندى » . نظرت الى وقالت شبه معابثة « هى وعدتنى وغالبا ستحضر اذا . فاذا رأيت فتاة صينية يبدو عليها ملامح الجنون غدا وهى تبحث عن شخص فأرجو أن تخبرنى » .

سألتها : « اليس هناك أمل فى أن نسير معا فى وسط امستردام؟ هل تعرفين أمستردام ؟ اننى لا أعرفها . كم من الوقت قضيت هنا ؟

قلت : « اسبوعا . والآن بدأت أمل . كم من الوقت ستقضى ؟ »

قلت : اليوم وغدا فقط . هذا كل شيء . تجولت فى اتوبيس العجائب . ليس معى كثير من النقود . أدرس الرسم فى المساء وانحت طوال النهار .

قالت : اننى أعرف من أين نحصل على طعام رخيص . كذلك نستطيع المشى بدلا من ركوب المركبات العامة .

قلت : اريد أن أشاهد متحف رامبرانت .

قالت : اذا لم تحضر الفتاة المجنونة فلا مانع عندى من الذهاب معك سيرا على الأقدام . المسافة ساعة من هنا . قدمى ليست سليمة تماما ، لكنى وافقت .

قلت : نعم ولكن أمستردام جميلة ، القنوات جميلة جدا . سأتحمل فى سبيل رامبرانت وفى سبيل الفن الاصيل . مفصل فخذى يؤلمنى ..

نظرت الى وقالت فى هدوء :

ـ ومع هذا تريد أن تسير لساعة ؟

قلت والتعب فى صوتى :

ـ نعم لا مفر من ذلك .

سألت :

ـ وهل زوجتك فنانة مثلك ؟

ـ كلا هى ست بيت لا شـــأن لهـــا بالفن بالمـــرة . فقط تحب الموسيقى . هى تقدر الفن .

تحدثنا لنصف ساعة وسألتها :

ـ هل تريدين السير بحذاء القناة ؟

قالت : كلا اننى متعبة الليلة .

تركتها وخرجت وسرت بجوار القنـــاة لســـاعة .. وصـــلت الى السفينة القابعة خلف المحطة . وجدتهم قد فتحوا قاعة الاســـتقبال وكان هناك مخدات كبيرة ومناضد صغيرة خفيفة واباجورات خفيفة الأنوار وبعض مصنوعات جلدية من آســـيا تحلى الحـــوائط والجـــو شرقيا جدا وكأنك فى «تمباكو» حيث يسافر الشباب طلبا للمخدرات المباحة . استقبلنى شاب قال لى انه أمريكى .

سألته : هل الجميع أمريكان ؟

قال :

ـ كلا هناك جنسيات مختلفـــة انجليز هولنـــديون وايطاليـــون وفرنسيون . كلنا شباب نحاول أن نتحدث ونتناقش عن معنى الحياة أو عن حياة ذات معنى تعتمـــد على محبـــة البشر ومحبـــة العـــائلة البشرية .

قلت له : هذا كلام جميل اننى أومن باننا يجب ان نحب الله وأن نحب الجميع .

قال : نعم هذا هو هدفنا أيضا .

جلست وقدم لى شاب فنجان قهوة وقال : كل واحد مسموح له بفنجان قهوة على حساب المكان .. بعد ذلك انت تدفع لنفسك .

بعد لحظات دخل شابان يبدو عليهما الطابع الشرقى واحدهما سمين البدن وعليه عرق وحييتهما بالانجليزية وقلت لهما :

ــ من اى مكان انتما ؟

قالا : من مراكش .

قلت بالعربية : ماذا تفعلان ؟

قالا ببطء وقلب : نبحث عن عمل .

قلت : وهل وجدتما عملا ؟

قالا : كلا هناك امل . ولكن ليس عندنا تصريح عمل .

كان صمتهما أكثر من كلامهما وبدا عليهما التردد ..

قلت : اين تعيشان ؟

نظر أحدهما للآخر وقال فى صبر وفى غلب : نحن نعيش فى مكان مهجور خارج أمستردام . ليس عندنا نقود ولكن غدا سنجد عملا باذن الله .

ونظر لى احدهما وقال : هل انت تعمل ؟

قلت : نعم .

قال : هل لديك نقود أم انك مفلس مثلنا ؟ .

قلت : لماذا السؤال ؟

قال : فقط اذا كنت محتاجا لنقود فيمكن أن نقابلك غدا ونعطيك بعض نقود .. انك انسان شرقى ودود عزمتنا على فنجان قهوة .

قلت : كلا هذا على حساب السفينة واصحابها ، ولكنى سأعزمكما على فنجان آخر .

قال : كلا شكرا .

بدا الألم على ملامحهما ..

قلت : ليس عندى نقودا كثيرة ولكنى أستطيع أن أعطيكما مبلغا يسيرا من المال .

قالا : كلا شكرا .

اصررت فقالا لى : انت عزمت علينا بالقهوة هذا يكفى . هل انت متزوج ؟

قلت نعم وعندى أولاد ثلاثة .

قال الشخص السمين في ألم : لو أقرضتنا شيئا من المال ، سنكون شاكرين جدا .

اعطيتهم خمس ليرات . تحدثنا ودردشنا وانصرفا . عدت الى الهوستيل ونمت على السرير الخشبى .

فى الصباح توجهت الى الافطار . كانت هناك جبنة « جودة » الممتازة ومربى وخبز كثير . ظهرت المراة الامريكية بعد لحظات وجلست على مائدة مع ثلاثة شبان وشابات اسبانيات . بعد الافطار توجهت اليها مترددا وسألتها :

ـ هل حضرت صديقتك الصينية ؟

قالت : كلا يبدو انها عدلت عن الفكرة .

قلت : هل ستريننى الطريق الى متحف رامبرانت ؟ هل هو مفتوح يوم الأحد ؟

قالت : نعم .

لم افهم ما تقصد ... هل سنذهب ؟

قالت : نعم ليس هناك شىء آخر افعله .

خرجنا معا . صنعت هى ساندوتشات من المطبخ . خرجنا الى الشارع وقالت : هناك كثير من الطعام يلقى فى صندوق القمامة هنا لا بأس من أن نستفيد نحن منه . اننى آكل وفقا للاديان الآسيوية .

سألتها : هل كنت طوال عمرك بوذية ؟

قالت : كلا لست بوذية .

ـ ماذا هندوكية ؟

قالت : كلا .

قلت : ماذا انت اذا ؟

قالت : هذه الأيام انا اركز على الطعام وتمارين الرياضة البدنية .

قلت : يوجا ٠

قالت : شيء مشابه لذلك .

قلت فى حيرة : هل لك أولاد ؟ هل انت متزوجة ؟

نظرت الى فى حزن ولم تقل شيئا .

قلت لها ما هى فلسفتك فى الحياة بجوار الطعام والتمارين الشرقية ؟

قالت : فلسفتى ؟

قلت : نعم بماذا تؤمنين فى الحياة ؟

قالت فى انكسار : ارجو الا تستخدم كلمة ايمان هذه .

قلت : حسنا .. ما هى فلسفتك ؟

سرنا برهة بجوار القناة وفجأة التفتت الى وقالت :

ـ كنت متزوجة فى الثامنة عشر وكان هو فى التاسعة عشر وانجبنا بنتا بعد عام قال لا استطيع احتمال الزواج وتركنى . هذه هى القصة المخزية .

انتهى كلامها فجأة كما بدأ . صمت ولم أقل شيئا احتراما لألمها . كنت سمعت مثل هذه القصص عشرات المرات ولم يكن فى القصة شيء غريب ولكن كان هناك شيء مختلف .. الشعور الشديد بالعار الذى يكتنفها . الطريقة السريعة المقتضبة التى قالتها بها . كلا من الشيئين دلا على أن الألم الدفين فى حياتها الذى يرجع الى عقدة منذ عشرات السنين وليس فقط وليد لظروف حياة قاسية مثلا أو فشل متكرر فى الغرام . قلت لها :

حتى الآن لا اعرف اسمك ؟

ـ ماريا .. وانت ما اسمك ؟

قلت : موسى .

قالت : كنت كاثوليكية ..

صمت ولم أقل شيئا ثم قلت بعد برهة :

ـ الطلاق ممنوع فى الكاثوليكية .

قالت : نعم .

او لعلها أومأت برأسها دون أن تجيب لست أتذكر تماما . قلت في صوت خفيض :

ـ ولكن الخطأ لم يكن خطؤك · اننى اعرف شخصا هولنديا مهتم جدا بالدين ويقول أن من المسموح أن يتزوج الشريك لو هجر الشريك الآخر بيت الزوجية ·

ـ الكاثوليكية لا تقول هذا .

قلت : اليس في هذا تعسف على نفسك ؟

نظرت طويلا الى ولم تقل شيء ، سالت بعد مدة :

ـ وأنت ، هل أنت متزوج · لم تخبرنى عن نفسك ؟

قلت :

ـ نعم أخبرتك اننى متزوج وزوجتى ليست فنانة هل تذكرين ؟

ـ ربما .

قالتها ساهمة .

ـ اننى أؤمن بالاخلاص والولاء في الزواج ومع هذا فلا أؤمن أن على الانسان أن يبتعد عشرة أميال عن أى امرأة تبدى له شيئا من الود والعكس بالعكس ·

ـ الزواج ليس احتكارا مطلقا للشريك .

قالت :

ـ يا ليت هناك كثيرون مثلك .

هى قليلة الكلام ، تقصد يؤمنون بما أومن ،يعرفون الثقة المتبادلة والود والاخاء بدل التزمت ... سرنا من شارع الى شارع ومن شارع الى ميدان حتى اتينا الى حديقة قرب احدى القنوات . قالت :

ـ يجب أن نذهب الى الحديقة لأمارس تمريناتى .

جلست أنا على اريكة وذهبت هى وجلست بجوار القناة واخذت تتلوى في هدوء وبطء يمينا ويسارا واعلى واسفل والناس السائرون في الحديقة يراقبونها ، بعضهم صراحة والبعض الآخر من طرف خفى .

عادت بعد ربع ساعة واعطتنى ساندوتشا به جبن جودا هولندية بينما أخذت هى تأكل حفنة صغيرة من الأرز في علبة صغيرة جـــدا من البلاستيك .

قلت :

ـ هل هذا كل طعامك ؟

قالت :

ـ نعم زملائى فى المكتب فى لندن يعتقدون انني شاذة أو مجنونة .

سألت :

ـ ماذا تقول الفلسفة التى تعتنقينها أيضا ؟

قالت :

ـ لا أعرف .. أننى أركز الآن على المرحلة الأولى مرحلة الطعام والتمرينات وستستمر هذه لمدة ستة اشهر بعدها أدخل الى التمرينات الروحية العميقة تدريجيا .

قلت :

ـ الا يمكن أن تخبرينى باختصار ، بم تؤمنين ؟

نظرت الى فى صبر وقالت :

ـ ارجو الا تستخدم كلمة تؤمنين هذه .

ثم اردفت :

ـ مثلا نحن نلبس أحذية .. هذا ضار .

قلت :

ـ لماذا لبس الأحذية ضار ؟

مرت فترة من فترات صمتها الطويل ثم قالت :

ـ هناك شحنة « الين » التى تدخل الينا من الأرض . نحن مشحونون بشحنة « اليان » بدون ملامسة لا تتقابل مع شحنة « الين » فينا . هذا ضار .

سألت :

ـ ماذا أيضا ؟

كل هذا ونحن نسير بدأب من شارع لشارع .

تعبت وقلت : دعينا نجلس جلسنا ..

قالت :

ـ هناك وسيلة سهلة لدراسة الأمراض ولتشخيص حالتك الصحية بنفسك .

قلت :

ـ كل الأمراض ؟

قالت : نعم .

قلت : كيف ؟

قالت : مثلا هناك نقط فحص فى الجسم ، الكتف الصدر الفخذ الركبة الكعب ...

ضغطت على كتفى ثم صدرى ثم فخذى ، فصرخت .

قالت : هذا دليل على أن هناك شيء خطأ فى كليتك .

قلت : كليتى سليمة ولكن لا يهم .

انتهت من حفنة أخرى من الأرز ونهضنا بعد جلوس هادىء شعرت بالأسف لها وامسكت بيدها ..

سألت : لماذا هذا ؟

سرنا فى الشوارع والحوارى الضيقة حتى وصلنا متحف رامبرانت .. درنا فى بيته الذى تحول الى متحف كلا منا على حدة ثم تقابلنا فى احدى الحجرات الغائصة بالناس :

قلت لها :

ـ سنتم الاتفاق . انت تخبرينى عن فلسفتك الشرقية وانا اصحبك الى السفينة « لوجس » الواقفة خلف المحطة الرئيسية لنسمع ما سيقولون الليلة ، اود أن أعرف كيف يتحدثون الى شباب هذا الجيل ماذا عندهم ليقولوا لمدمنى المخدرات ، وممارسى الجنس والاباحية ، الذين لا يؤمنون بالروح أو الخلود ؟

قالت :

ـ حسنا . يجب أن تلتفت لطعامك وان تاكل طعامك مكونا من الخضروات فقط .

ابتسمت ثم اردفته :

ـ الطعام يؤثر على الغريزة الجنسية هذا تحذير لك .

فهمت ما تقصد ولكنى استمررت فى الانصات اليها فى سكون ..

سألتها :

ـ هل نعود الآن ، هل نترك المتحف ؟

قالت :

ـ نعم . سنعود من جهة أخرى أنت تريد أن تشاهد « دام » الميدان المشهور والشارع اليس كذلك ؟

قلت : نعم .

خرجنا من بيت رامبرانت بعد شراء بعض الكارتات القيمة .. . سرنا طويلا في طرق ملتوية وعرجت على حي فقير وأخيرا قالت : هنا مطعم نباتي .

دخلنا مطعما فقيرا به كثير من الأطعمة ولا يبدو عليه أي نوع من الأناقة ... جلسنا ودخل شاب حاف يرتدي لبس القرون الوسطى ومعه امرأة ترتدي تاجا فضيا وقد دهنت وجهها ببودرة بيضاء غريبة .. كان معهما طفل .

قلت لها :

ـ لابد أن هؤلاء الناس يمارسون السحر .

سكتت .. كررت كلامي ..

قالت لي :

ـ هناك كارنفال .

تذكرت اننا قابلنا بعض فتيات مرتديات ملابس براقة أكثر من العادة ..

سألتها :

ـ هل عندك ما تضيفيه الى فلسفتك الشرقية ؟

قالت :

ـ جورج معلمنا ومرشدنا في لندن نستطيع التحدث اليه في اي شيء .

ـ أي شيء ؟

ـ نعم .. ما عدا الأمور الخاصة .

ـ لماذا ؟ هذا لا يعجبنى .

قالت :

ـ انا كانت لى علاقة برجل متزوج .

ـ جورج لا يتحدث فى هذا ؟

قالت :

ـ كلا مجموعتنا فى لندن لا تتحدث فى هذه الأشياء . احب أن اتحدث الى جورج بهذه الأشـياء ولـكن يقتصر على الأمور الروحية فقط . هو شخص ممتاز جدا .. تحدث مع ابنتى فى كل شيء .

احسست بالألم من اجلها .

ـ كل هذه الفلسفة الشرقية كلام جميـل ولكن نظريا ما الدليـل المادى على صحتها ؟

وقفت فجاة ... لم تتكلم .. اخرجت فى بطء صورة لهـا قديمة وقالت :

ـ انظر ، كم كنت منتفخة .

لم اقتنع تماما ولـكن هنـاك شيء يجب ان يحترمه المرء حين يتوقف بعض الناس عن التهام الكميـات الضـخمة من الطعـام التى يلتهمها الغرب بينما ثلثى العالم جائع .

ـ حدثينى عن ابنتك .

ـ ابنتى تعمل الآن فى لندن ، هى مدرسة العاب رياضية .

ـ هل ربيتها وحدك ؟

ـ نعم . عملت فى مدرسة كاثوليكيـة . اعطونا مرتبـات تافهة جدا . والذى قال لى يجب أن تذهبى للاعتراف . يجب الا تقـابلى الرجال والا ذهبت الى الجحيـم . يجب اطاعة الكنيسـة الكاثوليكية .

قلت والألم يعتصرنى :

ـ وماذا ايضا ؟

ـ لا شيء ... حياة قاسية جدا ليل نهار .

لاحظت كلماتها ليل نهار ولم أعلق لفترة .. أخيرا قلت لها :

ـ لاحظت على وجهك علائم قسوة الأيام حين رأيتك فى الهوستيل امام التليفزيون جالسة وحدك .

قالت فى حب واستطلاع :

ـ ما الذي جعلك تكلمني ؟

قلت :

ـ وجدت انك الوحيدة التى فى سنى .. الجميع مشغولون بنفسهم أو بأصدقائهم .

قالت :

ـ ماذا أيضا ؟

قلت :

ـ لا شيء .

وصلنا الى حارة ضيقة .. كنا متعبين .. جلسنا تحت عامود نور على مقعد .. تحدثنا قليلا . امسكت يدها وقلت :

ـ يا لحظك العاثر يا ماريا .

قالت :

ـ لماذا هذا ؟

قلت :

ـ لا شيء .

وضعت يدى على كتفها للحظات . نهضنا وسرنا وصلنا الى «دام» الشارع الكبير الفسيح الذى لا مواصلات فيه ومخصص للمشاة فقط . على الجانبين محلات متلاصقة ومحلات للجنس « سوبر ماركت » وقفت أمام المحل وتظاهرت بالنظر الى مكان آخر حتى انتهت هى من تظاهرها أيضا لكنى نظرت خلسة للصور .

تظاهرت هى بالمشاهدة وتظاهرت انا بعدم المشاهدة . كانت تحاول لفت نظرى الى الصور الجنسية بطريقتها الخاصة . كنا سبق ورأينا محلات كتب جنسية داعرة صغيرة هنا وهناك .. فكرت كيف قرأت من مدة طويلة جدا كتيبا لعالم نفسى انجليزى قال فيه أن الغرائز ثلاثة : الدين والجنس والاجتماع .

.. لم أتكلم معها . وجدت شابا وشابة يضحكان وهما خارجان من المحل . دخل رجل عجوز فى الخمسين يبدو عليه شدة اليأس . كنت عابسا .. نظر الى وعلى وجهه ابتسامة وبدا كأنه أحد مديرى المحل . حاول بابتسامته ان يجعلنى ابتسم . لم استطع الابتسام ورفضت مجاراته . كان ما أراه هو اهانة للانسانية واهدار لجمال الجنس الذى اعرفه .

عدنا من طريق قصير الى السفينة «لوجس» .. حضرنا الاجتماع أغلبنا جلس على الأرض وسمعنا الأغاني والموسيقى .

سألتها فى النهاية :

ــ ما رايك ؟

قالت :

ــ كلا ، الكلام غير متماسك . هذا كلام يصلح للعيال .. كلام مثل البالوظة غير المتماسكة .

بعد الاجتماع قابلنا طالبة طب من انجلترا ، حضرت وتحدثت مع ماريا .

سألتها ماريا :

لماذا أنتم ضد المخدرات ؟

قالت :

ــ لا أعرف هذا الموضوع بعمق كاف . هناك زميل لنا فى الفريق اسمه مارتن يستطيع أن يتحدث اليك بالتفصيل . هل أنت تتعاطين المخدرات ؟

قالت ماريا الامريكية :

ــ أحيانا . النوع الخفيف منها .

عدنا على الأقدام فى الظلام بجوار قناة أخرى . لاحظت امرأة تقف ببابها لجذب الزبائن . كان موعد عودتى وسفرى من امستردام هو الغد . فى الطريق لم نتحدث بكلمة واحدة . احسست أننا غريبان .

ظهر شاب وفتاة فى الشارع المظلم وحكيا قصة غريبة عن فقدان مئات الدولارات وحاولا بيع بعض الطعام الذى أخذوه من جماعة «هارى

كريشنا » التى تنشر الديانة الهندية ورفضت اعطاءهم مالا لأني شككت في صحة قصتهم وأعطتهم هى خمسة ليرات .

سالتها :

ـ هل أنت قلقة على شبابك . الا تؤمنين بحياة أخرى ؟

لم ترد .

سرنا صامتين مرة اخرى وكأننا لا نعرف احدنا الآخر !

غدا ستذهب هى الى لندن وأنا الى « الهيبح » . قالت :

ـ سأقابلك فى الصباح .

لم نتقابل فى الصباح ،

نايجل فى مفترق الطرق

ذهب نايجل مع صديقه الغنى الشاب الى رحلة عبر بحر المانش الى بيت أصدقاء له فى شيربورج فى فرنسا ٠ ركب الباخرة من أقرب ميناء لمدينة كليفون الراقية حيث يدرس ويعيش مع أبويه ٠ والده طبيب عادى واخصائى فى المستشفى وينفق عليه الكثير فى مدرسة خاصة حتى لايتبقى معه سوى القليل من المال ٠

لكنهم لم يستمروا فى رحلتهم الى داخل فرنسا الى باريس وغيرها لان أصدقاؤهم الفرنسيين رحبوا بهم بشدة ولم يشعر أحد منهم بالرغبة فى التنقل والسفر السريع كالسياح واستمتعوا بصحبة أحدهم الآخر فى هدوء ، وشراب كثير ٠ وهكذا قضى نايجل وصديقه الهادىء أسبوعين بجوار شيربورج الميناء ولم يبتعدوا أكثر من ذلك ٠

كان الحديث أو الاحاديث طوال هذين الاسبوعين أحاديث عابرة عادية بينما عقل نايجل مشغول فى أوقات أخرى بافكار كثيرة ضخمة عن التاريخ والحضارات فهذا هو الموضوع الذى يريد ان يتخصص فيه ٠ وهو كشاب صغير يقف أمام التاريخ فى شبه خوف ورهبة من ضخامته وثقل الأعوام٠ آلاف من الأعوام هو لا يدرى كيف سيمكنه استيعابها ٠ عشرات من الحضارات لا يدرى كيف سيسبر أغوارها ٠ لقد قرأ عشرات الكتب ولكن أمامه المئات ، هكذا هو يشعر ٠ هكذا يحس كانه قزم صغير ٠ كل هذا لانه انسان ذو خيال واسع وعقل كبير ويجب ان يفكر تفكيرا مثاليا وهكذا رحب باجازة الاسبوعين من الحديث فى أى شىء جاد وهو بذلك يقصد كل شىء كبير ٠ احاديثهم الصغيرة كانت حادة أحيانا ولكن لم يحس بذلك ٠

وفى قاعة الاستقبال عند عودته إلى برستيول من ميناء سيربورج كان مستيقظا فى منتصف الليل فى انتظار الباخرة بينما كان صديقه

نائما فى كيس النوم وتقدم منه رجل أسمر يسأله بالفرنسية هل تتكلم الانجليزية ؟ قال : نعم أننى من برستيول · ضحك الرجل وابتسم وقال نحن قريبين جدا من بعض · نحن من جلوستر ·

ابتسم نايجل وقال ضاحكا شبه ممازح : آه أنت من جلوستر · هل معك مخدرات اذن !

ابتسم الرجل للنكتة ولكن لم يفته ملاحظة غرابتها وقال :

ـ كلا ، لماذا ينبغى أن يحمل الناس من جلوستر مخدرات ؟

وقال نايجل شيئا ولكنهما انصرفا الى التحدث عن موعد الباخرة المتأخرة نتيجة اضراب قصير فى موانىء انجلترا ·

سأله الرجل :

ـ كم عمرك ؟

قال نايجل كاذبا :

ـ ثمانية عشر ·

حضرت زوجة الرجل وطفله ووجدا نايجل والرجل يتحدثان فى التاريخ والحضارات وقالت زوجة الرجل بعد تعرفها عليه :

ـ والآن أود ان اتحدث فى موضوعات أكثر عملية من ذلك · سأذهب لأنام ساعة فى السيارة مع البنت ·

لاحظ نايجل رد الرجل الحاد ·

ـ هذه أيضا أشياء عملية · اننا نتناقش فى الحضارة الغربية وتأثيرها على البشر ·

انصرفت الزوجة فى هدوء مع طفلتها ، ثم التفت الى نايجل بعد انصراف زوجته ·

ـ زوجتى لم تنم فى السيارة طوال الليل · كنا ننام بجوار الميناء فى السيارة لكن لم يغمض لها جفن · وتقول انها رأت غارة مخدرات عربة بوليس ورجل وامرأة يعدوان الى قارب ·

ثم أضاف مداعبا وساخرا قليلا :

ـ نحن نعتقد أنها غارة تهريب أسبرين من انجلترا · الأدوية

رخيصة هناك . حدثنى عن سبب اهتمامك بالتاريخ . هل تتعقد ان فى قراءة التاريخ اكتشاف سر متاعب البشر مثلا ؟

ـ لا عرف . كنت أفكر ان ادرس انطب مثل والدى هو جراح مخ . ولكن أحسست بخيبة أمل وتحولت الى قراءة التاريخ ، انا أيضا اكتب قصة تجرى حوادثها فى القرن الثامن عشر .

ـ وكم كتبت فيها ؟

ـ عشرة فصول . كتبتها وأعدت كتابتها عدة مرات . انها مؤلمة .

ـ كم فصلا تريد ان تكتب ؟

ـ ثلاثين .

ـ ما موضوعها ؟

ـ هى قصة عن نفسى فى القرن الثامن عشر .

ـ اذا هى نوع من المذكرات الخاصة ولكنك تصنع تمويها بأن تضع نفسك فى القرن الثامن عشر .

قال نايجل بصراحة :

ـ نعم تماما . ولكن كان على ان ادرس القرن الثامن عشر حتى لا أصنع أخطاء فنية كثيرة . ان الكتابة عملية ممتعة تعطينى الفرصة للتحليل والتأمل فى نفسى وحياتى ، رغم انها هواية .

ـ هل تسكن فى برسيتول نفسها ؟

ـ كلا ولكنى أدرس فى برستيول نفسها وأتردد على منطقة كليفتون . هذه المنطقة كانت منطقة هادئة جدا منذ عدة أعوام . الآن عشرات المحلات وعشرات البارات فتحت فيها . هى أشد المناطق غرابة وشذوذا فى برستيول . يتردد عليها فى المساء والنهار أناس من كل نوع « هيبز » و « ييبيز » و « بنكروك » . الجميع . كل شىء هناك غريب وشاذ والمخدرات منتشرة بين الشباب .

وساله الرجل :

ـ هل تتعاطى المخدرات ؟

قال بوجهه الوسيم وقوامه الصحيح الجذاب :

ـ نعم مرة كنت في حفلة صاخبة وشربت أكثر من المعتاد • أنا عادة لا أسكر • ولكن هـذه المرة سكرت • وحقنني أحـدهم بحقنة هيروين • قضيت أربع عشرة ساعة نائما أحلم احلاما جحيمية • لو استطعت أن أعثر على هذا الشخص الذى حقننى لتغيرت معالم وجهه تماما • ربما هو فعلها بحسن نية • ولكنى لو عثرت عليه لشوهت وجهه •

قال الرجل :

ـ أنا مثل والـدك • طبيب صغير والـدك طبيب كبير ولكنى مهتم بالقراءة فى الأدب والحضارة والفلسفة قليلا • اننى أعتقد مثل الكثيرين ان الحضارة الغربية فيها الخير والشر ، والحضارة الشرقية فيها الخير والشر • ولكن الحضارة الغربية تتجه الى الحركة السريعة والعمل الدائب أكثر من اللازم دون التأمل الكافى • قدماء المصريين لم يكن عندهم آلات معقـــدة غالية بينما بقية العالم يموت من الجوع ، والغرب ينتج منتجات لا لزوم لها •

لا تسيء فهمي هناك أشياء خاطئة كثيرة وفساد اقتصادي وخزعبلات فى الشرق أيضا ولكن هناك التأمل ولو انه يمارس أكثر من اللازم كثيرا •

كان عقل الفتى يعمل بسرعة جدا وحافل بآلاف الأفكار فلم يفكر فى سؤال الرجل عن جنسيته •

قال نايجل :

ـ ان أعظم حضـــارة هى الحضـــارة البيزنطية • قرأت كتابا عن الحضارة البيزنطية وكيف هدمها أحد البابوات ، هو يسمى «البابا الورع» اسأل أى كاثوليكى أو أى قسيس كاثوليكى سيقول لك ان «البابا الورع» هو قديس عظيم • هذا كلام تاريخ • اننى أقدم لك عصارة فكرى • ان هناك حركات كثيرة فى العالم تهدد أشياء عظيمة ونحن نواجه الآن أعظم خطر وهو خطر الشيوعية •

قال الرجل :

ـ نعم ولكن هناك أخطاء داخلية واخطار فاحشة تهدد الحضـــارة الغربية • حتى المعسكر الشرقى يعمل على تقليد أخطاء وتكنولوجيا الغرب• بردياليف المفكر الروسى كان أول من نبهنى لذلك • عاش فى باريس •

قال نايجل بسرعة موافقا :

ـ نعم • ونحن نحاول اصلاح ما يمكن اصلاحه •

قال الرجل له :

ـ كيف ذلك ؟ انك يبدو وكأنك غير ملم تماما بالاحوال في القرن الذى تعيش فيه • لعلك قرأت التاريخ أكثر من اللازم • لم أخبرك ان بردياليف رغم تدينه هاجم سلطات الكنيسة الروسية المتعفنة •

لم يحس نايجل بأن الرجل يهاجمه وسأل : .

ـ ماذا تقصد ؟ ربما أنت صادق فى كلامك ••••

ولكن قاطعه الرجل :

ـ دعنى أخبرك شيئا عن برنامج رأيته فى التليفزيون • ذلك الرجل الذى صنع البرنامج عنه كان صحفيا وطلبت منه الصحيفة ان يصنع « ريبورتاجا » عن الاخطار العظمى التى تهدد العالم اليوم وخرج بسبعة اخطار منها تعدد السكان والطاقة الذرية وانتهاء الثروة المعدنية وانتشار الأوبئة وغيرها • ولكن اخيرا وجد عدوا سابعا أخطر من كل ذلك وهو اهمال الانسان الشديد للاخطار المواجهة له والحياة حياة أنانية بقصر نظر وعدم مراعاة مستقبل الأجيال • واستقال الرجل من الصحيفة وعاش وحده فى كوخ صغير فى الريف وبحث الموضوع بحثا علميا جادا ، أكثر جدية من ريبوتاجات الصحف وخرج بكتاب ضخم وغير مسار حياته وهو الآن يعمل ويحاضر عن ذلك الموضوع ويساهم فى مؤسسة خيرية تساعد الناس غير القادرين على مواجهة الحياة فى لندن وغيرها نتيجة لضغوط وتعقد الحياة الحديثة • هل تفهم ما أعنى ؟ ان أمريكا والغرب مثلا تستهلكان أغلب بترول العالم •

قال نايجل بسرعة ودون تفكير كثير ولكن بحماس نابع عن حيوية شديدة واخلاص شديد •

ـ نعم • أفهم •• اننى لو لم أستطع أن أحصل على منحة من أمريكا لدراسة التاريخ ، اننى حساس بالنسبة لموضوع أمريكا هذا ، لو لم أستطع ان احصل على منحة لدراسة التاريخ ، فسأتحول الى مخبر سرى لتحطيم عصابات المخدرات التى تقتل الأطفال والشباب ببيع هذه السموم لهم • لقد رأت فى برستبول أطفالا مدمنين للمخدرات ، حينما تنظر اليهم يخيل لك انهم فى التسعين من عمرهم • اننى لا أتردد فى قتل تاجر مخدرات •

هذا لأنهم هم البشر الوحيدون فى نظرى الذين لا ينبغى ان يعيشوا هذه المهنة حافلة بالخطر وربما اقتل وانا اقوم بواجبى .

وحضرت زوجة الرجل وذهبوا ليركب الجميع القارب وقال نايجل :

ـ هذا هو صديقى هناك . هذا الشىء المكوم هناك .

قال الرجل مصرا فى صوت واضح لكن غير مهتاج :

ـ كلا هو ليس شيئا . هو انسان . الانسان أكبر من أى شىء .

ـ هو « شىء » غنى جدا . ولكنه طيب جدا .

ـ كلا هو انسان وانت انسان . لنتقابل فى الباخرة . ينبغى ان نقود سيارتنا الى الداخل .

قال الرجل لزوجته :

ـ لم نتوقف عن الكلام منذ ذهبت للنوم فى السيارة .

قالت فى شىء من الحذر والتشكك :

ـ هكذا كل أبناء المدارس الخاصة عندهم موهبة الكلام السهل « غلباوية » .

أقلق هذا الرجل فهو كان يظن حديثهما حديثا جادا ، وهو لا زال يعتقدان حديثهما كان حديثا جادا .

لقد وجد فى نايجل انسانا شابا مثاليا حساسا . وهو له ذاكرة قوية ويذكر جيدا كيف كان يفكر وهو شاب مع زملائه مثل نايجل ويناقشون كل شىء . ولكنه تعود ان يستمع لتحذيرات زوجته على ان يستقصيها ويتحرى مدى صحتها ، فأحيانا تثبت صحة غريزتها . سيتقصى كذلك .

ما ان استقرا فى الباخرة ومر نايجل حتى رحب به .

ووجد نايجل يقول فى نشاط وجذل :

ـ اذا زهقت من الجلسة فى الكراسى ، وأردت الدردشة أكثر فانا نجالس فى الامام .

قال الرجل مرحبا :

ـ هذا شىء حسن . أعتقد أننى سأغفو قليلا ثم آتى اليك .

ونام الرجل وزوجته لساعة ونصف ونامت أبنتهما ثم نهضوا .
قام الرجل وتوجه الى الامام ووجد نايجل . قال له هيا بنا لنجلس فى الصالون . هذه الباخرة أحسن من الباخرة التى ذهبنا بها الى فرنسا . وعاد وأخبر زوجته عن مكانه لتلحق به متى شاءت . ودعا نايجل صديقه للانضمام لهما ولكنه رفض . جلسا وتحدثا . كان نايجل يدخن السجاير ومعه علبة كبيرة ضخمة استلف منها الرجل ليدخن غليونه .

تســـأل :

ــ اى حضارة تعتقد قد توصــلت الى المزيج الصحيح للحيــاة أو المعادلة السليمة أو الروشتة الصحيحة ؟

أجاب الرجل وقد أحس بنايجل يفكر معه ويتساءل فى صراحة .

قـــال :

ــ زوجتى تقول ان كل طلبة المدارس الخاصة « كلامنجية » ..

قال نايجل :

ــ لم أتكلم لأربعة أيام .

قال الرجل فى سرور :

ــ اننى لا اعتقد ان حضارة كاملة معينة تستطيع ان تصـــل الى الجرعة المضبوطة فى الحياة . ولكن الناس ، بعض الناس لا يسيرون فى ركاب المجتمع ولا يخضعون لكل ضغوطه ويسيرون فى فلسفة سليمة فى حياتهم . الحياة « مركبة » ولا أقول « معقدة » الحياة مركبة وتحتاج الى صبر كثير والى ود واحتمال الناس بعضهم لبعض ، الحياة تتعقد اذا سرنا فى الطريق الخاطىء . فى الحقيقة هى مزيج من البساطة والتركيب ، العمل وعدم العمل ، ولكن متى تفكر بعمق ومتى تفكر فى استرخاء ؟ متى تعمل ومتى تتوقف ؟ هنا يدخل عنصر آخر ، عنصر ارشاد روح الله الذى يمزج الخليط معا بالمقـــدار اللازم . اننى أتذكر نفسى فى سنك ، كنت أعتقد اننى اتبع كل قواعد الحكمة ، ولكن اكتشفت انه ينقصنى بشـــدة شىء واحد ، الصبر . وذلك لاننى ضقت ذرعا بالقواعد الصارمة التى اعتقد بضرورتها للسير فى الحياة سيرا مثاليا حتى تحولت القواعد الصارمة الى سلاسل حديدية مكبلة وخانقة . وأخيرا قال لى انسان حكيم ان السر فى الحياة ليس هو الخطأ أو عدم الخطأ فقط بل هو ان تكون دوافعنا نبيلة

قائمة على محبة البشر ومحبة العالم الذى خلقه الله ، العالم الجميل وليس العالم الفاسد الساقط . هل تفهم ؟ كم عمرك ؟

أجاب بصراحة :

ـ نعم ، عمرى سبعة عشر فى الواقع .

ولكنه كان شديد التشكك .

انضمت اليهما زوجته . وقال نايجل .

ـ انك تتحدث عن محبة البشر ومحبة الله ، قرأت كتابا يقول كاتبه « ان الوقت قد مضى وان الفرصة قد ضاعت لنعيش » .

قالت زوجة الرجل :

ـ كلا هـــذا شيء لا نوافق عليه . انت طبعا تعرف ان ليس كل ما يقال صحيح هذه نظرة يائسة ساخرة .

قال الرجل :

ـ ان المحبة لا يقصد بها شيء لزج ضعيف مقزز . ان المقصود بها نظرة بناءة الى الحياة . شيء من الحماس . مزيج من الحكمة والحذر . مزيج من القوة واللطف ، ولا أقصد العنف . هذه الفكرة اليائسة فكرة غريبة حديثة .

والتفت لزوجته قائلا :

ـ هو يريد ان يصبح مخبرا سريا لتحطيم عصابات المخدرات فى أمريكا لو لم يستطع الحصول على منحة لدراسة التاريخ . كلا يجب ان تعرف ان هناك طريقا آخر أيضا الى قلب المجرم ، قد تظن قلبه قد تحجر ولكن ربما هناك نقطة صغيرة حساسة حية فى هذا القلب الميت هل قرات كتاب ....

وذكرت له كتابا عن رجل عمل وســـط عصابات المخدرات فى نيويورك وحدثهم عن الله وكان ما حدث يشبه المعجزات كل هذا فى عصرنا هذا . فى القرن العشرين .

قال نايجل :

ـ سمعت عنه .

لكن الرجل قال :

ـ أنا لا أريد تحويلك عن هدفك • انت انســـان ذو أفكار نبيلة وهناك ضرورة لوجود أناس أقوياء الشكيمة مثلك • قلت لى انك تعلمت « الكاراتى » نعم ، هناك ضرورة لأناس مثلك ليحموا الضعفاء • ولكن يجب ان يكون دافعـــك نقيا • هنـــاك أناس يفعلون ما تفكر فيه لكى يستخدموه كمخرج للعنف والحقد الذى يكمن في داخلهم • رجال الامن الذين من هذا النوع هم يشبهون الخارجين عن القانون الذين يتعقبونهم ولا يختلفون عنهم فى شيء • يجب ان تكون دوافعك نقية • أنت تعرف عن الفساد الذى اكتشف فى بوليس نيويورك وهونج كونج •

قال نايجل فى اصرار :

ـ اننى لا أعتقد ان هناك مهرب مخدرات يستحق الحياة • اننى استطيع أن أقتل بائع المخدرات دون وخز ضمير •

قالت زوجة الرجل وهى واضعة ذراعها حول ابنتها :

ـ كلا انت خاطىء •

قال الرجل :

ـ هو نفسه أقصد تاجر المخدرات قد يكون ضحية لنشأة سيئة فى طفولته • كثير منا ضحايا ومجرمون فى آن واحد • هل تفهم ما أعنى ؟

قال نايجل وهو يدلى باعتراف مفاجىء :

ـ هناك شيء هام فى حياتى • اننى أكره الجنس البشرى •

قالت المرأة وكانت قد سمعت عن هذه الفكرة وقرأتها فى الكتب :

ـ هذا شيء سيء •

قـــال :

ـ اننى لا أحتاج البشر • هم لا فائدة منهم لى •

سأله الرجل :

ـ ولكن هل يحتاجك البشر ، هل أنت تفيد البشر ؟

قـــال :

ـ ربمـــا •

فكر ثم قال وهو يعدل عن كلامه :

ـ الحقيقة اننى لا أكره كل البشر . هناك بعض البشر المحببين .

قال الرجل :

ـ يا نايجل . أعظم ما فى العالم هو المحبة لا الكراهية . هل قرأت كتاب أنور السبادات « البحث عن الذات » هو أيضا يقول انه اكتشف ذلك فى الفصل المسمى « الزنزانة ٥٤ » .

قال نايجل وهو يشعر بوخز الضمير ويفاتح الرجل والمرأة :

ـ كلا لقد فعلت أشياء فى حياتى لا أجرؤ ان أخبر بها والدى .

قال الرجل بسرعة وهو يحس بأنه يريد إن يزيح عن كاهله عبثا :

ـ مثل ماذا ؟ أخبرنا ؟

لم يكن هذا مجرد حب استطلاع .

قال نايجل :

ـ عندى قفاز به مســـامير حادة للدفاع عن نفسى حين أخرج فى المساء من « كليفتون » الى البارات . وكان هناك انسان مشاكس ضخم كثيرا ما يصطاد الضعفاء ليضربهم ويخبطهم يمينا وشمالا . وانا قد تعلمت « الكراتى » واصطادنى ذات يوم . أخطأ واختار الشخص الذى لا قبل له به . أنا . وأخرجنى من البار . هو فى الخامسة والثلاثين . وحدث كل شىء فى ثوان . لبست قفازى ولكمته فى وجهه على الناحيتين وألقيته على الارض . يقول اصدقائى الذين رأوه بعد ذلك ان النصف اليسار فى وجهه غير موجود بينما نصفه الايمن كان قبيحا من قبل ان يحتك بى .

كان هذا اعتراف نايجل .

قالت المرأة :

ـ أنا تمردت على أهلى وشبابى فى مدينة برمنجهام وتعاطيت الحبوب المخدرة وشربت فى البارات والحفلات .

قال الرجل :

ـ لقد فعلتها دفاعا عن نفسك أنت .

قالت المرأة :

ـ أهلي لم يكن لهم مبادىء سوى مبادىء المجتمع المادية يجب على الأهل أن يعطوا أبناءهم فهما وقيما فى الحياة · لا جدوى من هذا كله ·

قال الرجل :

ـ أنت تختلط بكل الناس ولا تتفادى الصنف العاتى العنيف ·

قال نايجل :

ـ فعلتها دفاعا عن نفسى عن حياتى · كان الخيار بين أن أحافظ على حياتى أو ان أوقف الرجل عند حده وهذه كانت الطريقة الوحيدة ·

قال الرجل :

ـ نحن نفهم مشكلتك · ولكن نصر ان نخبرك بأن هناك انسان قد يكون سجانا ولكنه فى نفس الوقت لا يكن كراهية للمجرمين الذين فى حوزته ·

قالت الزوجة :

ـ هل سمعت عن المجرم الذى كان فى سجن دارتمور أعنف سجن فى انجلترا وكيف تغيرت حياته ·

قال نايجل :

ـ كلا · قصة غير مشهورة · العالم يحتاج الى رجال أقوياء يصنعون الخير ويدافعون عن الضعفاء · ولكن لا يجب التوقف عند هذا الحد السلبى· هناك آخرون وظيفتهم الوصول الى روح هؤلاء العتاة بل واحياءها بمعجزة من الله ·

قاربت الباخرة الوصول الى « ويموث » وقال الرجل ·

ـ أعطنى رقم تليفونك ، هذا هو رقم تليفونى · نريد ان نظل على اتصال أحدنا بالآخر · وربما نتقابل فى « برستيول » ونتبادل الكتب أيضا ·

وتبادلا رقمى التليفونات وقالت البنت الصغيرة التى انصتت لكل شىء :

ـ نايجل هذا ، هل هو طالب فى مدرسة أم جامعة ؟

قالت أمها :

ـ فى مدرسة ·

انصرف نايجل مع صديقه الغنى الصامت الذى بدأ يصحو قالت الأم مضيفة :

ـ نعم ، انه فتى طيب ·

حكى الرجل القصة عند عودتهما « لجلوستر » لابنة صديق له مراهقة اجتماعية جدا فقالت فى دهشة :

ـ كل هذا حدث فى أول مقابلة على الباخرة ؟

قال لها :

ـ نعم · ما المانع ؟ ،،،

المـــديـــر

الله هو المدير ، لكن « أبو الروس » الفراش بالمؤسسة التجـــارية المتحدة يقول ان المدير ٠٠٠٠ مدير المؤسسة المتحدة هو الله وانه لا يعرف غيره الها • فالمدير هو ذلك الرجل ذو النفوذ الأكبر الذى توســط لديه قريبه « المصراوى » لالحاقه بالعمل عقب أن جاء من القرية خاما حرا •

وكم من مرة طلب من « أبو الروس » أن يتقى الله وأن يعمل بهمة وضمير وأن لا يخشى الرؤساء فقط لكنه دائما يضرب بهذه النصائح عرض الحائط ، فتلك مجــرد محاولات لحمله على العمـــل وتخفيف العبء عن الآخرين وكل واحد يقول « فقط يا نفسى » • فاذا أشتد النصـــح حتى صار تعنيفا كان العناد يركبه ، فيسعر خده ويقول عبارته المشهورة •

واليوم سرت أنباء أن المدير سينزل من الدور السابع ليتفقد الأقسام والجميع إلآن يستعدون لظهوره ، لذلك تحرك أبو الروس من مكانه ففارق عجزه المقعد وأعاد لمس المكاتب والكراسى وكل شىء بريشبة التنظيف مثنى وثلاث ، ولما أراد أن يعـــود ليقف فى مكانه لم يستطع الا بعد أن قام باللمسة الرابعة وحين ذاك فقط اســـتطاع أن يقف أمام حجرة رئيس القسم •

سأل أبو الروس نفسه : ما شكل المدير ؟

لم يكن أبو الروس قد رأى المدير قط ، فأعـاد السؤال على من حوله ، لكن أحدا من زملائه لم يأبه أن يأتيه بوحى جواب • هنا انقلب متهكما على سؤاله بسؤال : وهل له شكل على الاطلاق ؟

رغم هذا عاد يحاول أن يتصور مشيته أو شكله أو نظراته : ياترى هل دماغه كبير حتى يتسع ليعرف كل ما يدور فى أقسام الشركة ؟ وما دام يعرف كل شىء فلماذا التفقد ؟ أليرى المكاتب ومن فى المكاتب ؟

هـــل قال ليرى ؟ .. تحسس أبو الروس جلبابه بيديه الاثنتين ، ثم أحاط طربوشه بكفه من الخلف واطبق عليه من الأمام باصـــابع كفه الأخرى وكبسه مميلا أياه على جبهته زيادة فى التأنق ، ورفع رأسه ودفع صدره فى ثقة لا حد لها .

مضت لحظات ثم مر أمامه رجــل عادى يســير ببطء ويلقى نظرات عابرة على هذه الحجرة وتلك فراقبه أبو الروس من مكانه وتركه يمضى فى سبيله .

ترى هل سيأتى المدير مع ســـعاته ... وسكرتيريه ؟ أم سيأتى متنكرا فى زى الناس العاديين ؟

عاد الرجل بعد برهة ليقف أمام « أبو الروس » فاغتاظ وقال له وهو يلاحظ آثار حذائيه المتربين على الأرض : تفضل يا أستاذ ، ولا داعى للوقوف هنا ..

لكن الرجل نظر نظرة تساؤل وحرك راســـه حركة لم يستشف أبو الروس لها معنى فصاح : قلت لك ان لا شغل اليوم هنا ... هنـــا اليوم مدير .

مدير !!!!! نعم ، ولم لا ؟ ... لقد كان يسير الهوينى بينما الكل يعدو ، وينظر بتمعن وهدوء والجميع زائغو البصر ، فلم لا يكون هو ؟

ارتج القول على « أبو الروس » تعثر فى الجلباب الأبيض .. سقط طربوشه من على رأسه . انحنى ليلتقطه وهو يتلعثم .. وعبرت مخيلته صورة رقبته الممدودة ويد « المدير » تنزل عليها ، فاعتدل لتوه .. ولم يكمل انحناءه وهو يردد القول : « لا مؤاخذة يا سيادة المدير ... متأسف يا سعادة المدير » وطربوشه يتدحرج .

لما استقام أبو الروس بطوله كان الرجل عاديا أمامه بصورة مذهلة ورأى شعار المؤسسة أمامه بوضوح : « نحن فى خدمتك » . وتذكر أنه انتهر الرجل وطرده . وفتح « المدير » فاه ليتكلم فاستسلم لســـاعة الحساب : « أنا أنا ... لا شيء » . أنا عاطل وابحث عن شغل .

عاد الدم المحبوس يجرى فى عروق « أبو الروس » وأحس بذلك ، فأشاح بوجهه عن الشاب الذى كان يربت على كتفه مهونا . ولما جلس على مقعده ليلتقط أنفاسه لحظ حذاء الشاب المرقع .

جلس « أبو الروس » وصـــدره يعلو ويهبط تحت جلبابه وكانت جلسته بجوار زميله بشير فراش الردهة المجاورة ، فغض عنه النظر لأنه كان قد رأى كل ما حدث له مع الهه المزعوم وهو بواحد من أخطائه وذنوبه العديدة ٠

كان أبو الروس يعى هذه الأخطاء لكن كرامته واعتباره كانا يمنعانه من البوح بسببها لأحد ٠٠ وهكذا ظل السر حبيس صـــدره بدون أن يعرفه أحد ٠ فكيف يمكن لأبو الروس أن يسأل عن ذلك الورم فى نهاية عظم عموده الفقرى ؟ ٠ ورم فى عظم العمود ! هل هذا شيء معقول ؟ ورم فى العظم ! سيتهمونه بالسذاجة ويضـــحكون منه حتى يسقطون على أقفيتهم ٠

نزل المدير بعد لحظات ووجد أبو الروس نفســـه وجها لوجه أمام المدير وحاشـــيته ٠ وقف بشـــير وعيناه منخفضـــتان بعد ان أدى التحية اللازمة أما أبو الروس فوقف متفرســـا فى وجه الرجل وهو لا يقدر أن يحول عينيه لحظة واحدة ، وقد نسى تماما أن يؤدى التحية ٠

ابتســـم المدير مشـــجعا ، وتحرك شيء فى نفس « أبو الروس » ، حركته الابتسامة والوجه الصبوح وأطارت لبه الياقة المنشـــاة ، فقال بلهجته الريفية : يا حضرة المدير ، أنا عندى ورم فى ظهرى ، فى نهاية العمود ، فى العصعصة ، رجاء عدم المؤاخذة ٠ هل هذا جائز ؟

رد المدير وهو ينظر اليه بعينين صغيرتين خلف زجاج النظارة ذات الاطار الأسود السميك : طبعا يجوز ، هذا يؤثر على عملك بالطبع ٠

نعم ٠

أفلتت ضحكة مكتومة من الخلف ، لكن المدير لم يلتفت ، وتعرف أبو الروس على صوت بشير ٠

التفت المدير الى أحد سكرتيريه : طيب ٠ ســـأكتب لك بنفسى الى طبيب المؤسسة ليزيل لك الورم ٠ تعال غدا الى الدور السابع لأخـــذ الخطاب ٠

انفرجت أسارير « أبو الروس » مرة واحدة وسمع كل الموظفين حتى الواقفون منهم بعيدا صوته وهو يقول :

صدقنى انك أحسن مدير ٠٠ وربك أحسن رب ، يا ســـعادة المدير ٠

الإيشارب الآخر

« لن يتزوجني أحد ، ولن يكون لي طفل ، فمثلي لا ينجب ، هذا كل شيء » ٠

بهذا كانت بيتينا تتحدث لأختها ماريا ، وهي تدفعها لمقابلة الشاب الأسمر الممتلىء ذي الشارب ، وهو يقبل ناحيتها بجوار دراجته ٠ وسرعان ما ركبت خلفه أختها وغابا عن الأنظار ٠

لم تكن بيتينا تندب حظها ، كما لم تكن تحذر أختها ٠ كانت فقط تكلمها بما تعرف ، وهي لاتعرف الكثير ٠ لذلك كان حديثها في كل ما تعرف ، في أي شيء وفي كل شيء ٠ هي تعرف على وجه اليقين أنهما جميلتان جدا ٠ وبيتينا نفسها لم تخرج الى الشارع في الاسماعيلية الا حين بدأت تظهر على والدها الريس الجريجي في المحطة البحرية علامات الجنون وبدأ يهيم على وجهه في الشوارع ويسير في رداء من الخيش ٠ لم تخرج الى الشارع لتمارس مهنة بل لتتسلى وتخرج من جو المنزل الكئيب التعس ٠

أمها قالت يوما « لا ملابس جديدة ٠ النقود نفدت ٠ المعاش انفقناه ، أكلناه ٠»

طلب منها زكي القياس على المراكب في القنال أن تخرج معه فخرجت وذهبا معا الى النادي ٠ كان أول مصري تجلس اليه من مدة طويلة ٠ في النادي انضم اليهما عزيز صديقه ولم يعترض زكي ، ألقى عزيز بعض الدعابات على ابنة البحار فضحكت عاليا وطويلا ٠ طويلا جدا ٠ نسي عزيز نفسه ، ارتاح زكي حينما سأله عزيز أن يخرجوا من النادي وتركهما يخرجان وبقي وحده ٠ لم يخرج معها بعد ذلك تفاديا للفضيحة بين زملائه ٠ أما هي فذهبت الى الشاطىء مع عزيز ٠

كانت ماريا تدرك شيئا من الفارق بين عزيز وبين أولئك الشبان الوقحين الذين عاكسوها أمام محل عصير القصب ذات يوم · أحدهم شدها بقسوة من ذراعها · لكن واحدا منهم أعجبها شكله وكان حليق الرأس أسمر قصيرا ممتلىء وأنيقا ، فلم تجد في الأمر غضاضة وخرجت معه في شارع « الثلاثين » المزدحم · كل البلد تقريبا رآتها هناك · كانت فخورة · وقال لها أيضا ان كل هدومه من سوق غزه الحرة ومستوردة · قال ان اسمه مسعود ·

لما أحيل البحار اندرياس الى المعاش من عمله تقدم محمد مرسى أكبر العاملين فى « المارينا » للوظيفة · اجتمع البحريون اليونانيون فى شركة القنال فى قهوة المثلث · قابل بعضهم محمد مرسى · قال له بابا دوبولو زعيمهم وحوله رجاله فى فانلات زرقاء برقبة وبلوفرات صوفية · أرسلنا فى طلبك يا محمد لانك صديقنا · انت تعرف أن هذه الوظيفة لنا وحدنا · ولكن لو آخذت مكان اندرياس فلن نجد مفرا من قتلك · ونحن لا نريد أن يحدث هذا لك ·

نظر محمد مرسى الى أقداح البيرة وفناجين القهوة التركى الدقيقة وأكواب الماء المثلج وهى تملأ المنضدة ثم نظر الى عيونهم المترقبة وبعض الشوارب السوداء الكثة · كان كل شيء هادئا والحديث يدور فى ود غريب · عدل محمد عن طلب الوظيفة ، وبعد أيام ظهرت نتيجة ابنه شافعى ورسب · أوقفه عن الدراسة وألحقه بورشة سيارات الأسطى عبد الحميد عنان ونسى حلمه أن يدخل ابنه الجامعة يوما ·

لا أحد يستطيع ان يتعرف على حقيقة ماريا لأول وهلة اذا رآها جالسة مع أختها فى مقهى « الأريزونا » فى هدوء · فهى ذات شعر أشقر وجسمها يوحى بسن أكبر من سنها الستة عشر وذات جاذبية شديدة · وحتى اذا تكلمت لا يمكن اكتشاف أمرها بسرعة ، فهى حين تتكلم تتودد وتفيض بودها على من أمامها حتى يختلط عليه الأمر فلا يتعرف على سذاجتها بسرعة · أما حين تقف لتتحدث مع صاحب مشغل للتمرين عنده ، وكثيرا ما تفعل لأنها لا تمكث طويلا مع أختها فى مشغل واحد ، فهى تبدو قلقة غير فاهمة لما يقوله لها ، تحرك قدما بعد الأخرى ولا تقف فى مكان · أمرها ينفضح بعد قليل حين تسير فى خطوات متعرجة وجسمها يتمايل بلا سبب · كذلك حين يخطر ببالها اخراج لسانها لفتى يمر فى الطريق ، وكثيرا ما يحدث ذلك ·

ركبت ماريا الدراجة خلف الشاب ذى الرأس الحليق حتى وصلا الى محطة القطار ، وهناك سلم الدراجة الى صديقه . عرفت فيه ماريا الشاب الذى شدها بقسوة من ذراعها ، لكنها لم تهتم . وركبت ماريا القطار الى النزهة الموعودة . سار القطار فى صحراء الاسماعيلية ، حتى وصل الى محطة معسكر فايد . نزلا وسار معها جهة المنزل الذى يسكن فيه . وصلا الى شارع رملى . دخلت وجدت نفسها فى صالة ضيقة ، وفتحت بابا لترى الحجرات الأخرى فلم تجد غير المطبخ . الشقة كانت أضيق من بيتهم الضيق فى الاسماعيلية . لم تكن هناك أبواب أخرى . مرآة كالحة فى الصالة وأريكة من القش بجوار النافذة وكرسيان ماركة « الظايط » ، دولاب منفرج الضلف وبدون أقفال . منضدة صغيرة . لسبب ما أعجبها كل هذا . خرج هو ليشترى طعاما .

جلست على الأريكة بجوار النافذة ترقب الغادين والرائحين . لاحظت أن الناس ينظرون نحو المنزل . مدت رقبتها خارج النافذة ونظرت الى الحائط علها ترى ما يجذب الأنظار . لم يخطر على بالها قط أنها هى محط الأنظار . وجدت على الحائط كتابات الفدائيين القديمة ضد الإنجليز ورسم عسكرى انجليزى مشنوق . لم تفهم الكتابة لكنها ظنت أنها اكتشفت ما يجذب أنظار الناس . سعدت بذلك وابتسمت لنفسها ببله . شبان صغار ثلاثة ابتسموا لها ووقفوا تحت النافذة يفكرون ويحاولون محادثتها . قامت معركة فجاة فاغلقت الشباك دون أن تلتفت وترى مع من يتشاجرون . بعد دقائق عاد اليها مسعود منتفخ الأوداج ، وعلى أنفه خدوش . قال لها انه ضرب ثلاثة شبان . فهمت أنه هو الذى تعارك معهم . ثم صاح فيها وضربها لأنها تحدثت اليهم ، فذهبت الى المطبخ لتطبخ .

انطلقت بالكلام أمام مسعود وهى تضع الأطباق على المنضدة . اننى لست مثل أختى بيتينا ، حين جن أبى كانت بيتينا تخرج مع ولد ، ابن « المتردوتيل » الطليانى أمام منزلنا . ثم انتقل البيت كله الى شارع « الكاشوطية » حيث الايجار جنيهان فقط . المساكن فى هذا الشارع يعلو الصراخ فيها دائما . وبيتينا صرخت لأول مرة فى أمنا حين قالت أمى أنها ستشتغل فى بيت أحد المصريين . وفى اليوم التالى ذهبت بيتينا وأمضت الليلة مع عزيز . فى الصباح شدتها أمها من شعرها وعاد الصراخ . أسرعت أنا وأغلقت النافذة . وصاحت بيتينا « هل انتظر حتى يموت فنجوع ؟ » سكتت أمى وكادت تبكى لكن بيتينا قالت « صوفيا

أيضـــا تجولت فى الشـــوارع عارية وارتدت الخيش وماتت ، وهــو سيموت » ٠

سألها مسعود فى غير مبالاة ٠ « من هى صوفيا ؟

أجابت ٠ « صوفيا هى أختنا الكبرى » ٠

سألها : وماذا ردت أمك ؟

قالت : جلست الى المنضدة ٠ هزت رعشة يدها المنضدة ٠ وجلست فى فجـــوة فى قش الكرسى ٠ لكنهـــا لم تبك ، كلا ربما بكت ولكنى لا أتذكر ٠ لم تســـتطع الخـروج من فجـوة الكرسى وحـدها ٠ كانت نحيفة جدا ٠

وضعت ماريا أول ملعقـة أرز فى فمهـــا وقالت : أنا مؤدبة ٠ لا أذهب الى بيت أحد ٠ فقط أدخل السينما ٠

ضحك مسعود فى قرارة نفسه ٠

ــ ٠٠ أو نتجول فى الشوارع أو نجلس فى الكازينـو للتسلية ٠ تضايقنى الزبـالة أمام البيت ٠ دائمـــا يلقون الزبالة أمام بيتنـــا ٠ « الكاشوطيلا » دائما يصرخون ، كلهم من جزيرة واحـدة فقيرة جدا ٠٠ فى اليونان ٠

ــ فاهم ٠ وماذا عن هذه الشقة ؟ هل تعجبك ؟ هل تحبين البقـاء فيها طويلا ؟ نظرت اليه والفاصوليا الخضراء تملأ فمه وسألته غير فاهمة ٠

ــ نعم ٠ لكن نحن فى نزهة أليس كذلك ؟

ــ كلا ٠٠

قالها فى تجهم ٠ فى لحظات نادرة يتمنى مسعود لو أنه يستطيع أن يتزوجها ويحبسها ٠ جسمها مذهل وهى طيعة جدا ، لكن عقلهـا الخفيف يؤرقه أحيانا بشدة ٠ لكنه قال لنفسه انه لا يستطيع أن يعيش سجانا طوال حياته ٠ أصدقاؤه اقترحوا عليـــه ساخرين أن يتزوجهـا وتندروا فى الأمر لربع ساعة ، دون أن يعرفوا ما كان يدور فى خاطره ، بعد ذلك أدرك جنون تفكيره ٠

فى المساء سألته حين واتتها الفرصة فى لغتها العربية المتكسرة :

ــ ألا نعود الآن ؟ أليس الوقت متأخرا ؟

ــ لا ٠٠ ستبقين هنا معى بعض الوقت ٠٠

ثم قال في وصوت خفيض : حظك سيء يا ماريا ٠

ـ الى متى ؟ الى متى سأبقى معك ؟ أمي لا تعرف أين أكون ٠

ـ أسبوع ٠٠ عندى شغل ٠٠ لا أستطيع ترك الشغل ٠

صعقت وفتحت فاها وأطلقت شهقة صغيرة ثم أغلقت فمها بيدها : اسبوع !!! سأهرب ٠٠ هل أنا جننت حتى أعيش مع انسان غريب ؟

تقدم مسعود نحوها في سكرن ٠٠ أرقدها على الأريكة ٠ كان في يده مقص ٠ هجم عليها به وأخذ يعمله في شعرها ٠٠ صرخت فصاح فيها : لا تتحركي ٠ ستجرحين نفسك ويسيح دمك أو تقطع أذنك ٠

قالت في ضعف : لا ٠٠ لا تقطع أذني ٠

الخصلات الشقراء انتشرت على الأرض البلاطية والحصيرة الرخيصة ٠ نحى المقص جانبا ولكنه أبقى ذراعه على كتفها ٠ انتظر صراخها حين اتجهت الى المرآة ٠ استعد لذلك باغلاق النافذة ٠ بقيت في مكانها لحظة وهي تنظر لشعرها على الأرض في شيء من الحسرة ٠ شهقت وهي تنظر للمرآة ، ثم التفتت اليه بهدوء شديد :

ـ انت تعمل في المعسكر ٠ هل عندكم مجندات قصيرات الشعر مثلي ؟

ضحك وقال : كلا ٠٠ الانجليز فقط كان عندهم مجندات قصيرات الشعر ٠

ثم أردف في مزيج من السخرية والأسف :

ـ أنت لا تعرفين كيف تحمين نفسك يا ماريا ٠٠ يضحك عليك بسهولة ٠٠ دعيني أرعاك ٠

كان يعرف جيدا أنه لايستطيع أن يقول هذا أمام أصدقائه وانه لا يمكنه أن يسمح لنفسه بالتعبير عن الأسف على ماريا أمام أحد ٠

عادت تنظر الى المرآة الكالحة طويلا وهي تكاد تنتحب :

ـ في السجن يقصون شعر النساء هكذا ٠

ـ نعم ٠ لماذا ؟

جلست مكانها ووضعت يدها على خدها ثم تحركت مبتعدة عن النافذة حين خشيت أن الناس ينظرون اليها من الشارع غير المأهول ٠٠ بعد لحظات قامت واحضرت مقشة تكنس الأرض ٠

ثلاثة أيام مضت ، امتلأت بعدها ماريا ضجرا ووجعا وأصبحت تتمنى العودة بشدة ، خاصة وأنه لم يكن في الشارع محل للآيس كريم. مسعود خرج الى الشغل وترك لها عشرة قروش وفتحة مربعة في النافذة . لكنها خشيت الخروج والهرب ولم تعرف كيف تعود . ليس معها أجرة القطار والمارة يطلون على البيت في الصباح والمساء . مسعود خبأ الملابس. لكن لا أحد يعاكسها الآن . بحثت في البيت . وجدت الملابس في دولاب في المطبخ ، ولكنها لم تجد الايشارب لتغطى به رأسها وشعرها المهوش. لم يكن قد حلقه كله .

ـ لابد ان أشغل مخي . لا يمكن أن أقفز من فتحة النافذة ، لكنني ساقفز فوق الحائط الخلفي . لابد من ركوب قطار المساء . لكن يجب أن يراني مسعود في آخر لحظة في المحطة ويرق لحالي ويركب ورائي حتى يدفع لي أجرة القطار .

عادت وفكرت في خطـة أخرى . ستتوجه الى المحطة وتختفي عند بائع السجاير في الكشك . وستعطيه ما يشـاء من جسدها بعد ما فعله مسعود بها . سيعطيها لابد أجرة القطار . لا بأس اذا كان مسعود يتبعها أن يركب القطار ويصحبها الى الاسماعيلية .

لو لم يحلق شعرى . ماذا سيظنون بي الآن ؟ هاربة من السجن ؟

جلست ماريا فوق الأريكة قرب النافذة وخدها على ركبتهـا تتأمل الدكاكين الصغيرة الثلاثة أمامها قائمة في الخلاء وخلفها السماء والصحراء . محطة القطار في الطرف الآخر من المدينة .

توجهت فتاة صغيرة الى الخردواتي وعادت بحلوى في يدها تلحسها وتتسكع تحت نافذة ماريا .

السباك يطرق ماسورة .. رفعت ماريا صوتها :

ـ اسمعي يا شاطرة .

رفع ثلاثة رجال عند البقال رؤوسـهم .. نظرت الفتـاة الصغيرة الى فوق .

ـ ممكن تسألي البقال ان كان يبيع ايشاربات ؟

بنظرة واحدة سارت الفتاة عبر الشارع الرملي الى الخردواتي بدلا من البقال ، وهي لا زالت تعبث بورق حلواها . قالت ماريا لنفسها :

ـ انها فتاة طيبة ٠

استرجع الخردواتي كلام الفتـاة ٠ عرض ابن الخردواتي أن يذهب بنفسه ثم تراجع أمام نظرة واحدة مؤنبة من والده ٠ كان يريد أن يلمس ذراعي ماريا وأكثر ان أمكن ٠ أخذت ماريا تلوح وتشير اليه بذراعيها ٠ مال الرجل الى يمينه وأحضر صندوقا من الأرفف ٠ عبرت الفتاة الشارع في تثاقل ومعها ايشارب ٠

ـ انت فتاة طيبة ٠ كم ثمنه ؟

ـ بكم تريدينه ؟

ـ بريـال ٠

ـ هو موافق على هذا السعر ٠

تأملته للحظات طويلة ثم عادت وناولته للفتاه مرة أخرى بأطراف أصابعها ٠

ـ لا ألوانه بلدي ٠ لا أريده ٠ لكن قماشه حلو ٠ قولي له هذا ٠

عبرت الفتاة الشـارع بنفس الهدوء والرتابة ٠ وعادت وسلمت الايشارب لابن الخردواتي ٠ صاح ابن الخردواتي : ولاد كلب كفره ٠

سمعت ماريا ابن الخردواتي ولكنهـا لم تتبين الشتيمة ٠ أحست بالجوع ٠ جعلت الفتاة تشتري لهـا حلوى ٠ جلست وهي تتمنى لو أنها تعرف أحدا في ذلك المكان ٠

وقفت عربة لوري ضخمة أمام الدكان وحجبتها عن ماريا ٠ نزل السائق واشترى سجاير من ابن الخردواتي ٠ عاد الخردواتي من مشوار ورحب بالسائق ٠

ـ أهلا شافعي ٠ أين كنت في هذه الغيبة الطويلة ؟ كيف حـال أبوك محمد مرسي ؟

ـ أبوي عجز ولا يخرج كثيرا ٠ كلا ٠ ربما هي مجرد وعكة ٠ كنت في أسـوان ٠

ـ لا بأس عليه ٠ ربنا يشفيه ٠ أسوان ؟ هل أنت عائد في أجازة ؟ لماذا لا تأخـذ الولد ابني معك ؟ الحال ليس على ما يرام ٠ لا أريـده أن يصبح خردواتي ٠

ـ لا · لقد نقلت الى المشروع فى الاسـماعيلية · لو كنت عائدا الى أسوان لأخذته ·

ـ الاسماعيلية · آه · عندنا واحدة هنا أمامنا من الاسماعيلية ·

وأشار بسبابته الى المنزل مرتين ·

ـ من الاسماعيلية ؟ ماذا تفعل هنا ؟ متزوجة ؟

قال الخردواتى بصوت خفيض :

ـ لا ·· مسعود ·· الواد مسعود أحضرها معه · هو موظف فى المعسكر ، وتعارك مع ثلاثة عيـال بسببها وضربهـم · نحن لا نريد دوشـة ·

ـ وأين هى الآن ؟

سأل سؤاله ونظر الى النافذة ·

ـ لاتظهر من يومين · اثنان من المباحث الحربية جاءا ثانى يوم من المعسكر لكنهم قالوا انها معروفة فى الاسماعيلية ·

ـ وهل رحلت ؟

ـ لا ·· ولكن يبدو ان هناك فى لأمر شيئا · هى جريجية ·

سأل شافعى فى جذل :

ـ قتلهـا ؟

ـ لا ·· لا ·· يبـدو انه جز شـعرها ·· خواجاية · شـعرها أصـفر ·

ـ خواجاية !!! ·· لابد من « الكاريهات » ، لم يعد فى الاسماعيلية خواجات ·

جلس شافعى على صندوق غازوزة ، يدخن ويشرب شـاى أسود وقد تبخر اهتمامه تماما ·

ـ خذها معك ·

نظر شافعى الى الخردواتى وجهـا لوجه وارتفع حاجباه بدون تعبير · كان على وجه الخردواتى ابتسامة وشبه توسل ·

ـ خذها معك · ينوبك ثواب من عند ربنا ·

ظهرت ماريا خلف النافذة لبرهة قصيرة • لمحها شافعى وعرف أنها ابنة البحار أندرياس الذى هدد اليونانيون والده بالقتل لو أخذ وظيفته الخالية • بدا شكل ماريا مضحكا له بشعرها المجزوز ، لكن ماريا لم تتعرف عليه • لم يتحرك فى شافعى أى احساس • نهض بعد كوب الشاى واستأنف رحلته بعربة اللورى وهو لا يحمل فى داخله أى حقد أو اتفاق • أدار الراديو وأخذ يستمع لعبد الحليم حافظ وهو يغنى •

استقبلت بيتينا اختها الصغرى ماريا عند عودتها فى نهاية الاسبوع بالأسئلة الخاصة عن كل التفاصيل • عشرات من الأسئلة ألقتها عليها طوال ذلك المساء • فكلما تذكرت سؤالا عادت فسألتها اياه •

وفى الصباح التالى ، يوم الجمعة كانوا جالسين الى مائدة الطعام حين سألتها بيتينا بينما ضجة فى الشارع تصل لأسماعهم :

ـ لماذا لم تهربى بالايشارب الذى كان معك فى شنطتك ؟

نظرت ماريا اليها باستنكار وصاحت :

ـ مسعود خبأه أيضا أو مزقه • وكانت معى نقود لكن الايشارب الذى كان عند الخردواتى ذوقه بلدى خالص ، أخضر فاقع وأصفر فاقع •

تكرر فى الشارع رنين جرس ، ولم يلتفت أحد اليه وسط الضجيج وصوت الراديو يذيع ألحانا على « البوزوكيس » سمعت نقرات على الزجاج فنظرت ماريا ورأت الرأس الحليق والوجه ذا الشارب يبتسم لها ويدعوها لتخرج • لم تستطع أن تقاوم • كان قد أخبرها عن بلوزة سيشتريها لها من بضائع غزة • قامت أمها وتوجهت الى المطبخ •

قالت بيتينا لها محذرة وهى تحس بنفسها كأم عجوز حكيمة :

ـ لا تركبى معه القطار •

أومأت ماريا رأسها بالايجاب فى تعقل شديد • ثم خرجت وركبت الدراجة معه •

نزهـــة فى المقطـم

معجزة المعجزات • أخي تزوج أول أمس بـل وطلب من صـديقه صفوت الدعاء له بالتوفيق • ولنبدأ القصة من أولها :

قال لى أخي فى المساء • وهذه هي مذكرات اليوم الذى مضى عليه أكثر من عام •

ــ استعدى لأننا سنذهب فى رحـلة الى جبـل المقطم مع صديق طالب من كلية الصيدلة فى الصباح • لقد اقترح على رحلة غير الرحلات التى تذهب اليها كل الجماعات عادة • تعجبت قليلا لأنى لا أعرف ان أحدا يذهب فى رحلات الى الجبل الذى يردم القاهـرة بالتراب حتى ان اخوتى يغيرون قمصانهم كل يوم من قذارة الياقات • المقطم ليس مثل الجبل فى بيروت وأرزه • لم أناقش أخي وراعيت ألا يرتفع حاجبـاى بالدهشة • انا لا أناقش أخي فى شيء واثق فيه ثقة شبه عمياء ، فانا صغيرة السن •

فى الصـباح كنا واقفين عنـد رأس الطريق عنـد كوبرى الملك الصالح ، حينما أقبل صديق أخي ، ولاحظت على وجهه شيئا من الدهشة عند اقترابه منا ، لعله لم يصدق وجودى ، فقـد استدار أخي قليلا وابتسم ابتسامة خفيفة • لابد انه لم يخبر صديقه بعزمه احضارى • الأولاد والبنات لايخرجون معا عادة فى عائلتنا أو مع الاغراب • مجلة صباح الخير تتحدث عن هذه الأشـياء لكننا نتحدث عنها أو نناقشـها فقط ، وانا دائما اتخذ موقف المستمعة • انا لازلت اتلمس طريقى فى الحياة فعمرى لا يزيد على السـتة عشر عاما ، ولهـذا انا قليلة الكلام وخجولة نوعا • لم يسبق ان تحدث أخي عن صديقه هذا الينا •

قدمنى أخي لزميله ــ أو صـديقه ــ قائـلا ونحن واقفين تحت الشجرة الضخمة للتين البنغالى :

ـ صديقي صفوت · من كبار المعجبين بشــجر « أم الشعور » هذا الضخم ، وسيقانه الهوائية ·

كان صفوت ملتحيا لحية صغيرة لكنها ظاهرة لأن اللحية شيء غير عادي هذه الأيام وعيناه بنيتان · آنا عينـــاى خضراوان · لكن أنفى معقوف قليلا ولست جميلة لكن يقولون عنى انى جذابة · عبرنا كوبرى الملك الصالح ، الصغير ، واتجهنا جهة مصر القديمـة · سار أخى بيننا كما توقعت وآلة التصوير تتأرجح بجواره وحبلهــا مدلى من كتفه · بدأنا رحلتنا لنمر بمدينة الفســطاط أولا ، هكذا قال صفوت · سرنا بجوار جامع عمرو وعبرنا الميدان الواسع حتى وصلنا الى أفران الفخار ، والدخان يتصــاعد من الشقوق فى غطائهــا الطينى · قال « هذه هى القللية » ، حيث يصنعون القلل · تركنا الطريق الأسفلت المتحضر عند حافة القاهرة ، وسرنا على التراب جهـــة بعض الأقبية الطينية · قادنا صفوت الى احدها · هو يعرف المنطقة جيدا رغم انه يسكن بجوارنا فى منطقة القصر العينى بجوار قصر الأمير محمد على ذو اللحيـة البيضــاء وهو عم فاروق ، وعمارة الهامى حسين التى بناها فافســد على الأمير خلوته وجولاته فى حديقة الصــبار المشــهورة مع محظيته · اجتزنا قبة من التراب وأخـرى ثم انحنينا للبــاب الصغير وولجناه الى الداخل · فوجئنا بشبه ظلام تام لكن عيوننا تعودت عليه سريعا وأبصرنا تدريجيا مئات من أصص الزرع ومئات من القلل والآنيـة متراصة بعضها بجوار بعض وبجوارها فى حوض كبير كانت العجينة المبتلة الرخوة اللامعـة الترابية اللون التى خلقت منها تلك الأوانى · حيــا أخى وصفوت شابا قابعا بالداخل ورد الشاب التحية كأن المكان ليس مكانه ، ثم عــاد الى عمل الأوانى على عجلة الفخار فى هدوء شديد · جو بدائى جدا جدا · جو مختلف عن الحياة فى القصر العينى والترام والتليفون والراديو ·

تبعنا طفل كان يقفز فوق تلال التراب حتى لحق بنــا ، قال عن العجينة :

ـ انها هنا لتختمر ·

قالها فى حماس ونشاط · لحظت ثقبا صغيرا فى جلابيته · كان حافيا لكن ملامحه تشع بالذكاء الفطرى والسرور الهادىء ·

هز أخى رأسه فى تؤدة للولد ثم التفت الى صفوت وقال فى جــد شديد وتفكير :

ـ هل خلق الانسان في حوض عجينة مثل هذا ؟

نظر صفوت الى أخي قليلا ، لكنه لم يرد على السؤال • تمنيت ان اعرف فيم يفكر لكن هذا شيء غير هام • كثير من أفكاري تدور حول أشياء غير هامة • أحيانا اتساءل ما هو المهم وما هو غير المهم ؟

قال أخي :

ـ لعلهم هنا يشعرون بقيمة خاصة لأنفسهم لأنهم يعملون بالطين الذى تقول الكتب ان الانسان خلق منه • هذا طبعا كلام ينافي العلم ونظرية التطور • هذا كلام تخلف •

قال صفوت متفاديا المناقشة :

ـ ربما • لكنهم هنا أناس بسطاء فكرهم مشغول بلقمة العيش • وحتى لو كانت لهم أفكار وتأملات عميقة فمن الصعب علينا اكتشافها لأننا أفندية نرتدى الملابس الأفرنجية وهناك نوع من التهيب وعدم الألفة • مرة واحدة فقط تحدثت حديثا طويلا الى تربى بأحد مقابر الكنائس الأثرية القديمة هنا عن الحياة والموت • الألفة تحتاج لوقت •

اعتادت أبصارنا الظلام ولمحنا غلاما آخر جالسا أمام عجلة فخار أخرى في آخر القبو ، خطونا نحوه كانت قدماه تحركان العجلة فى دأب والفخارة النيئة تتشكل تحت أصابعه بسرعة وهو يبدل فيها ويغير دون أن يرفع بصره الينا • وكانت بعض الآنية تتلف فيرميها ويكورها • وكما دخلنا بدون استئذان خرجنا بدون استئذان بعد القاء التحية مرة أخرى على الشاب وخرجنا من باب خلفي ومعنا الغلام فاذا بنا في حجرة ضيقة أخرى عبرناها وخرجنا منها الى حجرة أضيق والغلام يقول انه سيقودنا لنخرج الى الجبل مباشرة ورأينا الضوء والمدخل الخلفى ، فقال أخي :

ـ أعطه سندويتشا ، ولا تعطه أكثر من قرش واحد •

أخرجت سندويتشين • أعطيت الغلام واحدا وأعطيت الثانى لغلام كان واقفا ينظر الينا فى هدوء من الحجرة الأخرى ويبدو عليه انه أقل جرأة من زميله •

استعددنا للخروج ولكن صفوت وقف مكانه •

ـ ماذا في الأمر ؟

– أتمنى لو كان معي مطواة صدئة ذات عدة أسلحة لأعطيها للغلام صانع الفخار ربما يصنع شيئا جديدا ٠

خرجنا الى العراء ٠ كان هناك دجاج ينبش التراب ويلتقط حبوبا غير مرئية ٠

قال أخي :

– لا أخال اعطاءه مطواه سيغير من شكل الفخار الذي يصنعه ٠

– نعم ولكني ربما أعود اليه مرة أخرى في يوم ما ٠ هذا الدجاج !! زملاء الطب قالوا ان هناك بيضة واحدة لكل ستين شخصا في مصر ٠

سرنا على التل الذي يغطي الأقبية ، ونبتعد خطوة خطوة عن منازل حي القللية ٠ بعد قليل وجدنا أنفسنا نسير فوق أرض مفروشة بشظايا فخارية سوداء ولمحنا بعض جدران أبنية قائمة ٠

– هذه مدينة القطائع القديمة ٠ بنيت بعد الفسطاط وبجوارها ٠

لا أثر الآن للفسطاط ٠ عمرو بن العاص أسس الفسطاط مكان وضعه لخيمته الفسطاط تعني الخيمة ٠ هل تتذكرين شيئا من التاريخ القديم ؟

اكتشفت انه يتحدث الى ٠ لم أعرف كيف أرد لكنه أعفاني من الرد بالاستمرار ٠

– غراب وقف على جبل المنجمين صدفة وقت ظهر النجم القاهر ، فرنت الأجراس المعلقة على الجبل ، ونظروا الى السماء فرأوا النجم القاهر فسميت « القاهرة » ٠ عمرو بن العاص كان داهية ٠ كان هنا دير نساء ٠ طلب عمرو قطعة أرض في حجم وبرة جمل من رئيسة الدير وأعطته سؤاله ، فأمر أن يصنع حبل رفيع جدا من الوبرة أحاط عشرات الأفدنة وهكذا أخذ من الدير كل أرضه ٠ « الحرب خدعة » ذلك كان شعار العرب ازاء المشركين والكفار ٠

وصلنا الى طريق أسفلت عام ٠ لكن صدى رنين خطواتنا فوق الأرض المغطاة بالفخار الأسود ظل يتردد في أذني ٠ كانت هناك في الطريق عربات « كارو » تحمل نساء يتشحن بالسواد ٠ « هؤلاء النساء ذاهبات الى مقابر الخليفة » ٠

هكذا قال صفوت . وعربات أخرى حملت نســـاء وقفف دقيق . والنساء يضعن أذرعهن على قفف الدقيق مخـــافة ان تندلق ووجوههن بيضاء وثيابهن بيضاء وبعضها مزركش بالورد الكبير هؤلاء على ما يبدو عائدات على التو من المطاحن .

ابتعد أخي أمتارا على غير انتظار وأخرج آلة التصوير وأخذ يعبث بهـا حتى ضبطها وطلب مني وصفوت أن نقف معا ليلتقط صورة لنا . بدا الجبل عاليا جدا حتى ظننت انه لا يمكن أن يطلع في الصورة .

قال صفوت :

ـ هذه الأبنية الاسطوانية الصغيرة الحجرية فوق الجبل هي بقايا طواحين الهواء . عمرها مئات السنين ، انتهزنا فرصة مرور شاب يرتدي القميص والبنطلون وسألناه أن يلتقط صـــــورة لثلاثتنا وخلفنا الجبل وطواحين الهواء ثم استدرنا وسرنا نحو الجبل . سرنا وسط الرمال في طريق متعرج ودرنا حول أخدود عميق . عفرتنا اللوريات بالرمل الذي تحمله وهي تتخضخض في جريها نحـو المدينة . الأفق كان نسيما ، رأينا الاهرام جهة الغرب بعيدا وقلعة محمد على في الشرق بعيـدا عند نهاية الجبل عالية . كان منظرا رائعا جدا .

أخذنا نتسلق الجبل في دأب . واجهة الجبل بها رمل وحجارة وزلط وشديدة الانحدار . وصلنا الى القمـــة بعد لأي ووقفت التقط أنفاسي . ثم بدأنا نسير فوق القمة الضيقة والقاهرة تقبع تحت أقدامنا وتمتد على مرمى البصر . على الجانب الآخر كانت أرض شديدة الخضرة تمتد عند السفح رطبة طرية . كان هناك ســحاب في السماء ولكن الشمس تضيء المكـــان .

قال أخي :

ـ السماء تبدو مثل عين ممسوحة عمياء ، كأنهـا عين مصـابة « بالمية البيضاء » . لن أتزوج الزواج استغلال متبادل .

لمحت وجه صفوت مصادفة كان بوجهه شيء من الصرامة والقلق .

لعله يعرف ميول أخي . أخي يؤمن بالانسان فقط . هو ملحد قلق لا يؤمن بالله أو الأديان ومشاكلها ويكره سطوة كل رجال الدين . نحن موارنة كاثوليك ، لكن عائلتنا تحدد النسل وأخي يقول عن البابا :

ـ لو أنجبت اثنى عشر طفلا ومرض الأطفال بالتيفود من قلة الطعام فى مصر والمجـارى الطافحـة • هـل سيدفع لى البـابا ثمن حبوب الكلورميستين •

فوق طاولة النرد المطعمة بالصـدف فى البيت كتب « الاخـاء والمساواة » بأحرف صدف •

كان صفوت قد أشاح وجهه بعيدا لكنه عاد ونظر فى هدوء الى أخى وقال بابتسام :

ـ نعم لكن الشمس طالعة فى الوادى لا يراها الانسان الا اذا اتضع ونظر لأسفل •

شعرت بالاثارة تسرى فى كيانى لأن الممر الذى مهدته الأقدام كان لا يزيد عن المتر الواحد اتساعا فوق الجبل • عدا هذا ، الجبل كله رمل وحجارة متفتتة والى يسارنا كان المنحدر الذى تسلقناه • على امتداد القمة تتناثر طواحين الهواء القديمة ، وخلفنا القاهرة • القاهرة التى انتزعنى منهـا الوادى الأخضر الشاسع والجبـل حيث الهدوء الشامل والنسيم ذو الهواء النقى • المشاكل تضاءلت وتفاصيل الحياة بدت انها القاهرة التى أسمع صوتها كل يوم ، ضجيج وصياح وعواء • حينا كان هادئا فى يوم من الأيام • هكذا يقول سكان الشارع القدامى • أما الآن فالسيارات وورشة النجارة وصياح البواب فى الخدم اللاتى يلقين الزبالة حيث لا ينبغى أن تلقى أمام بيوت الجيران • ثم الأصوات فى المذياع • مذياع الجيران ومذياع القهوة ، ومع هذا فقد تعودنا على كل هذه الأصوات • فالقهوجى مؤدب أزاح الكراسى من أمامى وأنا سائرة على الرصيف وحيـانى بأدب شديد • والبواب حمل عنى شنطة الخضار لما وجدها ثقيلة والنجار اشتكى لأخى من تعذر شراء الخشب الزان بسهولة الآن حين جاء الى بيتنا ليصلح أريكة مكسورة ثم عاد واشتكى كيف انه يجد صعوبة فى شيخوخته فى تدريب الصبيان عنده على العمل المضبوط لأنهم يريدون اللعب والمرح فقط. بينما هو يريد أن يصنع منهم اسطوات يشرفون المهنة ، ثم يعود ويقول « كلنا كنا أطفالا مثلهم » ، لكن للضرورة أحكام والدنيا لا ترحم • وحين أخذ النقـود شكر وحمد الله وقبل يده وانصرف فى خجل ، بل انه طلب اعفاءه من تقاضى الأجر لأن اخوتى جلسوا معه وتحدثوا اليه طويلا ببساطة وود وصنعوا له شايا ثم ليمونا • قال بالحـرف الواحد « أنتم الهندبة متعلمون وتحترمون الشيخوخة والخبرة » •

هذه القاهرة التى أسمع ضجيجها ومرحها ومشاكلها من شباك حجرتي غابت تفاصيلها وأصبحت منظرا بانوراميا متسقا لمنازل وعمارات ومساجد وكنائس ، حينما كنا نسير فوق الجبل . ووصلنا الى شرخ فى الصخر ووجدتنى على حافة هوة لكن الهوة لم تكن عميقة .

قال لى صفوت الا أخاف وحاول أن يساعدنى بمد يده لكن أخى قال له ان يدعنى أعبر وحدى . وقفزت لكننى أمسكت بيده التى وجدتها فى انتظارى فى الناحية الأخرى . وصلنا الى طاحونة هواء . صعدنا سلالمها الداخلية المتآكلة ووجدنا فى الداخل عشا لطير وبيض فقط . كل هذه الروعة على مرمى البصر من القاهرة .

فى السماء كان صقر يصرخ ولا يسمع سوى صوته ، قال صفوت والأصداء تدور .

ــ هذه ليست صرخات خوف ؟

وسألته لأول مرة :

ــ ما هى اذن ! انها أول مرة فى حياتى أشاهد أشياء مثل هذه .

ــ أظنه يصرخ ليرعب فريسة ساكنة فتخاف وتجرى ليراها . نعم للأسف التاريخ يدرس من كتب .

أخرج أخى الكاميرا ليلتقط لنا صورة والقاهرة خلفنا ، عرضت أن التقط أنا الصورة ، لكنه التقطها لنا والطاحونة خلفنا . الطاحونة الآن هى مجرد حائط كبير مستدير . لا بد ان النساء كن يأتين الى هنا لطحن غلالهن يصعدن الجبل . لا بد ان طحانا شابا كان يعمل فى يوم ما فيها ولا بد انه كان يغازل الفتيات اللاتى يصعدن التل كله حاملات قفف القمح . لعله كان هناك معلم عجوز يغض النظر عن معاكسات الطحان الشاب ، أو يزجره بين الحين والحين سائلا اياه ان يلتفت لعمله . أخى لم يسبق له أن أخذ لى صورا مع أحد من أصدقائه ، انه طالب جامعى ولكنه يتصرف أحيانا أكبر بكثير من سنه ويبدو عليه الجد أكثر من اللازم أشار عدنان الى الأفق قائلا :

هناك الى اليسار ، هذه أعمدة ماركونى أعمدة اللاسلكى التى ترسل البرقيات الى الخارج وتستقبل الموجات الاذاعية . لكننا سنسير يمينا . لو سرنا يسارا لوصلنا الى المعادى . المعادى كان فيها معسكرات جيش انجليزى أيام الحرب وحوض سباحة جميل . سرنا على الهضبة العالية

وقابلنا أناس قليلون يرتدون الجلاليب • عن بعد لمحنا منزلا كبيرا • كانت مسيرتنا قد قاربت الساعه ، وصلنــــا الى نهاية الهضبة وظهرت تحتها السهول قريبة وجدنا أنفسنا فوق قمة تطل على قرية قائمة فى الصخر • انها قرية صخرة دار السلام • كنا فوق الصخرة نفسها •

ـ هذا منظر أخاذ جدا • قرية مبنية على الصخور •

قال صفوت :

ـ فى فيلم «صراع فى الوادى» جرى التصوير ، لبعضه ليس كله ، فى قرية مشابهة وهناك مطاردة على الاقدام بين عمر الشريف وممثل ممتاز فى دور قروى أهبل مجرم ، وسط عشش صفيح تنهار بضجيج شديد رائع • يوسف شاهين مخرج غير عادى •

قال أخى :

ـ لننزل ونرى البشر حول الجبل وكيف يعيشون •

مسحت عرقى وقلت وأنا انظر لوجهى أخى وصديقه وقد بدا عليهما الاحمرار والدم يندفع فى وجهى •

ـ نعم اننى عطشانة جدا •

الدرجات صخرية ممهدة • وجدنا خلفنا شابا يقفز على الصخور والدرجات ليصل الينا كان يرتدى حذاء وجلبابا وحيانا قائلا :

ـ أهلا • هل أنتم سياح ؟

ـ أهلا وسهلا • كلا ، نحن لسنا سياحا ؟

كأنه هو الضيف وأخى وصفوت يرحبان به • لا بد انه من القرية • نظراته تتلفت بيننا • علائم البشر تطفح على وجهه • هل أنا هى السبب ؟ أم هو صفوت بمظهره غير العادى ؟ أم هى آلة التصوير فوق كتف أخى ؟ هل الأمر مجرد طمع فى صورة ؟ لعل الأمر شيئا مختلفا تماما • لعل قريته تبدو فى عينيه رائعة وجذابة جاذبية خفية رغم انها مبنية من الحجارة غير المصقولة ، ودروبها التراب والصخر أصبحت ذات قيمة خاصة لأننا جئنا من شوارع العاصمة لكى تطل عليها • استقرت عيناه برهة على • كان فى حــــوالى العشرين من عمره نظيفا • نظرت الى عينى صـــفوت لأرى أين تستقران • وجدته ينظر الى البيوت القصيرة الضيقة التى لا جمال فيها • كان هناك شباك مفتوح وفراخ وديوك •

أقبل صبيان وبنات وأحاطوا بنا ثم أخذوا يقفزون ويعدون الى الأمام ثم يعودون ثانية الينا أخذ بعضهم يلمس آلة تصوير أخي • وأخذت البنات يلمسن بلوزتي وشدتني واحدة منها فقطعت زرا • سألهم صفوت عن محل بيع المرطبات • فتحادثوا بصوت عال ولم يعرفوا واحدا • اتفق معهم أخي في النهاية على أن يلتقط لهم صورة على شرط أن ينصرفوا فورا • وفعل ذلك ولكنهم وقفوا في أماكنهم ولم ينصرفوا • صاح الشاب في الأطفال أن يتفرقوا وعدا خلفهم خطوات حتى اختفى آخر المتلكئين منهم ، وسأل أخي :

ـ مصري ؟

ـ نعـــم •

ـ وأنت ؟

ـ نعم ، وأنت ؟

ـ أنا مدرس في مدرسة الجيزة الابتدائية • وماذا عنك ؟

ـ نسكن في منطقة القصر العيني والمنيل • ولكن لي أصدقاء كثيرين من مصر القديمة ومنطقة عمرو •

لم تتوقف نظرات الشاب عن العودة الى • من الواضح أنني أخت أخي ولكن صفوت ملامحه سمراء وشكله مصري تماما بينما نحن من الشام واستوطنا مصر من زمن طويل • في عيني الشاب تساؤل عما يربط ثلاثتنا معا ولكنه لا يجرؤ على السؤال حتى لا يبدو وقحا • انني نحيفة ، قفزت بخفة بين الصخور وجهي طويل أكثر من اللازم ، لكنني سمعت من بهيجة وسناء في المدرسة ان العثور على خطيب يغير من جســـد الفتـــاة • هما تتحدثان كثيرا عن هذه الأمور • يكفي الفتاة عدة ضمات من خطيبها بعد أيام الخطبة لكي تستيقظ أنوثتهـــا وتتدور معالم جســـدها ، وتبرز فتنتهـــا •

فلو خطبني واحد « صفوت مثلا » هل أخي يصورنا معا عمدا ؟ هل في ذهنه شيء معين ؟ أعرف انه يريدني أن أعثر على شاب • قال مرة لا بد من القلق • تعداد مصر يتضاعف كل عشرين سنة « الناس لاهون » •

اتجه المدرس الشاب نحـــو باب منزل ووقف أمامـــه وقال في تردد شديد :

ـ هذا بيتى • تفضلوا •

قلنـــــا :

ـ شكرا جزيلا •

قال :

ـ مع السلامة اذن •

سرنا من درب الى درب نسأل عن مرطبات أو فاكهة فلم نجد شيئا • قدم أحد البيوت ابريق ماء • كان الماء مثلجا ولذيذا بعد المشى الطويل والعرق رغم اننا كنا فى نوفمبر والشمس هادئة •

ـ قرية فى القرن العشرين ، ليس بها ثلاجة أو محل مرطبات أو فكهانى ، وبجوار القاهرة •

ـ لعل هذا أحسن لهم • فلا أقساط شهرية تدفع للثلاجة ولا فواتير نور • الباعة الجائلون كفاية •

نظر أخى الى صفوت وقال فى تؤدة :

ـ هل أنت وجودى • تريد أن تعطى الصبى فى القللية مطواة ليعبث بها فى الفخار وتفضل الابريق عن الثلاجة وتطيل لحيتك •

ـ قرأت قليلا عن الوجودية لكنى لست وجوديا • كما انى لا أنتمى لمدرسة معينة فى الفكر أو العقيدة • علمنى أصدقائى الغاضبون مثلك الايمان بالانسان ، وعلمتنى الأيام الثقة بالله • هكذا كل ما أستطيع أن أقوله ردا على سؤالك ، هناك كراهية كثيرة فى العالم •

ـ ظننتك بروتستانتيا ••• من « المحتجين » •

ـ كلا • الاحتجاج المستمر مراهقة • يجب النمو « البروتستانت » تعنى « المحتجون » • اننى تلميذ للحياة •

ـ هل نلنا بغيتنا من الرحلة ؟

قلت بسرعة :

ـ انه يوم جميل لم أكن أتصور ان الرحلة ستكون على هذا القدر من المتعة •

ـ أرى أن نسير حتى المعادى • كان هدفنا من الرحلة الوصول الى هناك والاستمتاع برحلة السير على الأقدام •

ـ الساعة الآن الثانية عشرة ، أخشى أن يفسد التعب النزهة ٠

نظر نحوى ٠ كنت قد سرت بما فيه الكفاية فعلا من الساعة التاسعة صباحا ٠

قلت :

ـ ربما أستطيع أن أكمل الرحلة ٠

سرنا الى الأمام ولكننا قرب الطريق العام انحرفنا بدون تفكير نحو محطة القطار للعودة الى حيث جئنا ٠

بعد أيام قال لى أخى :

ـ صور رحلة المقطم قد ظهرت ٠

نظرت الى الصور التى أخرجها مليا ثم وضعتها جانبا ٠ لم نتحدث أكثر من ذلك فى الأمر ٠ صفوت لم يأت لزيارتى أو لتوطيد التعارف بى ٠ أنا وأخى متفاهمان جيدا ٠ لن يعطى أخى صورا لصفوت ٠ لم تأت الرحلة بالنتيجة التى كان أخى يرجوها لكنى تعلمت ان هناك فضاء شاسع رحب خارج حى القصر العينى يستطيع الانسان أن يسير فيه وأن يمشى بدون أن يقلق خاطره بمشاغل الحياة الصغيرة مثل مشكلات أخى ٠ البحث عن خطيب التى تقلق بال أخى أو مثل مشكلة هل الله موجـــود التى لا يفتأ يتحدث عنها ، أو مشكلة الاتوبيسات ، وزحمة السكان الخانقة ، مشكلتى هى الخواطر المتزاحمة التى تتراكم فى ذهنى ولا أعرف أيها المهم وأيها غير المهم تلك المشكلة التى وصفها لى أخى بقوله « هذه هى أهم مسألة بالنسبة لك مسألة النضوج » ٠

أخى مشخص ممتاز ولكن مهارته تنتهى عند حد التشخيص ٠

فى هذه الرحلة ٠ فى رحاب الجبل وجدت مشكلتى تحل بطريقة غريبة ٠ رويدا رويدا وجدت خاطرا جديدا يدور فى ذهنى ٠ خاطر لم يأت وسط ضغوط الحياة وزحمتها فى شارعنا وفى حينا ٠ خاطر يقول لى مهلا مهلا لا تجرين وتقفزين وكأن سوطا يطرقع خلفك ، مهلا مهلا ٠ النضج يحتاج لوقت ٠ المحصول والثمار تحتاج لمرور فصـــول ودفء وشمس ورعاية ٠ هكذا الانسان ٠ هكذا أنت ٠

انتهت المذكرات .

مضى عام على هذه الرحلة والآن عادت الضغوط . اننى فى حاجة ماسة لرحلة اخرى ، والى شخص مثل صفوت .

اخى خطب الفتاة من حى السيدة زينب وقلقه قل واصبحت آراؤه أقل حدة عما كانت .

اللوحات تشاؤم ١-٦

كنا ثلاثة موظفين اثنان بالدرجة الخامسة والآخر بالدرجة الرابعة وهو ابن تاجر ثرى جدا « جلال » ووالده يعطيه نقودا أكثر مننا . وكنا نضحك معه أحيانا وننصحه أن ينضم الى تجارة والده بالقاهرة فى المقشات والأدوات المنزلية وأن يرتدى الجلباب واللاسة ويتزوج ويخلف سبعة أولاد ويجلس بشنب أمام المحل وبكرش كبير لكنه كان يضحك فى هدوء شديد ويهز رأسه .

لم نكن نتحدث كثيرا فى هذا الموضوع بل فى النادر القليل . وكان يتحجج قائلا ان الفلوس متوفرة فما الداعى ؟ واتهمنا بالكسل . وقال ان والده فرحان ؟ لأنه جالس الى مكتب ويرتدى الكرافتة ويختلط بكبار المتعلمين مثل رئيسه خبير القطن المتعلم فى الخارج ومثلنا ، ومع هذا فقد اعترف ان الباب مفتوح أمامه ليعمل مع والده ، ولكن قررنا استخدام الدبلوماسية معه حتى يأخذ باقتراحاتنا بخصوص المستقبل لأنه بدأ يتضح لنا أن شرحنا التفصيلى لحياته فى المستقبل لم يزده الا تقوقعا وتحوصلا فى وظيفته ، وكنا نشكو له من سأمنا وضجرنا فى العمل وسوء المال الذى منعنا من الزواج ودفعنا الى الجنس المحرم والمباهاة رغم الشعور بالذنب الخفى لكن كان يحتج ويتخلص من قبضتنا بقوله « الوقت طويل » لا داعى للاستعجال ، « سأحل محل والدى بعد أن يتوفاه الله بعد طول العمر » أو « الرشاوى كثيرة فى التجارة وعمل والدى كله مقاولات غير سليمة » . وكنا نذكره « الأزمات المالية والملل » .

للفور لم يتوقف الأمر عند ذلك بل لقد اعترى زميلنا أنور الموظف بنفس المصلحة حالة من قلق غير عادى بشأن مستقبل زميلنا فى السكن جلال وقرر أن يقابل والده فى القاهرة فى زيارته التالية وعاد فى هدوء نسبى من الزيارة لأنه أفضى الينا ان والده يتركه مؤقتا ليتمتع بالميرى

وكسله ولكنه سيغريه فى المستقبل بعد أن « ينشف عوده » على العمل معه والزواج من بنت الحلال • ولامنى أنور على وضع الأمر على بلاطة لجـلال وتخويفه من صورة المستقبل والأطفال والزوجة والكرش لكنى كنت أؤمن أن الصدمة سيعقبها تعود على الصدمة حتى ولو أخذ الأمر وقتا أطول • كذلك عدت وقبلت الأمور وتوصلت الى انه لابد يعرف المصير بنفسه وأن ذلك هو سبب احتياجه لوقت طويل للاستسلام للأمر • وفى النهاية قال أنور باصرار انه لن يترك « جلال » ليعانى من الضـجر والخمول الذى نعانيه فى الوظيفة •

وكان أنور معى ونحن نستعد للحاق بالقطار فى مهمة خارج المصلحة حينما قرأ ان هناك معرضا فنيا افتتح لفنان تجريدى وأخبرنى بالأمر فسألته فى استغراب عن سبب أهمية الأمر ونحن لا نعرف أن نرسم حتى دبوس ابرة ولا نقرأ سوى الجرايد والمجلات ونقضى وقتنا كله فى التسالى فى لعب الطاولة وشرب الشاى والقهوة والبصبصة للرائحات والغاديات • هذا بجوار السينما والراديو ، لكن أنور نظر لى نظرة ذات مغزى ، نظرة معاتبة ، الحقيقة أننا نطوف كل قهاوى الاسكندرية ولسنا بالخمول حتى نجلس فى قهوة واحدة • ولا نصر على مستوى معين من القهاوى ولا فرق عندنا بين قهوة المعلم سلطان فى غيط العنب ، وديليس أو التريانون ، أحيانا نذهب من شدة ضجرنا لأحد المحاضرات ، لكن نظـرة أنور كانت تعنى أن نقول ان السبب هو نفس ما أقول ، السبب هو أن ليس لدينا شىء آخر نفعله ، واقترحت عليه مشاهدة التليفزيون فرفض وأصر على أن نذهب من قبيل حب الاستطلاع وليس لتذوق الفـن وقال محاولا التـساعى :

ـ ربما نجد الموديلات هناك • سمعت عن فنان تزوج موديله •

وسألته ماذا يعنى فقال بطريقتنا المعتادة فى مزج الجد والهزل •

ـ ربما تتزوج موديل •

وتبادلنا الرأى مع جلال فوافق وقررنا أن نأخذ أجازة عارضة يوم السبت وأن نسهر يوم الجمعة مع بعض الأصـدقاء ونلعب الكوتشينة ونشرب بيرة فى الشقة • واقترح أنور أن نحضر بعض النساء ولكننا كنا من الشباب الذى لا يمارس الجنس الا بسبب الضرورة القصوى • وقرر جلال أن يرتب هذه الأشياء لنا لأنه كان خبيرا فى هذه الأمور ونطبخ

لنا أيضا محشى كرنب وصنع سلطته الممتازة ، واشترى فول سودانى ولب ، وقال :

ـ سلطان ومحسن سيغطوا علينا غدا بدون أن يتذوقوا هذه الأكلة ، ولن يعرف أحد اننا أخذنا « عارضة » ، وكان جلال كعادته فى الاجازات طويل الذقن لم يصح حتى الحادية عشرة صباحا ولم يخرج من حجرته حتى يضبط حساباته الشخصية وحساب كل مخلوق فى آكلة المساء • وكنا قد فهمنا ان والده يرسل اليه حوالة كل شهر وأحيانا فى منتصف الشهر وكنا نسميه كل شهر يحسب عدد الحوالات التى تصله ففى الشهر الماضى كان اسمه « الرجل والحوالتين » أما هذا الشهر فاسمه « الرجل ذو الحوالة الواحدة » وكان فى هذا شىء من التعبير الخفيف له •

وقصمت الليلة وسطنا لأن صرف آكثر من اللازم وفقد مرتب أنور وكذلك مرتبى دون أن ندرى ، فى أشياء وملابس ، وقررنا التقشف وان بقى على الشهر عشرة أيام •• وقرر أنور مقاطعة السينما ومقاطعة مقاهى ميدان الرمل ، وفجأة أعلن فى جد انه قرأ مرة كتابا عن الطعام الصحى وان السمن البلدى والكعك والعيش الفينو مضر بالصحة وكذلك الجلوس الكثير وأعلن أنه سيسير على نظام تغذية خاص وانه سيذهب الى المصلحة يوميا سيرا على الأقدام • وأعطى أنور قائمة الطعام وكان مكتوبا فيها فول ـ شـــعير ـ حلبة ، وارتفع حاجبا أنور لأنه كان يريد أشياء من الخضروات التى يحبها ويأكلها بانتظام دون أن يجدها فى القائمة • وأخيرا وجد فى القائمة شيئا غريبا • وهنا ألقى الورقة جانبا فى يأس وقال :

ـ ما حاجة الانسان الى طعام وهو يلبس هذا البالطو الجبردين الممتاز صنع ألمانيا ؟

وقلت :

ـ من الآن حتى آخر الشهر الطعام كما يلى : فى الصباح فول فى الغداء طعمية فى المساء حلاوة :

صاح جلال :

ـ وجبنة •

وصحت :

ـ فاكهـــة •

ـ كـــلا •

وصاح أنور :

ـ كــــلا ٠

وسأل جلال متوسلا :

ـ وماذا عن الشاى ٠

قال أنور :

ـ نعم ، بدون لبن ٠ وسادة بدون سكر أو ملعقة واحدة ٠

صحت معترضا :

ـ ملعقتين

وقال أنور : لا بأس شاى سادة فقط ٠

وقال جلال :

ـ لا قهــــاوى ٠

قال أنور :

ـ تمشية على الكورنيش فقط ٠

قال جلال :

ـ لا سينما ٠

ـ لا بــــيرة ٠

كان مفهوما أن النساء لا مكان لهن فى هذه الأزمة ٠ وصاح أنور بنصف ابتسامة :

ـ غـدا سنذهب الى معرض الفنــان لابد أن نشغل أنفسنا بشىء حضارى وثقافى ، دعنــــا من السينمات والتليفزيونات والبيرة والقمار والنساء والأكل والمهم أن نثقف أنفسنا من بداية الشهر القادم ، سأشترى الهلال والمجلة الجديدة ٠ نحـــن نعيش كالكلاب ٠ واعترضت فأصر على كلامه ضاحكا ، فلا يعرف هل هو جاد أم هازل ٠

ـ طبعا ، هل هذه عيشة نلبس كالملوك ونعيش كالحلاليف ٠ هش يا بنى الذباب « الميج » المستورد هذا ٠

قلت وأنا أهش الذباب :

ـ هل سنلوم الروس على أغلاطنا كما كنا نلوم الانجليز ٠

صـــاح :

ـ يا سيدى فوت . أهو كلام وخلاص .

ـ ولا تقل حلاليف ، الحلاليف تأكل الزبالة ، كلاب لا بأس به .

قال جلال معترضا :

ـ لكن الكلاب تعاشر بعضها بعضا جنسيا فى الشارع .

ابتسم انور وابتسمت بعده ، عاد جـلال وقال ليست بعادتك ان تتكلم هكذا . هـل انت جاد ؟ لم يجب أنور وعاد وجهـه لا يظهر شيئا ، بدأت أحس بأن أنور يمر بأزمة سـببها ذلك المزج من الضجر فى العمل والافلاس آخر الشهر . بدأ أنور يدردش كلاما كثيرا مما آكد لى ظنى . تحدث عن حياته فى الطفولة والشباب المبكر وفى أشـــياء اخرى كثيرة لا يتحدث عنها باستمرار . قال فى شىء من التوتر :

ـ اننى ارسل خطابا لكل واحد من معارفى فى البلد ، فى مظروف واحد خشية الضياع . وكانت الخطابات تضيع فعلا فى البـداية ثم صارت تصل بانتظام .

قال جلال :

ـ تفسير جدا هو ان انور كان مســافرا فى أجازة مـرة بالقطار وقابل الموظف الذى يفتح خطاباته ورجاه الا يقل شيئا من هذا القبيل لأنه ليس ضد الحكومة والنظام الحاضر وانه يعنى بكل خطاب مرسل الى « حضرة الشقيق العزيز الاستاذ محسن زكى أفندى » والا يفتحه لانه لن يستمتع بالتاكيد بقراءة الخطابات الكثيرة الروتينية فى الداخل .

وقال انور :

ـ شىء غريب هذه الدنيا ، بلدنا بجوار طنطا . كعادة النـــاس يرسلون اغلب أولادهم الى البندر او الى أقرب مدرسة . أرســلنى أهلى الى البندر لأنى كنت قاصرا فى العلوم وابقـوا آخى ليعمـل مع والـدى فى ادارة الفدادين . لما مات والـدى وورثنـاه تزوجت أمى . المشاكسة وطول يد زوج أمى على ، جعلنى أقصر أجازاتى فى البـلد ، لأبتعد عن غيرته . تعاركت معه أمى وجعلته يتوقف عن اساءته لى . عادت الأمور الى ما يرام ولم يعرف احد من عائلتنا بذلك ، كانت مرة واحدة ضربنى فيها فهددته أمى بتركه . أمى تحبنى جدا وهو الآن كأى صديق . هذه أول مرة نسمع تلك القصة . مع هـــذا كان أنور

صريحا فى كل شيء « هلهلى » لا يتوانى عن مناقشة أدق المسائل فى حياته أو حياة غيره . وكنت متحفظا فى البداية فى تصديق ذلك قليلا . لكننى فهمت انه لا يقصدالضرر أوالاساءة وتعودت على أسلوبه . بل تعلمت شيئا منه انا نفسى . كان وجهى قد احمر حين سألنى عن علاقة أبى وأمى لكنه اعتذر حين احمر وجهى ، أخبرته أن والدى رجل طويل جدا وأمى صغيرة طيعه « كالدبان » فى البيت وكلنا نحبها حبا شديدا ونخشى والدى بشدة حتى كنا نقوم عن مائدة الطعام « نصف بطن » اذا وجدناه متجهما . ومع هذا فهو أحيانا ودودا ، لكن مزاجه متقلب .

كنا نحب فى أنور الصراحة التى علمنا اياها رغم ضحكنا منه فى البداية لكن مسبحته والشبشب الجلد الذى كان يذهب به الى القهوة تحت الشقة وحب الناس له علمونا انه انسان غير شرير يحب الحياة والاختلاط والعمل ، علمنا الكثير وقد تخرجنا كلينا مبكرا بتقدير جيد من الكلية . وهكذا تعلق الناس فى العمل بأنور أيضا وصارت لنا مجموعة أصدقاء كبيرة بفضله . وكان عنده المقدرة على التمييز بين الخبيث والمخلص بعد وقت قصير . احتمينا الى شيء من التحكم فى الذات حتى لا ننملق به أكثر من اللازم وقلت لنفسى فى لحظة تفكير عميق ان كل انسان به مساوىء ولابد أن أنور به مساوىء ، شعرت بالذنب وأخبرته صراحة بما فكرت . انطلق ضاحكا ضحكته الحبيبة وقال ان تفكيرى صريح ولابد صحيح . استراح ضميرى .

كنا نعيش فى كفاح فوالدى كان لا يسمع للمثل القائل « ان كبر ابنك خاويه » ولابد لى من العثور على أخ فى الاسكندرية وكان هو يحس بنفس الشيء وجلال كان أيضا أخانا الاصغر وحينما مرض بالتهاب رئوى أخذنا أجازة لنتبادل على رعايته بعض الايام . وزوغنا بعض الأيام الأخرى . واطلقنا على أنفسنا أسماء حسن ومرقص وكوهين لأنى كنت نحيفا ذو أنف كبير وأقلق كثيرا على المصاريف . أما جلال فقد أسميناه هذا الاسم رغم انه لم يدخل كنيسة فى حياته لكن كان له خال قسيس فى قريته . هو قال انه عريف ير نم التسابيح لكنا لم نعرف الفرق وقررنا الاصرار ان ذلك الدعى من عائلته قسيس متدين . لكن أحسن ما فى ثلاثتنا لم يكن كمال خلق أو ابداع بل هو باظهار محاسنهم فكان أنور هو المتفائل الى الابد . وكنت أنا الحريص الى الابد وكان جلال المخلص الى الابد الذى لا يصر على رأى ويضع الصداقة والاخاء قبل كل شيء . ولم يكن عدم اصراره على رأى لانه

لا رأى له بل لأنه كان يقول اننا يوما ما ونحن الأكبر منه بخمس سنوات وندعى اننا نعرف أكثر منه بخمسمائة سنة ، يوما ما سنوافقه على آراءه ونرى الحكمة فيها وهو « الصغير السن الصغير الشأن فى المصلحة » على حد تعبيره الخاص كان عندى عقدة نقص لان الفتيات يضحكن على اننى الكبير لكن زميلاى يضحكوا فى حياتهم بسبب مشكلتى واظهرا حساسية فائقه نحو مشكلتى ، بل ان أنور كان يجلس متربعا فى الكرسى القش ممسكا بمسبحة ويقول « ذو الأنف الكبير ذو قلوب كبيره » وكن يضيف — اننى لا أفهم الفرق بين شكسبير والشيخ زبير لكن سيرانو دى برجراك كان ذا أنف كبير ووقعت فى غرامه حبيبة صديقه الانيق .

قلت له :

— هذا من كرمك ياشيخ أنور .

أضاف :

— كلا ، سأقع أنا بسذاجتى فى امرأة ملعونة أتزوجها وتذيقنى المر . وستتزوج انت من اميرة من اميرات الاسكندرية .

قلت له مراجعا :

— لا تقل هذا يا أنور . هذه هى نبرة التشاؤم الوحيدة التى سمعتها منك . هذا غير صحيح .

فى هذه الاجازة كان أنور ضجرا بالحياة . وصحونا فى الصباح متعبين مرهقين وقام هو مبكرا قائلا : هيا بنا الى المعرض ..

وصاح جلال :

— عندى صداع ، انا ذاهب الى الدكتور ..

وضحكت وانا اشد اللحاف الى بعد ان نزعه أنور .

— انا حاموت ، انا ذاهب الى الحانوتى .

وشتمنا أنور فى غضب .

— ياأولاد ال ..... انتم ستضيعون اليوم هباء ياأولاد ال.....

أنتم ستضيعون حياتنا هباء فى النوم والعمل بالحكومة ، لا لن أسمح لهذا بأن يحدث . لن اضيع حياتى هباء . سمعنا نبرته الجادة فقمنا منزعجين قليلا وسالناه . وهو يدور فى الشقة كالمجنون ، ماذا ستفعل ؟ ماذا تريدنا أن نفعل ؟؟

قـال :

ـ انتم لا يبدو عليكم اى أثر من الحياة هذا الصـباح ولا يبدو النور اليوم على وجوهكم • أنا خارج وحدى الساعة الآن الثانية عشرة أيها المعفنون •

واتجه الى الباب وصفعه صفعة مدوية وخرج •

نظر جلال الى ونظرت اليه ، قال فى ذهول :

ـ ماذا جرى له ..

قلـت :

ـ انور يمر بازمة نفسية ..

سألنى بتجهم :

ـ ازمة نفسية ؟ هل سيخرج منها فى ظنك سريعا ؟

قلت وانا جالس فى السرير أدعك عينى :

ـ لا اعرف . لا اعرف شيئا ..

وأحسست بالأزمة النفسية وعبث وعدم جـدوى حياتنا يتسرب الى وعيى •

قال جـلال :

ـ هل نأخذه لدكتور نفسانى . هناك واحد فى شـارع صفيه زغلول وآخر ••••• لم يكمل كلامه •

سألتـه :

ـ هل ذهبت اليهم أنت ؟

قال :

ـ لا •••

سألته :

ـ لماذا لم تكمل كلامك اذا ؟

قال :

ـ وجدت عدم المبالاة يسود تعبيرات وجهك •

قلت :

ـ هذا مجرد قناع • انا أيضا قلقان على أحوالنا • أنظر ما ذا فعلنا أمس • آكلنا وشربنا ولعبنا القمار وضحكنا • لم نرتكب الزنا ، ولكن سنرتكبها بعد شهر أو شهرين • من يستطيع ان يصرف على عائلته فى هذه الأيام المهببة من يستطيع الزواج ؟

قال جلال فى تردد :

ـ اسمع ، لقد ذهبت مرة لاحد هؤلاء الدكاترة النفسين •

ـ وماذا شكوت له ؟

ـ قرف •

ـ ماذا ؟

ـ قرف عمومى •

ـ أنت ؟ أنت شكوت من قرف عمومى ؟

لم اصدق كنت اظنه يعبث •

ـ نعم •

جلست مصدوما • صحت بعد لحظة :

ـ هذا اليوم لن ينتهى على خير •

جلس جلال على حافة السرير واشعل سيجارة •

قلت :

ـ ربنا يفوت اليوم على خير • أين ذهب أنور ؟

ـ لا أدرى •

ـ هل ارسلنا عارضة للمصلحة •

قال جلال بتجهم •

ـ كلا •

فجأة اضاف وهو يسحب نفسا من سيجارته •

ـ رأيت شـــقة خالية ايجارها رخيص لكن خلوهـا مائتين من الجنيهات •

نظرت اليه غير فاهم ، فقال :

ـ هل تظن أنور يريد الزواج والاستقرار ؟

لم أرد بل سحبت سيجارة من علبته واشعلت الأباجورة بجواري.

قال :

ـ هل افتح الشباك .

ـ كلا .

قال :

ـ ليس هناك شمس ، الدنيا مغيمة النهارده . كان لابسا بنطلونا وقميصا ، خطر لى ارساله الى البقال لشراء سجاير ولكنى عدلت ، وقلت :

ـ سأذهب لشراء علبتين سجاير كبيرتين .

ـ كلا ، سأذهب أنا .

قلت :

ـ هات تلاته .

ذهب وعاد . مضى اليوم كله وخيل لى انه خمسون عاما لأننا لم نر انور فى مثل هذا المزاج وتعكر الدم . شربنا السجاير ولم نأكل ولم نخرج طوال اليوم . وشربنا براد الشاى بعد براد ونحن نتكلم لأول مرة كلاما غريبا ونتناقش فى موضوع المسئولية ، مدى مسئوليتنا عن أوضاعنا حاولنا تحديد المسئول عن هذه الأوضاع التى يعيشها الشباب وما يجده فى المصلحة . بل اننى تناولت مسئولياتنا حيال بنات الليل الذين نأتى بهم الى الشقة ، ولكن جلال حدثنى عن فتيات الليل اللاتى لا يردن الاستقرار . أخبرنى عن واحدة ممهن التقطها لانه كان يريد ان يتحدث الى انسانة ما دون ممارسة الجنس لكنها لم ترد هذا ولم تهدأ حتى مارس الجنس . قال جلال وهو يفكر فى أنور :

ـ استطيع ان اضحك على والدى وآخذ منه مائة جنيه لو أراد أنور ان يستأجر الشقة الفاضية .

سألت :

ـ كيف ؟

قال :

ـ أقول له انى كسرت آلة وأنا أفحصها فى المصلحة .

قلت :

ـ ليس فى المصلحة سوى ورق .

قال :

ـ سأضع حبرا أسودا على يدى وأقول له انه شحم الآلات ، هو لا يعرف كثيرا فى هذه الأمور .

ـ لا يعرف كثيرا أم يتغاضى عن عبثك ؟

ـ لا يهم يعرف أو لا يعرف .

لكن المناقشة ماتت ثم دارت مناقشة أخرى تمنينا فيها وحلمنا باليوم الذى تعود فيه الاحزاب حتى نكون حزبا لكننا لم نناقش ما نفعله فى الحزب . وقال جلال :

ـ اننى أضرب عن الزواج . هـذا شىء طيب لان كل من يخلف يحرم الطعام على أولاده مادام هناك فم طفل أبوه غير قادر على الكسب لاطعامه .

قلت فى انزعاج :

ـ هل انت ربنا ، هل انت مسئول عن كل هؤلاء البشر .

ـ أعلم انه لا يمكن اصلاح العالم لكننا مسئولون ، يجب أن نطلب الرشاد والهداية من الله فيما نفعل .

ـ نعم الارشاد والهداية هذا شىء أساسى .

مضى الوقت بطيئا وساعد الصداع على اطالة اليوم ، وفجأة سمعنا المفتاح يولج فى الباب ويدخل علينا أنور وفى يده طردا غريبا دخل وطرح الطرد الى جانب وجلس ليستريح وقد أغمض عينيه .

قال جلال بانزعاج :

ـ ما هذا ؟

قلت بهدوء شديد :

ـ حمد الله على السلامة ، ماذا احضرت ؟

فتح عينيه ونظر الى طويلا ثم الى جلال . وفجأة انفجر ضاحكا :

ــ يا ناس دا مش احنــا بس اللى اتجننا دا العالم كله اتجنن ، انظروا : واندفع الى الطرد يمزق أوراق الجرايد التى تلفه ، نظرنا فوجدنا لوحة عليها شخبطة وقذارة ، فقلنا بعدم اهتمام ونحن نشــك فى قواه العقلية ٠

ــ من أى « مقلب » أحضرت هذا ؟

قــال :

ــ مقلب ؟ هذه من معرض الفنان الذى كان معلنا عنه فى الجريدة أمس ٠

قال جلال غير مصدق :

ــ انت تضحك علينـــا ٠ أين كنت ٠ أريد ان اصحبك لطبيب نفسانى ذهبت اليه ٠ أنت قد أصبت بملل ٠

قال أنور باستغراب :

ــ انت ذهبت لطبيب نفسانى ؟ كلا اننى اتكلم الصراحة ، ضحك عاليا ثم قال :

ــ ذهبت الى علوان فوجــدته كسر نظارته الســوداء ، يا له من متشائم لم يكف عن الكلام عن التسكافين الذى فقد مفعوله على الدودة وخرب المحصول القطنى هذا العام ٠ قلت له لا تتحدث عن العمـــل فى أوقات الراحة لم يسمع ، ذهبت معه الى النظاراتى وعدت معه وتغدينا ثم ذهبنا الى المعرض ! ضحك عاليا ثم استأنف كلامه :

ــ هذا الفنان معقول ٠ لكن كان المعرض خاليا نوعا من المتفرجين ، ما لنا نحن فى بلادنا والتجديد ٠ مالنا والتجديد ، ظننت اننى سأستطيع ان أجد شيئا ينزع عنى الضجر والملل ويفتح النفس ٠ خدعنى هـــذا الفنان خدعنى ٠ ذهبت الى آخــر الاســـكندرية لرؤية معرضه ٠ فماذا وجدت ؟ المعرض ممتاز ٠ لكن هذه انظروا ٠ لمــاذا يفســد ذلك المعرض الجميل ٠ وطرح أمامنا اللوحة ٠

ــ انظروا ، قررت الانتقام ، نصب دسته من اللوحات سأسميها « التشاؤم » تشبه كثيرا هذه القذارة الزيتية هل يمكن تسمية هــذه ألوان زيتية ٠ العالم كله جن ٠ فكيف يكتب أسمه فى الجريدة ٠ كان اسمها ، تشاؤم ، تشاؤم ٣ تشاؤم ٤ وهكذا ٠

قلت فى حرص وأنا أخفى الابتسام :

ـ جريدة واحدة فقط · كتب أسمه فى جريدة صغيرة واحـــدة فقط ·

صـــــاح :

ـ لا يهم · قررت التصرف · قررت انقاذه من أفكاره المستوردة · نظرت حولى كان الفراش نائمـــا وكانت معى الجريدة فحملت اللوحة ولففتها بالجريدة وقلبت اللوحات الست الأخرى · كلهـا حجمها ياردة ونصف · وضعت اللوحة فى المقهى القريب ، وعدت لأرى تلك الظاهرة المذهلة ، ظاهرة التجديد العبثى ·

صحت وأنا اضحك :

ـ انت لا تفهم فى هذه الأشياء ·

ـ نعـــم يا عزيزى أنا لا أفهم · لكن مجموعة من الناس حضرت وتوقفوا كثيرا عن اللوحات المقلوبة وابدوا أعجابهم الشديد بها ·

صاح جلال وهو يقهقه :

هل كانوا طلبة فنون ·

قال أنور :

ـ لا يبدو ذلك ، كانوا خليطا من رجال ونساء وشباب لكنهم ليسوا طلبة ·

قلت وقد تنبهت كل حواسى :

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

صـــاح :

ـ حضر الفنان وكان مهوش الشعر وتنبه بعد قليل الى ان اللوحات مقلوبة · اللوحة التى أخذتها كانت معروضـــة ومكتوب عليها مباعة · تنبه الفنان لاختفاء اللوحة وأخذ الفراش يجرى خلفى حتى اختفيت ·

سألناه :

ـ هل أسمك فى سجل الزوار ·

قـــال :

ـ نعـــم ·

صاح جـــلال :

ـ نهار أبوك اسود .

قال له أنور :

ـ كفاك هبالة . بلا نيلة . هل انتم هبل ؟

وذهب أنور الى المطبخ وعمل شايا على البوتاجاز وعاد وجلس على الكرسى القش واستربع وأمسك بالمسبحة . حاولنا فتح الموضـوع معـه ولكن دون جدوى . وبدأ علينا انه قد تغلب على سأمه وانه فى حال طيبة لانه ظل يضحك ويتحدث فى كل شيء تحت السماء . وكنا نضحك معه ولكننا كنا فى الواقع نضحك لما فعله ذلك اليوم وكيف انه كان يسـلى نفسه بينما جلسنا نحن نحمل الهم .

وذهبنا الى المصـــلحة فى اليوم التالى فى حالة نفسيه أحسن قليلا وشربنا القهوة وقرأنا الجريدة . وحوالى الساعة العاشرة سمعنا ضوضاء وهمس وأخذ بعض السعاه يتحركون بسرعة وسألت عن الأمر فقال لى عم زكى ان هناك ضابط بوليس وعسكرى فى مكتب المدير يسألون عن الأستاذ أنور .

وغاص قلبى وصاح عم زكى :

ـ ايه كفى الله الشر ، فيه حاجة يا فندى ؟

قلت :

ـ كلا يا عم زكى أنا عندى شوية مغص فى بطنى .

ـ سأحضر لك شاى بليمون .

ـ شكرا يا عم زكى . .

وأخـــذ الضـــابط أنور معه الى نقطة البوليس ، واستأذنت فى الانصراف ساعتين بطلب رسمى . وعدت الى الشقة ولم أجد اللوحة ولم أجد أنور طبعا وقررت الاتصال بنقطة البوليس للاستعلام عن مكان حجز أنور . واتصلت بنقطة البوليس المجاورة للعمل وسألت عن أنور فقالوا انه غادرها منذ نصف ساعة .

وعدت الى البيت أحمـــل الهم ووجـــدت أنور فى الشقة يشرب سيجارة وكوبا من الشاى انفجرت فيه . قابلنى بهدوء وقال :

ـ تعال أشرب شـــايا ، انا لم ألمس الكوب ، شـــاى بنعناع ، وانا اجلس مقابلته فى الصالة •

ـ ماذا حدث ؟

قال أنور فى هدوء وهو يسحب أنفاس سيجارته :

ـ لا شيء قلت لهم ان الأمر نكتة وابتسم الضابط والفنان يصرخ حينما نظر الى اللوحة • حاول ان يتهمنى بالسرقة فقال له ان اللوحة غير مسروقة وانه لو ان يدخـــل فى هـــذا الموضـــوع فسيسبب لنفســه اشكالات كثيرة وشهادة وأقوال ، وثبط عزم الفنان • وأخيرا قيـــدت الحادثة كواقعة ازعاج للسلطات • حاولت الاعتذار للضــابط ، لكن هو اعتذر لى لانه لم يستطيع ان يخلى سبيلى بدون قيــد وشرط • جنحة ، هذا كل ما فى الأمر • حاول الفنان اتهامى بالسرقة فقال له الضابط ان اللوحة لا قيمة لها • وعاتبه وهدده ضــاحكا بأنه قد يتهمه هو بازعاج السلطات • ثم سأل العســـاكر عن رأيهم فى اللوحة فانفجر أحـــدهم ضاحكا وأشاح آخر بوجهه • انفجرت ضـاحكا وانا اتصـــور الفنـــان ذو الشعر المهوش يحاول ان يتناقش بالمنطق والضابط فى نقطة البوليس يحاول اخفاء ابتسامته ويهدىء من حماس الفنان للعمل التجريدى العبثى العظيم •

وضحك مع أنور بعد قليل ، وبعد عدة أيام ظهر أمام المحكمة ونال غرامة جنيهين • ظهر ان الفراش تتبعه الى القهوة • وعرف أسمه ومكان عمله •

قلت لأنور فى استفسار مخلص ومعابث :

ـ لماذا تسبب لنفسك كل هذا التعب يابنى ، هل تكره التشاؤم ؟

قال أنور وقد تحول الى الجد الشديد وسحب نفسا من سيجارته •

ـ كلا يا عزيزى • انا لا اكره التشاؤم رغم اننى انسان متفائل ، هناك أشياء تدعو للتشاؤم وسحب نفســـا آخر • لكنك تقلل من قيمة التشاؤم وتقلل من شأنه لو عبرت من شأنه لو عبرت عنه بكلام فارغ او بتعبير سيء مثلما فعل ذلك الرســـام • لقد شرح للناس فكرته وقال ان التشاؤم موجة جاءت من أوربا نظرا لما يحدث فى العـــالم من مجاعات وقنابل هيدروجينية وانفجار فى عـــدد الســكان وغيرها ، ولان العلم يقول انه لا مغزى أو معنى للحياة واننا مجرد حيوانات راقية • متى وجد

الانسان داعيا للتشاؤم • شيء يجب ان يكون له احترامه ، خذ مثلا علوان صديقنا • انني احترمه واحترم تشاؤمه فليس بالقليل ان يحذر موظفي الوزارة المسئولين عن عدم جدوى مبيد حشري هام دون أن يلتفت أحد • ويتحول الأمر من فشل المحصول وإفلاس الفلاح الى مرض أطفالهم وتشويههم وعدم وجود ثمن علاجهم الى مجرد مقالات في الجرايد • هكذا هناك أمور سيئة في هذه الدنيا لا يجب ان نحول احتجاجنا عنها الى احتجاج رخيص بكلام رخيص أو فن رخيص •

قلت له :

ـ لم أكن أعرف انك تفهم في الفن تماما مثل أي فنان من الفنانين :

قال صائحا :

ـ لماذا نتكلم بالبديهيات والاوليات • الفن شيء موجود داخل كل انسان وتقديره شيء غير دخيل •

ـ قل لي كيف عرف البوليس بعملك في المصلحة ؟

ـ نسيت ان أخبرك ان المعرض أمام « مقهى الاغنياء » حيث نجلس أحيانا • الفراش رآني آخذ التاكي وسأل عني هناك •

بعد هذا سمعنا اشاعة أن أنور والفنان أصبحا صديقين حميمين كأنه يكمل أحدهما الآخر ويسهران معا أحيانا كثيرة •

مضت الأيام ، خيل الى علي مرها ولا أدري السبب أن العبث والجد اختلطا في أحاديثنا وفي حياتنا أكثر من الناس حولنا حتى استحال على التفريق بينهما •

أخيرا تفرقنا وغبنا وسط الزحام والحشد البشري الذي يتضخم كل يوم ، نراقبه في قلق يوما بعد يوم ويتقدم بنا العمر • ونتقابل كل عدة سنوات ، ويقل كلامنا ...

جاكى تستكشف الحياة

جاكى فتاة مستقيمة شديدة الشكيمة ودودة بدون عاطفية تعرف كيف تراعى مصلحتها ، مع هذا من مظاهر ودها انهـا وصديقتها هيلين يتطوعان لمساعدة صديقتهما باربارا فى المطعم الذى يمتلكه والداهما فى مدينة قريبة فى نادى الجولف حتى تستطيع ان تنتهى مبكرة من عملهـا وتخرج معهم للسهر فى كارديف على مسافة عشرين ميلا من القرية التى يعيشون فيهـا • جاكى فوق كل شىء فتاة تريد أن تسبر غـور الحيـاة وتدرس الناس والمدينة على حقيقتها • ليس فى ظاهرها فقط بـل فيما خفى • والعمل فى المطعم رغم مشقته وكثرته شـيق بالنسبة لجاكى الشـابة وهى لا تتوقع مالا أو مكافأة من والدة باربارا رغم الارهاق والاجهاد • فهناك الجماعات التى تحجز أربعين مكانا للعشاء مع أم جاكى ولكن أم باربارا تخبرهما ان الويك اند سيكون سهلا جدا وان عددا قليلا من الزبائن سيحضر • ولا تخبرهم بالحجز الضخم • مرة فوجئت جاكى بتليفون من رجل سائلا « هل كل شىء على ما يرام للمجموعة هذا المساء » وتسأل » أى مجموعة ؟ « ويقول الرجل » لقـد حجزنا أربعين مكانا للعشاء » • وتجـرى جاكى وهيلين وباربارا الى « السـوبر ماركت » ويشترون كميات ضخمة من الخبز والطعام والزبد ويعملن عملا متواصلا منذ الساعة السادسة مساء حتى الثانيـة عشرة • كان هذا يزيدهما استمتاعا بالعمل لأنه يحوله الى مغامرة •

والعمل فى المطعم يساعد جاكى على مراقبـة الناس أثناء عملها • فهناك جماعة المحاسبين الذين قال أحدهم كلمة قذرة للآخر أمام جاكى فقال له صديقه « لقد سمعتك الآنسة ، اعتذر لها » ويعتذر لها المحاسب وكأن الجرم فى العلن وليس فى الكلام القذر • وهنـاك بعض لاعبى الجولف وهى لعبة مفروض انها لسراة الناس فلا يمكن أن ينضم أى انسان لنادى الجولف ومع هذا اكتشفت جاكى ان كثيرين منهم لا حياء

عندهم ولا أدب وحينما يحتاجون شيئا يقولون فى جفاء « خبز » وهى لهذا لا تحترمهم أبدا مهما كان حجم السيارة وماركتها وموديلها • (هى تملك سيارة صغيرة) •

ثم بدأت تلاحظ السيدات اللاتى يحضرن الى فترينة الكعك ويسألن عن السعر قبل ان يشترين شيئا وأحيانا يشترين كعكة واحدة صغيرة وتقسمها اثنتان منهما • تعتقد جاكى انهما تفعلان ذلك توفيرا للنقود ولكنهم فى الواقع يفعلون ذلك من أجل الريجيم ايضا •

ومضت الأيام واكتشفت جاكى شيئا مثيرا آخرا • سيدة متأنقة معروقة اليدين غنية ملطخة الوجه بالأحمر والأصفر والأخضر وجدتها باربارا تمد يدها تحاول سرقة قطعة جاتوه منذ ذلك اليوم أسموها » ذات « الأيدى » الزرقاء فيما بينهم ، ولاحظوها وراقبوها منذ تلك اللحظة •

كل ذلك كان يثير حماسا فى داخل جاكى ويدفعها الى مساعدة باربارا وكانت تلبى التليفون دون تباطؤ كلما طلبتها أمها للمساعدة • وذات مرة كان ثلاثتهم فى منتصف الليل وحدهم فى المطعم حينما نظرت احداهن خارج النافذة وفوجئت بأن البوليس يحاصر المكان • خرجت احداهن فى هدوء وسألت رجال البوليس فى سياراتهم عن الأمر فقالوا لها ان جرس الانذار الالكترونى الاوتوماتيكى قد ضرب ونبههم فى نقطة البوليس لشىء غير عادى يجرى بنادى الجولف واعتذر ثلاثتهم بأن احداهن لابد عبثت خطأ بجهاز الانذار • فالبوليس الانجليزى وهدوءه وعدم تسلحه يساعد على خلق جو أقل توترا مما كان يكون لو هم حذوا حذو البوليس الأمريكى مثلا •

سعد ثلاثتهم بالعمل معا وزاد من سعادتهم خروجهم معا للسهر فى المساء وشعورهن بالأمان لأنهن ثلاثة فتيات معا فى النوادى الليلية ، ولكن جاء اليوم الذى ارادت جاكى ان تنتهى من العمل فى النادى • فهى على كل حال مشغولة جدا • كانت من قبل تعمل فى محل اسطوانات فى كارديف ، وأدى ثبات جأشها وحسن تصرفها الى ان أصبحت مديرة المبيعات باعت كثيرا من الاسطوانات فى القسم الذى عملت فيه وحسدتها البنات الاخريات على الوظيفة • قالت : خذوا الوظيفة منى لا أريدها • على ان أسافر من القرية مبكرا حتى افتح المحل وارتب كل شىء نصف ساعة مبكرا • هكذا كان موقفها من الترقية انها ليست شيئا يحسد عليه أحد • هى تريد مبلغا من المال تعيش به فى صفاء ورضاء ، هذا كل شىء • لكن مدير المحل أصبح لا يطاق • صار يتبرم

ويصرخ من قلة المبيعات وجاكي تعرف ان الخطأ ليس خطـأها أو خطأ غيرها • كذلك كان مدير المحل لا يطيق ان يرى أحـدا يتحدث الى أحد حين لا يكون هناك زبائن • كان يصيح فى غباء وهستيرية « افعلا شيئا » •

ثم جاءت تلك الوظيفة الطيبة فى « أبرجـا فنى » • وهى تعرف « أبرجا فنى » لأنها تشترى منها ملابسها وغير ذلك من اللوازم وكانت تعمل فى محل اسطوانات من قبل وتعرف الشباب الذين يترددون على المحل ومن منهم سارق او يحب ان يسرق • حدثت حادثة • مات شـاب فى ليلة تعاطى مخدرات فى بيت ثلاثة أخوة • كانت تعـرف الاخوة الثلاثة وسمعت من رئيسها فى العمل الجديد ان الشاب أعطى مخدرا بالحقنة وهو فى غيبوبة • قالت انها تعرف الثلاثة شباب وانهم سيئين جدا • أثبت التحقيق صـحة الخبر التى سمعته من رئيسها • أدهش رئيسها ان لجاكي – وأبوها عامل – صديقـة ابنة مليونير ملولة مملة تشكو سرعة تغيير والدها لسياراتها الغالية ولا تكف عن الشكوى لها • ثم جاء اليوم الذى قررت فيه انهـا مع وظيفتها الجديدة لا تريد العمل بعد ذلك فى المطعم فى ملعب الجولف وحتى هذا القرار جـاء بمفاجأة غريبة • مفاجأة رغم انها غير سارة الا انها أسرت جاكى الفتاة التى تريد ان تفهم الحياة بخيرها وشرها • فوجئوا بعد قرارهم بوالدة باربارا التى لم تمنحهم بنسـا واحـدا جزءا عملهم المرهق تقول « وأين الولاء اذا ؟ « ولاء لمن ؟ » ، « لماذا الولاء ؟ » • وبدأت جاكى تحكى القصص الطريفة لزملاءها فى العمل الجديد ولرئيسها الجديد فى فترات الشاى باسلوبها السلس الفكاهى الذى يستطيع ان تضـحك حتى على نفسها وعلى أنفها الكبير وكيف يسخر منها أخوتها الأولاد •

وظلت جاكى تحكى لأيام قصصها عن أمسـياتها التى تقضيها فى ملهى « كيكى » فى كارديف مع صـديقاتها وأصـدقائها وغير ذلك من أوجه حياتها الاجتماعية •

وبعد أسابيع بدأت تلاحظ ان رئيســها عنده قصص شيقة مثل قصصها وأحيانا أغرب من قصصها ، كان رئيسها مهاجرا من الخارج ولكن رغم تحفظه ومهنته كمدير شركة ، اكتشفت انه يختلط بانـواع مختلفة بل غريبة من الناس من كل الطبقات والأهواء فهو ذات مرة يحضر يوفيها فى بيت عمدة المدينة لأنه عضـــو لجنة ما وتارة أخرى يسمع باخبار ويخبرها عن أولاد حى الميناء الذين يعرفهم من مشروع اجتماعى خيرى ويسمع انهم يرتكبون جرائم صغيرة للحصـول على المال للانفاق

فوق ما يحصلون عليه من التأمين الاجتماعي نتيجة تعطلهم عن العمل ـ سألته وفي ذهنها حوادث معينة :

ـ أولادك هؤلاء الذين تربيهم تربية محافظة · ماذا ستفعل حينما يريدون الذهاب الى الملهى في المساء ؟

قال لها في هدوء :

ـ اذا أرادوا الذهاب الى الملهى فسنناقشهم في الأمر · كذلك سنرى مع من سيذهبون وأى نوع من الصحبة سيختارون ، ولماذا · ثم أضاف :

ـ على كل حال ، ذهبت ابنتي الى « ديسكو » من قبل مع أصدقاء لها في حفلات عيد ميلاد صديقاتها يبدون عاقلات ومن عائلات محترمة طيبة السلوك تعرف كيف تربي أولادها ·

قالت له بصراحة وهي التي لا تعرف للدين مكانا للحياة كانت أول مرة تخبره بخبرتها السيئة :

ـ سأخبرك بشيء · كنت أتردد على صديقتين لي والدهما قسيس كنت أذهب معهما الى الكنيسة لأنني فقط كنت أحب تناول الشاى معهما بعد ذلك · فجأة اختفت احداهما وذهبت الى لندن أو مدينة كبرى ولم يعد أحد يسمع عنها شيئا ·· أما الاخرى فقد زاد الآن حجمها حتى ان وزنها صار سبعة عشر « ستون » ·

نظر لها رئيسها وقال :

ـ أنا أفهم هذا النوع من الكنائس الذى تتحدثين عنه ، يعطون القسيس مبلغا تافها جدا من المال · الحياة حياة طقوس بالية بلا روح ولا حياة في هذه الأماكن · وغالبا هي حافلة بالعواجيز لأنهم لا يعرفون احتياجات الشباب · ولكن نحن لسنا كذلك ، نضحي بأولادنا من أجل تقاليد بالية · ايماننا في الحياة قائم على انه ينبغي للانسان ان يعرف حاجة الناس العملية · أما علاقتنا بأولادنا فعلاقة تفاهم · بدأنا أولا بفهم أنفسنا والحياة ولهذا نستطيع أن نشرح لهم الحياة وأن نفهمهم كل بحسب ميوله وشخصيته وطبيعته · خبرتنا في الدين أحسن وأسعد حظا بكثير من خبرتك للأسف يا جاكي · لا أقصد اننا نأسف لخبرتنا بل نأسف لوجود هذا النوع المنفر من الجماعات التي تقتل الحياة · هذا ضد تعاليم السماء · رأيت أشياء منفرة كثيرة في مجال الدين هنا ·

ولكن كما سمعت منى ، وجدنا أشياء طيبة جدا مثل رعاية الشباب الممتازة ووجدنا بعض الناس الذين هم أدلة حية على وجود الله بخيره وكرمه ولطفه وتسامحه وطهارته ·

ثم أضاف وهو مسرور لمفاتحتها اياه ، بعد كل تلك الشهور بخبرتها :

ـ هل اكثرت عليك الكلام ؟

قالت فى أدب تعلمته منذ الطفولة :

ـ كلا ·

رغم انها لم تفهم شيئا تقريبا مما قال ·

بعد مدة تجرأت جاكى وقالت لرئيسها :

ـ انك تشبه أعضاء « المافيا » بنظارتك الغامقة ·

والواقع ان جاكى وجدت فى رئيسها انسانا غريبا · كانت هناك عائلة « تشايكوفسكى » التى تسكن « سوانزى » وقد أخبرها رئيسها ان هذا اسم ملحن مشهور « كلاسيكى » لم تكن تعرف سوى موسيقى الملاهى لكنها كانت تعرف اسم « تشايكوفسكى » · عائلة «تشايكوفسكى» تلك كان يحكى لها عنها مما أفهمها انها عائلة غريبة جدا وكانت تستغرب كيف ان انسانا يبدو محافظا مثله يتردد على مثل هؤلاء الناس الذين يبدون فى منتهى الجنون · قال لها ان الأم اتخذت عشيقا بعد مدة طويلة من الصبر الشديد والجفاء من زوجها وان للزوج عشيقة أو اثنتين وان احدى البنات تلعب الجيتار ولكن تؤمن بالتحلل وان كل انسان حر يفعل كيفما يشاء رغم انها انسانة حساسة ودودة ويبدو عليها التعقل · قال لها انها مختلطة التفكير مختلطة المبادىء نتيجة للجو الذى تربت فيه ولجو الأفكار التحررية الذى يسود الغرب فى هذه الفترة وكانت تلك الفتاة فى السابعة عشر · وقال لها رئيسها :

ـ انها مثل ابنتى ، هى متألمة فى سكون · ثم قال لها عن الابن الأكبر وهو شبه مجنون هكذا قال لها بصراحة ·

ـ أسيئت تربيته واهمله أبوه ويتعاطى المخدرات ويتشاجر ويصرخ دفاعا عن أمه أو هكذا يظن · ويسافر الى لندن ويختفى لشهور دون ان يسمع عنه أحد وأنجب طفلا من فتاة ثم أخذها لطبيب وتم اجهاضها اجهاضا رسميا حسب القانون بسبب الظروف الاجتماعية

للوالدين ولأنه غير متزن شخصيا . طبعا هو لا يقول ذلك . هو يشبه أبوه تماما . كانت جاكى شغوفة بسماع أخبار العائلة وقال لها عن الابنة الكبرى وكيف انها حساسه موهوبة ولكنها لا تعرف ماذا تفعل بنفسها وليس هناك أعمال كافية وتتنقل من مكان لآخر وتمارس المذاهب الروحانية الهندية دون تقيد بمذاهب معينة . وكيف حكت له عن عملية ادخالها الى المجموعة وطقوس غريبة فى كلمات قليلة جدا قائلة « كانت شيئا رائعا مهولا جدا » وسألها « هل طرت فى الهواء » قالت « نعم » ثم صمتت . هى قليلة الكلام تشبه أباها هكذا قال الرئيس لجاكى .

هى فى حيرة لماذا يتردد رئيسها على تلك العائلة وعلى الأم المجنونة ويصادق الأب الغريب الذى يتاجر كما تاجر جدوده عند هجرتهم من النمسا الى انجلترا وكافحوا . رئيسها شخص غريب لم يتعال ولم يتظاهر بأنه لا يحب العائلة ، قال لها رئيسها :

ـ ربما أنا مجنون نفسى قليلا . اننى أحيانا أذهب فى فترة الظهيرة حين يكون هناك مشوار مقابلة عميل فى سوانزى لتناول الشاى وسماع شكاويها ولصب شكواى من الحياة فى اذنها ، هى تقدرنى كثيرا وأنا بصراحة أعزها وقد ساعدتنى كثيرا . نحن يساعد أحدنا الآخر . ثم أضاف لائما قليلا لجاكى التى تحتقر كل من أحواله مرتبكة :

ـ لو تربيت أنت مثل ذلك الولد « جورج » فى هذا الجو العائلى لشربت المخدرات مثله . ربما . ثم أضاف :

ـ أقول ربما لأنه يبدو عليك انك بطبيعتك انسانة رابطة الجأش . ومع هذا فيقولون ان أى انسان يتعرض لظروف شاذة يمر هو بمثل هذه المراحل وتؤثر فى تكوين شخصيته مهما كان قوتها . اللورد « لونجفورد » رغم عدم شعبيته قال ذلك عن نفسه بعد سنين من العمل مع المحرومين أو المجرمين أو المرضى اجتماعيا .

سماعها لرئيسها هو جزء من تعطشها لفهم الحياة ، أحيانا لا تفهم . وأحيانا يتكلم أكثر من اللازم . لكنها تحب الدردشة معه فى وقت الفراغ . بعد أيام قال لها نظارتى تذكرك بالمافيا . أنت تشاهدين أفلام أكثر من اللازم . هى تحب جدا أيضا الأفلام المفزعة لأنها تريد أن تعرف الحياة بخيرها وشرها وهى تبدو شجاعة جدا ولكن تحت هذا القناع هناك حذر شديد . أعجبها جدا فى فيلم عن الشاب الأمريكى الذى حاول تهريب

مخدرات لاستعماله الخاص فأدبته السلطات التركية وسجنته لثلاثين عاما لكنه هرب بعد أن قتل ضابطا وحارسا وأعجبها أن ترى حال السجن غير الرسمي • هي لا تريد أن يخفى عنها شيء ، سافرت الى كارديف عشرين ميلا لترى الفيلم لأنها لم تجد مثله فى نيوبورت التى تتردد عليها أحيانا ولا تحبها ، ولا فى المدن الأخرى المجاورة وذهبت أيضا الى فيلم عن سائق تاكسى تسيطر عليه فكرة الرغبة فى انقاذ مومس طفلة من حياة الدعارة فى نيويورك • وكانت فى دهشة لتعريض ذلك السائق نفسه للأخطار فى سبيل طفلة غريبة ، لأن جاكى تربت على أن تعمل عملها فقط وان لا شأن لها بأمور غيرها • أو كما نقول فى مصر « يالله السلامة » • حكت قصة الفيلم لمن معها فى العمل بدقة متناهية ، وهى تعتقد فى غرابتها ـ حاول رئيسها حين سمعها عرضا أن يشرح لها انه ليس فى الأمر غرابة ، لكنها لم تقتنع بسرعة • ذهب رئيسها الى الفيلم ووجده شيقا جدا وقابل هناك كبيرة السكرتيرات وابنتها مصادفة وجلسوا معا فى جانب السينما المحرم فيه التدخين •

كذلك أعجبها فيلم «شخص طار فوق عش طائر الكوكو» عن تسلط ممرضة على عنبر أمراض عقلية وعن شخص تحت التشخيص ثار فى هدوء على تسلطها وحول حياة المرضى الى حياة غنية نشيطة ثم ثار علنا وأخيرا عملوا له عملية « اللوبوتومى » الكريهة التى كانت تجرى كثيرا فى أمريكا لكن أحد المرضى وهو هندى أحمر حطم النوافذ وقلع عامودا خراسانيا بقوته الهائلة وهرب رمزا للحصول على الحرية للمقهورين • قال لها بعد ذلك ان زوجته قالت ان الكتاب محزن •

حكت جاكى قصة الفيلم لرئيسها وقال لها انه ذاهب لأنه يعرف ان الفيلم حاصل على خمس جوائز أوسكار وذهب مع صديق الى كارديف • كذلك ذهب الى هذا الفيلم الآخر فيما بعد لأنه عرف قصته منها وهو الذى يخشى النهايات المؤلمة والقتل والاخطار لما مر به فى فترة من فترات حياته من تعرض لمراقبة البوليس فى بلاده والأشياء الرهيبة التى كانت تحدث فى السجن ظلما للناس • قال لها :

ـ أولا أنا ألبس نظارة غامقة لأن عيناى حساستان جدا للضوء • ثانيا يا جاكى اننى أعجبت بالقصة لأنها واقعية • من الأقوال المأثورة عندى « ان الحقيقة أغرب من الخيال » لا أحب الخيال الكثير •

سألته :

ـ وما هو القدر المعقول من الخيال •

لم تكن تنتظر اجابة ولكنها كانت تشير الى أن المشكلة تحتاج الى مجهود حتى لا يمعن الانسان فى الخيال ••

جاكى كذلك تقدر خفية تحذير رئيسها من تمنياتها دائما بكثرة المال وقوة المال أنه قد يتعس الانسان •

جاء اليوم الذى خطبت فيه جاكي • دهش رئيسها قليلا لأنه كان يظن انها مثله في شبابه ستظل فى حيرة عمن ترتبط به لكثرة اتصالاتها واتساع أفقها الشديد وبدأ عليها السهوم والانسحام نوعا لأنها ظلت تفكر لمدة فى ترتيبات حياتها الجديدة وبعد شهرين فوجىء رئيسها بها تقول انها قد فكت خطبتها وانهما افترقا كأحسن ما يكون الأصدقاء •

قال المدير لنفسه :

ـ جاكى لم تنته بعد من رحلة استكشاف الحياة ••

من أي معدن هو ؟

«والآن سندخل بكم مكتبة القرن العشرين » ودخل أمامي صديقنا الشاب عبدالله القطب الذيأسميه سرا بالرجل الالي،من باب خيل لي انهباب معدني كبير ، لأنه قال انه التاريخ ، وسمعت وقع خطواته أمامي كانت خفيفة هينة وكأنه يعرف طريقـــه جيدا • كانت خطواتي متعثرة مدوية ودخلت مكتبة فوجدت أرض الغرفة أيضا صلبة رطبة وكأنها صنعت من حديد وليس بلاطا ، لم تكن هناك سجادة ولا حتى حصيرة • لم أكن قد رأيت كل شيء بعد ولم أكن أفهم كل شيء • فأنا لا زلت شابا حديث العهد بالتعرف الى شاب مفكر يختلط بجرأة مع الأدباء والفنانين ، ويفكر أفكارا غير عادية دون أن يدخل السجن بسببها كغيره بل يفلت من قبضة السلطات سواء أيام الملك أو بعد أيام الملك بحيل وطرق غاية في الذكاء •

كان النور مطفأ لكنه أضاء الغرفة المعتمة بفتح شباك • كان الوقت ظهيرة والجو حارا في الخارج وجاء ضوء من الخارج ووجدت نفسي في غرفة صغيرة حافلة بالكتب تشبه قطعا ثمينة مكعبة من المعدن رصت بعضها فوق بعض وكأنها سبائك ذهب في نظره • اختفت أغلب المعالم الانسانية التي اجتذبتني اليه سابقا • نظرت الى وجهه لاعاتبه على سوء ذوقه لكنني وجدته صارما لا تتقابل عينانا وعلى غير استعداد لتقبل النقد فلم أجرؤ • لم يكن في الحجرة صورة واحدة • تناسب ذلك • في حجرتي صـــورة بسيطة جدا من خطوط بسيطة لشخص يراقص انسانة ما قد أمسكا أحدهما بيد الآخر بينما يمتد ذراعهما الآخرين في الهواء ، صورة من ورق رمادي رسمت بخطوط صفراء • الجسم كله خط الذراع كله خط • الساقان خطان ، وهي تلبس بلوزة وجونلة تدور وتتسع • أنا لا أرقص • كذلك كتبت يافطة من ضيقي وقرفي عن كلام المعزين عند وفاة والدتي « كلام أجوف » كنت ولا زلت بالجامعة • لماذا لم يخبرني من قبل ان هذه ليست

مكتبة بل مسيكا أو مستودعا · كنت في حيرة ، ألعل هذا هو شكل الكتب الحديث وشكل التفكير الحديث ؟ هى ليست مكتبة فقط بل صومعة ينام فيها ويقرأ ويكتب وأحيانا يأكل · كان نحيفا كالسيف ، نحـــن طلبة متقشفون نطلب العلم ونضحى · نظر الى صديقى الشاب قائلا « أهـــلا » لاحظت صلابة قسمات وجهه أكثر من أى شيء آخر · لم يكن هناك استدارة أو تعاريج أو تعبير بل خطوط مستقيمة فقط · ولكن لم يكن يبدو على وجهه انه يتمتع ببريق المعادن العادى · دققت النظر فيه ولاحظت نوعا من الظلال يكسو وجهه وكأن شرارة كهربائية قوية أكثر من اللازم قد أحرقت شيئا وأطفأت ذلك البريق الانسانى فى العيون ؟؟ لكننى لم أكن متأكدا من شيء لكن صديقى عبد الله القط لا يعرف الرقة ولا يبالى باللفتات الصغيرة ذات المغزى الكبير · لأن كل ما يهمه كان أن يؤدى مهمته بالتفكير بدقة متناهية والوصول الى غرضه · كنت انسانا محبا للاستطلاع وهو يتطوع مشكورا ليكون دليلى فى سجل الفكر فى القرن العشرين وهو يدرس المذهب المادى الجدلى وينفى كل المبادىء والأفكار الأخرى فى صبر شديد وجهد دائب ·

قام فقمت معـــه وتركت الكرسى الكبير المنخفضـــن ، واقترب من الصناديق التى يسميها الكتب ، انقبض قلبى قليلا فأنا لا زلت أتحسس طريقى فى الحياة ، صدماتى ليست أكبر من صدمات الآخرين لكن صديقا أو أكثر قالوا عنى اننى شديد الحساسية · انتابنى شـعور ان الامـور ليست سيئة تماما لكنها على غير ما يرام أيضا فى تلك الغرفة .وانتظرت لأعرف محتويات الصناديق · لم أعتقد للحظة ان هذه الصناديق ستحل لى مشكلة العلم والدين · اقترب من صندوق كبير ورفعه بين يديه بخفة دون ان ينظر اليه وأخبرنى فى تلخيص المحتويات فكان عـرقى يتصبب من ثقل ما فى داخل ذلك الصندوق الذى رفعـه بمنتهى الخفـة حتى كاد شعر رأسى ان يقف · اكتشفت انه لم ينته بعد وان تلك لم تكن سوى المقدمة ، وبدأ يتحدث عن المحتويات فى تفصيل أكثر وكأن آذان عقلى الداخلية تدور فى دوى شديد مزعج لم تتحمله أذناى العاديتين · وأخذت بعض الموجات الكهربائية القوية تنتشر حوله ، والا فما سبب الصعقات التى أحسست بها عدة مرات وهو يتكلم ··

وأفقت على صوته يأتى من بعيد « فاهم » خلاصة الأمر ان مرحلة حكم الأمراء والمقاطعات انتهت باتيان مرحلة حكم الملوك ثم جاءت الثورات الشعبية كما قلت لك وأنهت حكم الملوك فوزنت بعض الديمقراطية وحكم

الشعوب • لم ينقذني من الأمر سوى انه أغلق الكتاب ، أقصد فمه كذلك اغلق الصندوق • انهماكه في التفكير يلغي من صوته النبرات العادية ، وشعرت بأنني على غير ما يرام وكأنني مريض لا يعي ما يحدث في العالم ترى هل لابد ان ندرس كل هذا ونعيه لنكون بشرا أصحاء ؟ هذا ما أود ان أعرفه • وأنا على استعداد لمخالطة العـــامة والمفكرين لأعرف أيهمـا الصحيح العقل والبدن ، الناس العاديين أم المفكرين العميقين • خشيت ان أسأله عن عطف الملوك حتى لا يضحك منى • كان كتابا عجيبا صفحاته من المعدن رنين كلماته كرنين الرصاص وكأنه لم يطبع بعد ، كأنه نسخة أولى ، وهتفت ؟

ـ هذه الكتب غير مطبوعة • لا أحـد يستطيع قراءتهـا ، الحروف مقلوبة •

أجابني :

ـ هذا يرجع لســوء فهمك الذى فرض عليك ولقصـــور عقلك عن الالمام بحقيقة الأشياء نتيجة لذلك • كالطفل الذى يرى كل شيء مقلوبا حين يولد • لم أحس بأى اهانة كان يتكلم بهدوء وبطء وصبر •

سألت :

ـ لماذا هذا الكلام الصعب الصلب ، ألا يمكن ان تتحدثون بلغـة البشر العادية

قـــال :

ـ اللغة العادية قاصرة لان مفهومات الناس قاصرة وهم لم يكونوا الكلمات اللازمة في قاموسهم بعد •

صعقت وصدمت • ذلك القاموس الكبير عندى في البيت قاصر ؟

تأملت كلامه محاولا فهم شيء منه ولو القليل • طبعا هناك ناس يتكلمون كلاما فارغا ولكن هل نستبدل الكلام الفارغ بالكلام الصلب ؟ هكذا حاورت نفسى •

سألت باخلاص :

ـ أليس هذا قصور في تعبيركم • انني افهم مجمل كلامك •

قــــال :

ـ كلا ، هذا هو مبعث القوة فيها .

ـ هذه الأحرف الرصاصية ، انهـا تشبه طريقـه « بريل » التى تستعمل للعميان .

قــــال :

ـ ربما لنفتح عيونهم على ما لا يرون .

ياله من عقل جبار سريع التفكير يعرف كيف يصرع الفكرة المضادة بضربة واحدة .

قلت :

ـ لكنى لست أعمى . هل أنا اعمى ؟

قــــال :

ـ أعرف ذلك .

لم افهم ولم أسأل . لكنى اضفت :

ـ اننى أريد كتابة على الورق . انى لا استطيع ان اقرأ الحديد ؛ ولا استطيع ان أهضم كلاما من الرصاص . معدتى لا تتقبل هذا .

نظر الى نظرة حجرية وقال :

ـ حضرتك انسان ضعيف وتعترف بالضعف . ضعيف وتعترف بهذا .

فهمت أخيرا انه يسخر بى .

ـ هل تسخر بى ؟

نظر شـــذرا :

ـ انصحك يا عزيزى . لا مجال للضعفاء فى هـذه الحيـاة . انت بطىء أيضا . بطىء جدا .

قلت :

ـ هذه شريعة الغابة . الحيـاة غابة ؟ انني أعرف ان الحيـاة كثيرا ما تتحول الى غابة لكنى لا أريد ان ألعب اللعبة القذرة . « انت اما قاتل أو مقتول » كما يقولون بالعامية . ولا اعتقد أنك تريد لعبة قذرة .

قـــال :

ـ كلامك فيه توسل . أربأ بك ان تتوسل . هذه سنة الحياة .

قلت :

ـ هذه ليست حياة . هذا موت ، هذه نهاية ، نهاية الانسان .

ـ نهاية الانسان فى وفيك ؟

ثم اضاف باختصار وصبر شديدين :

ـ انت « مثالى » المذهب يا عزيزى . لا مجـال لهـذه الاحـلام الرومانتيكية .

ثم عاد وسألنى وبدأ صوته خارجا من مراكز أخرى فى داخله :

ـ قل لى .. هل انت انسان طبيعى ، أقصد انسان غير منظم ، بدون منهج فى الدراسـة فى الحياة فى مجالات الفهم ؟ فهمت ان هـذا الصوت لابد يأتى من مراكز الشفقة المختلطة بالازدراء في عقله الباطن .

قلت وقد استرحت لحقيقة امكان ارتكابه للاخطاء واختلاط المشاعر ، رغم اننى لم أفهم معنى « مثالى المذهب » .

ـ نعم اننى انسان عادى . انسان عادي .

قال بمزيج من الاستعلاء والمدح :

ـ كلا لو كان الأمـر كذلك لما سمحت لك بالدخول الى هنـا ، ولما رحبت بك . اقصد ولا مؤاخذة ، انه هنا يدخل الممتازون فقط وليس العاديون .

حيرنى قوله وقلت :

ـ عندى شيء من النظام . خطوط عريضة فقط ، ولا اريد ان اعيش حبيس أو سجين فلسفة معينة لشخص واحد أو شخصين . انا عواطفي غير منظمة ، حرة ، لا أستطيع فتحها وقفلها مثلما تفتح وتقفل حنفية الماء مثلا .

بدأ عليه شيء من التردد فسألته .

ـ ما قولك فى ذلك ؟

قـــــال :

ـ تقفل وتفتح الحنفية • انت تحتاج لشىء ، بل لكثير من التنظيم •

قلت بحماس :

ـ شىء من التنظيم نعم • شىء ولكن الاغلاق والفتح كلا •

قال فى غموض :

ـ انت تتهرب من الواقع •

ـ أى واقع • واقعك ؟ أو واقع الرأسمالية او واقع الوجوديين • واقع الكيماويون أم علماء النفس ؟ أى واقع ؟

هكذا سألته فى هدوء شديد وحيرة :

نظر الى نظرة طويلة نفاذه وخرجت من عينيه أشعة غريبة وقال :

ـ دعنا من كل هذا الآن • سنشرح هـذا فيما بعد • أى واقع • واقع الحياة طبعا • هذا ما نتكلم عنه •

ـ هم أيضا يتكلمون عن واقع الحياة ، هذا قولهم • أتفهم كلامى ؟

ـ لنتجول معا بين الكتب الأخرى ، أخذنا نتجول معا ، كان يسمح لى بالنظر الى الاسماء • لويت رأسى يمينا وشمالا • صاح واستنكاره يزداد تدريجيا :

ـ ينبغى ان تسير على منهج علمى • خط مستقيم ، لا يمكنك التجول بين الكتب لابد من اتباع التسلسل ، هل انت بوهيمى ؟

لم أقل شيئا ، أولا فكرت لحظة فى غابات بوهيميا •

قلت :

ـ ربمـــا •

ضحك بسرعة ضحكة قصيرة وقال بعد ان ضـحك ضـحكة أخرى صادقة وهو ينظر الى مبتسما :

ـ نعم انت فنان الروح • انا أيضـــا أحيانا يحدث بى « خلل » واتحول الى البوهيمية لفترة قصيرة لكنى أعود وأسير على المنهج •

قلت لنفسى : هذه أول مرة ألحظ اليوم شيئا من الانسانية عليه •

سألته في وهن :

ـ لماذا تتحدث عن العلم والانسان والافكار العلمية كأننا آلات · ألا تخشى ان يحولك هذا الى آلة ·

لم يجب للحظة ثم قال :

ـ هذه مخاوف تنتاب الرأسمالية فقط ·

سـألته :

ـ أليس عندك كتب من معدن آخر · معدن أرق ؟

قـال :

ـ « أرق » يا حضرة الانسان الرقيق ؟

قلت :

ـ نعـم ·

لاحظ ذلك الشيء في الاصرار قال وقد توقف عن السخرية واتخذ نبرة أكثر جدية :

ـ لألخص لك تاريخ الكتابة ، في القرون الأولى كانوا يكتبون على الحجر ثم اخترع المصريون البردى · ثم اخترع الورق في العصور الوسطى ولكنهم كانوا انتهازيين · الآن تطبع الكتب على صفحات التاريخ بأحرف من حديد ·

سـألته :

ـ لماذا ليس عندك كتب مكتوبة على النحاس · نحاس الصرب مثلا ، نحاس يوغوسلافيه وتيتو ؟

قـال :

ـ نحن لا نعترف بهذه الكتب الصفراء ولا أدخلها عندي هنا · هذه كتب تحتوى مبادىء تحررية غير ملتزمة عفنة صدئة ·

أحسست بالدهشة والاسف · لكنى انسان معتاد على خيبة الامل ، فلم تهمنى خيبة أمل أخرى · اعتبرت رده سخيفا فما هو الفرق بين حديد موسكو ونحاس يوغوسلافيا · الفرق بسيط ومع هذا هو متعصب تعصبا أعمى · عدلت عن مناقشته في كنوزه بعد ان تذكرت كيف أدخلنى الى

الهجرة ، دون ان ينذرني ســـابقا بمحتوياتها ، وحدثته في موضـــوع مخالف تماما عن شاعر قرأت عنه كان يعيش [illegible] في قصر في سويسر ، وبدأ عليه الاهتمـــام فهو كما [illegible] قليلا .

شربنا القهوة ثم الشاى [illegible] الطريقة الآلية الدقيقة في شرح كل شيء وعرض كل شيء كحائط سميك بلا سند . ليست هناك طوبة واحدة غائبة في ذهنه أو هكذا يزعم . اعترفت لنفسي ان صديقي عبد الله القط هذا ذو عقل يعمل كساعة الميدان آلة رائعة ممتازة دقيقة ساعة ضخمة مخيفة .

لكن الأيام مضت وبدأ [illegible] لا استطيع النفاذ خلال تلك الحلة الحديدية التي يرتديها كمحارب ومكافح إقتصادي وأدبي وسياسي . اعتراني الاعياء أو بعض الاعياء . هل إنا اريد ثغرة فيه حتي اقتله أدبيا ؟ كلا . انني اريد شيئا آخر . انتظرت في صبر لا مفر منه فالجميع يتحدثون عن [illegible] الاشتراكية [illegible] يوتوبيا [illegible] .

الاشتراكية لها مزايا كثيرة لكنها ليست يوتوبيا . السبب بسيط، ليس هنـــاك يوتوبيا . اليوتوبيا حلم حلمه المفكر الاغريقي افلاطون او سقراط لا اتذكر تماما ، فكلهم قد أثروا على بعض [illegible]

طال صبري وكلما تقابلنا أحسست أكثر واكثر انني اود ان [illegible] ملمس الجلد البشري تحت تلك الحلة الحديدية والقنـــاع [illegible] الذي يرتديه واود ان اتعرف على معدنه الحقيقي وهل هناك بقية من المشـــاعر الانســـانية فيه ؟ هل هو [illegible] ودم [illegible] كثير من التفكير حتى لا أسمح بالصداقة التي [illegible] .

حاولت ان امزج أو ازاوج شيئين غريبين كطرفي نقيض مما حيرني حيرة كبيرة لمدة طويلة . هل هذا ممكن ؟ كان هناك له وجه غريب آخر ولم ادر [illegible] صديقنا عبد الله القطن وعايشناه أياما وشهورا . [illegible] على الآخر تماما او [illegible] كان لنا أصـــدقاء مشتركين يتراوحون بين الاديب والمفكر والهلاسي الذي لا يعرف معني المبالاة في حياة ييئس من فهمها او هكذا [illegible] ، والله أعلم انه [illegible]

[illegible] لكن [illegible] يكون [illegible] الانسان [illegible] حتى نتعامل

معه ؟ هناك العقل اللاواعي في عمل دائب ليلا والعقل الواعي في عمل دائب نهارا » هناك المتناقضات التي تؤرقنا في شبابنا وتعطي مسحة الحزن لمن هم في منتصف العمر ، وهناك الزواج العجيب في الحياة .

سبب لي ذلك الازدواج الغريب في صديقنا استمرارا لنوع من القلق الدفين لمتناقضات الحياة وتشابكها الشديد الذي اثر في حياتي مثل كثير من الاشياء بشدة . هل الحساسية نعمة ام نقمة . ام كلاهما معا لا ادري .

قمة التواضع هو الجانب الآخر الذي بدا لي لأول وهلة عند مقابلتي عن طريق صديق لعبد الله القطري فهو [illegible] ما . [illegible] في القاهرة [illegible] قال [illegible] قلت لا اعتبر نفسي مثقفا [illegible] فيه الكفاية .

« وانا كذلك لا اعتبر نفسي مثقفا . كلنا هنا نتكلم [illegible] هل الثقافة هي الطريق الى القمة ؟ نعم [illegible] عالم المعرفة لا نهاية له . وعلى الرغم من سعة اطلاعه في الادب والاقتصاد الا انه تواضع ورضي ان يتقاسم مع متحدثين قليلي العلم مثلنا في شؤون كثيرة في الفلسفة والمبادئ الفكرية والمدارس الادبية [illegible] كان هو اول انسان يهتم اهتماما جديا [illegible] الآخر على التثقف كلا [illegible] الذي قدمني اليه العاشق وكان يستمتع بالتناقش معي ، منذ سني المراهقة ، وعلم عبد الله القطري الذي لم اكتب مذكرات فعرض علي ان نقرأ على مسامع بعضنا البعض كتاباتنا ما دامت [illegible] الاول [illegible] ليس بيننا [illegible] الكلام جميل [illegible]

حينما لاحظت ذلك التواضع منه تذكرت جملة قالها متشرد الماني [illegible] لستة اشهر [illegible] وتعلم [illegible] العربية [illegible] كبرياء واستعلاء [illegible] الحقيقة » وتذكرت [illegible] ان اتواضع وكيف ان ذلك لم يزدني [illegible] ولم افق من تلك المرحلة سوى بعد مدة طويلة [illegible] عامين كاملين . لكن ذلك علمني شيئا وساعد على الوصول الى شيء من الاتزان .

[illegible] حكيت القصة لعبد الله فقال [illegible] باعجاب

— هذا حقيقي . عبد الرحمن [illegible]

« هل انت حقا متواضع ياعبد الرحمن ؟.. أم انك تدعى التواضع ثم يجيب » .. كلا أنت لست متواضعا ياعبد الرحمن . «وأنت لايجب أن تكون متواضعا ياعبد الرحمن » .

تنفست الصعداء . هو أحيانا يتكلم كانسان ، كبشر لا كعقل الكترونى ويستجيب للمحادثة الانسانية .. ساعدنى هذا على تحمل مادة التفكير الصعبة الهضم التى كان يعطينى منها الكثير .

وتقابلنا .. وقرأ قصة قصيرة . دهشت لأنها لم تزد عن اعترافات غامضة . اعترافات . هكذا كانت لانه أتى بنفس الزمان والمكان الذى حدثت فيه القصة . أم هى سرد لناحية انسانية فى حياته يحاول أن يسجلها حتى لاتهرب منه لندرتها وشدة انغماسه فى الفكر .. اعترف انه لايحسن الكتابة فى هذا النوع من القصص . كانت القصة عن زيارة لأخ محام فى الدلتا وعن أشياء كانت ستحدث بينه وبين فتاة عاملة . ثم اكتشف أن لها قصة كفاح ومعاناة . ثم عن لحظة على سلم البيت يقبل فيها فتاة قريبة له . كانت سحب الغموض تتكاثف وموقفه مبهما. وظننا أن عدم جرأته وشعوره بالفارق الاجتماعى شأن اغلب الناس ربما هو الذى منعه من التصرف مع الفتاة التى تساعد فى شئون البيت .

قدمنا رأينا فى القصة فرفضه فى اباء وصمم ان لايغير حرفا واحدا فيها . اخبرناه اننا لم نفهم عن الشباب سوى أنه مراهق يحس العطش العاطفى وأن الغموض أكثر من الوضوح يسود القصة بل انه أضاف حلما ورفض تفسيره ؟ وهو الذى ينادى بالوضوح الفكرى والفلسفى . كيف يمكن هذا ؟

الغموض كان هو قمة الفن ، هذا كان كلامه . الغموض هو السحاب الذى يغطى أغلب الجبل ويترك لك ثغرات ليتخيل فيها فكرك من خلالها كل شىء . هكذا كان قوله .. لكن الثغرات كانت صغيرة جدا هكذا قلنا له رغم اعجابنا بتفكيره .. فقال رغم اعترافه السابق بعدم احسانه ذلك النوع من القصص :

ــ شكرا جزيلا ، أنا أرفض تغيير شىء آخر .

هكذا كان كثيرا صلبا الى حد الهشاشة . لكن لم يكن هناك محاولة لرفضه فكلنا كنا فى مرحلة تكوين شخصى وفكرى ، وكلنا كنا فى العام النهائى ولم نختبر الحياة بعد ..

وقرأ صديقي قصته وأعجب بها عبد الله وقرأت قصتي فأعجبا بها ايضا . كانت تحدث فى عيادة طبيب نفسانى . قصة صديقى كانت عن رجل يقف فى نافذة فى الصباح يستقبل بداية اليوم وهو يطل على شارع صغير وقد بدأت الحياة تدب فيه رويدا رويدا . دهشت حين اعترف صديقنا بقصور قصته . دهشت دهشة سارة .

★★★

عاد تفكيرى الى موضوع التواضع ، وتساءلت أن كان صديقنا متواضعا حقا . كنت محتاجا لكل ذرة من الفهم والمعلومات فى الفكر والادب ولم اجرؤ على الاجابة على سؤالى بل فضلت ان يطفو السؤال على وجه الحياة بدون اجابة . وقررت الاستعانة بمزيد من الصبر . لم يكن صديقنا فى قمة العناد على الدوام . فعلام كان قوله أن لا أساتذة كبار بيننا ؟ هل كان يخدعنا عن الحقيقة التى يؤمن بها فى قرارة نفسه أم انه شخص غير مرن على الاطلاق ؟ هل هو ينكمش حتى ينفذ من خلال ثقب مسمار سقط من حلتى الحديدية ؟ لكن لماذا البس أنا ايضا حلة حديدية ؟ هذا تلبس ..

لقد رفض السماع لرأينا . هل هو يخدعنا لقد رفض تغيير كتابته او تطويرها . أم هل هو على هذا القدر من الضعف حتى يرفض التطوير . هل صدقت كلمات الرحالة الشاب أن المتواضعون هم اشد الناس كبرياء ؟ هل ستصيب هذه الكلمات من صديقنا الذى نسميه احيانا استاذنا مقتلا ؟ كان يغضب حينما اسميه مداعبا « ناقدى الخاص» . شيء مرير أن يموت هذا العقل الكبير بسهم صغير واحد سممته الكبرياء . شعرت بالخوف مرات ومرات وقررت أن اعيد النظر فى الامر باكمله من جديد حين يحين الوقت ، اما الآن فسأطرح كل شيء جانبا ، فأنا متعب التفكير مرهق من السم الجو الفكرى كله فى البلاد . فالاشتراكية مفروضة فرضا على المفكرين والادباء كبطاقة مرور . والراسمالية هى «البعبع» الذى يخيفون كل واحد يجرؤ على التساؤل ، بالاشارة لمضاره وبلاياه المعروفة .

★ ★ ★

مر عامان سافرت فيهما الى السويد وعشت فيها وقابلت طبيبا امريكيا كان يعمل فى مصر ويحب الاختلاط بالفلاحين ويأكل العدس مثلهم بيديه العاريتين ضد ارادة زملائه ، ولكنى لاحظت أن عنده افكارا عن تغير الاحوال فى مصر مما اخافنى ، كذلك لاحظت أن عنده احلاما

رومانتيكية بعيدة عن الواقع رغم أن الشيب قد انتشر فى شعره . كل هذا رغم ذكريات الحب التى يكنها لمصر وأهلها ، ولاول مرة ظهر التشابه بينه وبين عبد الله وهما طرفى نقيض . ظهر التشابه بين أحلام ومثالية ذلك الطبيب ، واحلام ومثالية عبد الله غير الواقعية . كلاهما يحلم بعالم كامل كل على طريقته الخاصة . كلاهما يحلم بما حلمه الفيلسوف الاغريقى . علمتنى السنين غير ذلك .

عدت بعد السنتين .. سنتين طويلتين حافلين بالدموع والضحكات بالانين والنشوة من السويد . التعداد زاد الى أربعين مليون . القاهرة ازدحمت بشدة . كادت راسى تنفجر وأنا واقف فى ميدان الجيزة ، والاسكندرية جميلة جميلة جميلة .. قريتنا كما هى بترابها ماعدا ما أحضره أبناءها ، التليفزيونات من الدول العربية .

قابلت صديقنا وجلسنا معا فى استراحة الهرم مع أصدقاء آخرين . قرأ نقد أدبى كتبه لعمل ادبى بعد أن ترك أمر الكتابة الادبية ولاحظت بين ماقال جمل غريبة «هذا المكان كله ملكى» . «هذا العالم كنه عالمى»، كان منهمكا فى القراءة بل طلب منى الصمت القاطع التام فانهمكت فى عمل استكتشات على ورق ملون للاحتفاظ بالذكريات الغالية للهرم والمنطقة التي ترقد عند سفح الهرم ومينا هاوس وتأخرت قليلا . غضب وثار واتهمنى بالفشل فى حياتى واللجوء الى الفن المكهرب . ذكرته بالكلام فى عودتنا بالسيارة فى طريق الهرم ففوجئت به ينفى الكلام . لقد نسى ماقال . لقد قال ماقال فى نوبة هستيرية لاننى لم أجلس وانصت اليه . هذا الكلام يدل على مس من الجنون ، هل المح تحولا فى كبريائه واستعلائه ؟ هل تحول هذين الى جنون عظمة ؟ لقد دخل السجن وحقق كثيرا من النجاح فى المجال الادبى . اخذ احساسى بالشك يتحول الى يقين . كان احساسا قاسيا أخذ رويدا رويدا الى داخلى لصعوبة مواجهته . فهو شخص عاشرته سنينا وتحدثت معه أياما طويلة فى اهتماماتنا المشتركه تاركين خلافاتنا جانبا أغلب الوقت ؛ وهاهو ينتهى الى مثل هذه النهاية المؤلمة . فهمت وتذكرت حين توصلت لهذه النتيجة سبب اصطدامنا معا فى قهوة «ريش» . وعلمت ايضا أنه يصطدم بالكثير من الناس يغضب منهم ويغضبون منه . كنا نجلس معا فى قهوة «ريش» وحولنا أصدقاء نتحدث بحرية دون ان يحتاج أحدنا الحذر اللازم فى العهود السابقة . حاول اجبارى على الكلام والمناقشة فلم أرغب فى ذلك ولم أذعن له . وشغلت نفسى بشىء آخر . هاج وماج بدل ان يتحدث الى آخرين لانه دائما يريد أن يتفوه على من حوله ويريد أن يمارس

هواية الجدل التى اتقنها على مر الايام ولو اننى أشك فى اتقانه لها الآن . الكلام عنده هو كل شيء .. هكذا اكتشفت فجاة . هذا سر «قوته» وهذا هو «كعب اخيل» عنده . هو يقبل الأمور ببحثها وتشريحها هو يقتل الحياة ويقتل الفن .. صراع لا ضرورة منه بين «الخط والكلمة» نشب بيننا . هذه هى نظرية الحياة صراع بين الاضداد . رغبته أن يكون محط الانظار هى جزء من جنونه الذى لايريد علاجا له . كان قد قال اننى قد هاجرت هجرة فكرية الى السويد والى الغرب ، قلت له رايى فيه بصراحة متناهية ورفض الاقتناع . أراد أن يمارس لعبته كطفل عملاق فحرمته منها . هاج . لجأت الى تشبيهه بصديق آخر فى السويد يحب القاء النكت القذرة أمام النساء فأهدده بعدم الاستماع اليه والرسم لو لم يكف . هو أيضا يحب أن يكون محط الانظار وحساس وفنان ويجن جنونه حين أرفض الاستماع اليه .

غضب عبد الله بشدة لهذا التشبيه وفوجئت بذلك لانى لم أكن اقصد اهانته بل كنت أشرح الامر بعد أن قلت له اننى لا استطيع مجاراته فى «بلاغته» وأنا فى الواقع «ماكينة زلط» تفرى كل شيء الى قطع متساوية متشابهة .

بعد قليل اهتز عبد الله واعترف انه لايستطيع أن يتحمل كلامى ، سألنى التمهل ؟ فطلبت نفس الشيء منه ..

قال :

ــ انت دائما حساس .

قلت :

ــ نعم .

اعترف لى ونحن فى خلوة معا انه ليس بالقوة والصحة السابقة وانه مريض جدا يتعاطى الآن أدوية وحبوبا مسكنة ومهدئة . حاولت مناقشته فى اساس وظواهر الحياة فرفض التناقش فى هذا السؤال الاساسى ، واصر على مفاهيمه . حاولت افهامه انه ليس كل شيء «صراعا» وحدثته عن فلسفتى عن الفرق بين «المتناقضات المتصارعة» «والمتقابلات» التى تعيش جنبا الى جنب فى توافق فلم يسمع . حدثته عن نظريتى ان روح الله هو العامل المشترك بين التشابك فلم يبال . رغم اعطائى له الكتيب الذى كتبته عن هذه الاشياء والامور . لكن بدأ الود والتقدير يعود الى حديثه معى وتغيرت نبرة كلامه بعد أن شبع من

ممارسة الاستعلاء والكبرياء أمام الآخرين فلم استمر ، كان كل ماأوده هو ايقافه وليس قتله .

واكد شكوكى ماسبق وقال طبيب يشابهه في التفكير عنه انه ينقض الاتزان العاطفى . اعرف كثيرا من الاصدقاء يدهشون من عدم حبى للانتقام لكن فلسفتى أن العفو من أساسيات الحياة . هكذا اكتسبت عشرات من الاصدقاء في السويد وفى مصر . عفوت عن استعلاء عبد الله وكبريائه . أظهر لى تقديرا أكثر مما أظهر للآخرين . كنت على استعداد للتغاضى .. لانى محتاج الى مغفرة الله . والله لايغفر لمن لايغفرون لاخوتهم البشر . لقد اضطررت لتذكير أصدقاء لى اننى لست مصنوعا من الجرانيت كتمثال رمسيس . رغم أن أسمى «تحتمس» وذكرتهم بأن جدى كان فلاحا بسيطا فقيرا مهوبا بين عائلته وفى قريته . واننى ذهبت الى مدرسة فيها أبناء الباشوات وابناء الشحاذين . وعائلتى فيها خليطا من المليونيرات ، والناس الذين يموتون صرعى المرض والاهمال فى عز شبابهم . طلبت من أصدقائى المهاجرين مثلى أن يفهموا اننى لا اريد أن اعتنق الارستقراطية حتى لو تيسر لى ذلك واننى سأصادق كل من يريد أن يصادقنى حتى ولو كانوا متشردين وهيبيز ماداموا يراعو الاصول فلا مجال للكبرياء أمام الموت فى هذه الحياة القصيرة . اتهمنى البعض الآخر بالكسل والتكاسل فنفيت ذلك وقلت ان المادة والشهرة ليست كل شىء . كتبت خطابا لهم فى السويد من اسلو وقلت اننى انسان احيانا ينتصر واحيانا ينكسر ، واننى قد اختبرت قمم التعقل ومهابط الجنون . وناقشت بادب اساتذة فى الجامعة وتحديتهم احيانا وصاحبت ودردشت مع الشحاذين فى الشوارع والبارات ووجدت بعضهم يفهمون أكثر من أشد الناس اناقة ونجاحا .. الحياة ليست فيها أمان كثير وأن المسألة حسب قول أهالينا مسألة قسمة ونصيب وأن الظروف تلعب دورا كبيرا فى حياة الانسان ، رغم ضرورة بذل جهد مهما كانت الظروف . اضطررت لشرح هذه الاساسيات لاصدقاء وكنت ظننت أننا قد عالجنا الاساسيات كلها معا فى شبابنا .

استعادوا كلامى حينما تحادثنا تليفونيا بالعربية وطلبوا منى أن ارسل لهم خطابات طويلة طويلة وان اكتب أو أتحدث عن ذكريات الحاضر والماضى واماني المستقبل . وبدأت بكتابة خطاب عن حياتنا حينما كنا معا فى مصر وعن الجو الذى يحيط بنا فى الاسرات الجامعية فى الآداب والتجارة ، الصداقات والمناقشات والمناوشات ، الغراميات

التى كانت تنشب بين الحين والحين ، المعاناة ، اللذة الفكرية ، ليالى الخميس الحمراء التى كان يخوض غمارها بعض الاصدقاء ، جبروت بعض الآباء وحنو البعض الآخر الذين زرناهم فى منازلهم ، وحتى الآن لم ينته تبادل الرسائل . يريدون نشرها فى كتاب أو توصيلها لاديب صديق ليغمس فيها بمداده .. لكنى أرفض ومتشائم ولا اريد ان ابيع حياتى لتسلية الغرب أو الشرق . وسأظل صديقا للجميع حتى عبدالله القط لو حاول الاتصال بى وانهاء القطيعة بيننا فهى كانت من صنعه .

من أى معدن هو ؟ انه من لحم ودم انا أمرض وهو يمرض . لو استمر على طريقته فسيتحول الى مغنسيوم محترق هش جدا . ان فيه من الخير والشر ، الضعف والقوة مثلما فينا كلنا . يجب الحذر فى معاملته لا النظر اليه فى رعب وخوف .

خميرة أم ملعقة عسل ؟

صحوت مبكرا — قبل أن يصحو الجميع وشعرت بالانتعاش — كنا قد قضينا عطلة نهاية الاسبوع غير عادية ومثيرة ومزدحمة . فقد حضر الينا أصدقاء من أيام الجامعة حمدى وسميحة اللذان حضرا من آخر أيرلندا ليريانا طريقهما الى اسكتلندا بدلا من اختصار الطريق والسفر من ليفربول .

فى نفس الوقت كان يمكث معنا ديف صحفى الموسيقى الحديثة وهو الشاعر أيضا . لم يكن من المقرر نزوله عندنا ولكن عندما علمت بوجوده فى المنطقة غيرت له برنامجه . وقضت بنت حمدى وسميحة الذكية الكثيرة الكلام أكثر من اللازم وقتا رائعا مع بناتنا .

فى السابعة أيقظت الجميع ونزلت لعمل الافطار البسيط فى الطابق السفلى المطبخ مفتوح على الصالة حسب نظام الغرف المفتوحة والآن لاتحس زوجتى بالانقطاع عن بقية المنزل وهى تعمل فى المطبخ . .

اخذت زوجتى الى عملها فى المكتب واصطحبت ابنتى تارا الى قهوة «سبترند» حيث تعمل بعض أيام الاسبوع . دار موتور السيارة من أول مرة لان صديقنا أرنست غير لنا شيئا صغيرا فيها : انا لااعرف شيئا عن السيارات : لكى أكون عادلا يجب ان أقول لا أعرف سوى الشىء القليل . فى مصر كان أخ لى يمتلك سيارة صغيرة ماركة بيبى فورد وكان ذلك لمدة صغيرة .

اظن انه كان هناك سناج على السيارة فى الصباح . كلا لم يكن .

لكننا معتادون أحيانا على السناج الذى يحط عليها عندما يسرع العمال فى عملية شحن السناج المتخلف من محطة توليد الكهرباء ، فهمت

ذلك مرة من سيدة قابلتها وكانت تعمل فى المحطـة . قبلها كنـا نظن السناج تلوث صناعى من المصنع الكبير المجاور للمدينة .

فجاة فتحت أربعة مقاه فى مدينتنا التى كنت أعتبرها غير جميلة وتخلو من مكان مناسب للجلوس عدا البارات . كل المقاهى الجـديدة ديكورها المميز رائع ومسترى العاملات فيها عال ، وتصـادقت معهم كلهم .

ذهبت الى الصحيفة حيث أعمل . حتى مدة قصيرة كنت أكره وظيفتى واتمنى تركها لشىء آخر ، لكن ضمان عنـاء الاطفال وذكرى معاناتى فى طفولتى جعلنى أعى بشدة هذه المخاطرة التى أفكر فيها . كان الفقر قد حرمنى من التعبير عن نفسى وأصابنى بالعصاب .

لم يحب صديقى الشاعر فكرة محاولتى البراعة فى الشعر وعلق على الفكرة وعلى مزاحى وتفاخرى عليه لصـديقته من المدينة الكبيرة المجاورة التى يربطها به علاقة افلاطونية . انا لا اتفاخر بأننى محـرر ممتـاز فى صحيفة المدينة . ديف هـذا لاستقامته لا يصلح لأن يكون موضوعا فى الادب الحديث ، لانه قد هجر حياة البوهيمية منذ مدة ، كذلك هو ليس مخنثا ، وهى الشىء الشائع فى هـذه البلاد فى الادب والادباء أو قل أكثرهم .

انا أحب «دافيد» هذا كثيرا فهو ذكى لطيف فقير وانيق . هـو لايكتب أى كلام من الاتجاهات التافهة فى الموسيقى الحديثة لمجرد اكل العيش لم يدرس . قال مرة قسيس فيلسوف مكسيكى وكاتب مشهور اننا نتعلم كل شىء خارج المدرسة والجامعة . كلام غريب . دافيـد هكذا تعلم بالخبرة . القسيس تكلم فى التليفزيون . ولو اضطررت أن اكتب عن شىء غير طيب فيه فهو أنه لايبدو عليه انه يريد أن ينضج . هو يحب الاضواء ويحب حريته . هو ايضا متباعد قليلا ، لكن لعـل هذا من احد متطلبات شعره الحديث العميق الفهم . هو الآن نجـم صغير .

هذا الصباح قبل عملى لم أمـر على جيف السكير السـابق ذو التسعة والخمسين عاما الذى يطبع على الآلة قليلا ويلعب «البانجو» .

مر الصباح سريعا فى العمل . استمعت الى سكرتيرتى والى ما أردت ان أحكيه لها أثناء فترة الشـاى عن عطلة نهـاية الأسبوع وعن مهرجان الفنون الذى قرأ فيه ديث شعره فى المدينة الكبيرة المجاورة .

فى وقت الغداء طفت القهاوى وجمعت الملصقات التى علقناها فى القهاوى • وبجوار الميدان المقام حديثا الذى يشبه ميادين أوربا قابلت « ثيد » فى الممر الذى يجمله لوحة فسيفساء • بدا « ثيد » الشاب أنيقاً لانه جعل شعره يطول وبنسدل ليخفى الجرح المائل الغائر فى جبهته نتيجة حادث فى الطفولة • قال لى انه سيتزوج ، وقد أنجبت طفلا فعلا • وهو لا يستطيع الحصول على وظيفة من مكتب العمل لانه ليس هناك وظائف خالية • لهـــذا فهو سيحاول فى المدينة المجاورة الكبيرة • هو الآن فى التاسعة عشر وأعرفه منذ عدة أعوام وهو من منطقة الميناء • قابلته فى مقهى مخصص للشباب • أنا لست رجل أعمال خيرية ولكنى ذهبت الى هناك من قبيل الاستطلاع ، قال انه يود أن أعطيه رقم تليفونى • كان دائما يصادف المتاعب مع الأولاد وهو حساس جدا •

وسرت لأدخل القهوة حينما سمعت اسمى ، كان الصوت صوت « جيس » وهو شاب آخر من منطقة بدأ هدمها • والده يسميه « الرجل العجوز » يعامله بلطف حينما يتقابلان لكنه يعيش مع جدته منذ انفصل والداه • سألته أن ينتظر لحظة • خرجت اليه وقال ان عنده اليوم عطلة وانه يعمل فى مشروع حكومى للشباب ويدفعون له خمسة وعشرون جنيها فى الأسبوع مقابل العمل والتمرين على البياض والديكور الداخلى •

سرنا فى المدان ولم أجد الرسام العجوز ذا الشعر الأبيض الكثيف مع رسوماته الزيتية السيئة واسكتشاته • اسكتشاته أحسن من رسومه الزيتية التى يبدو عليها الاهمال والقذار • هو أيضا يحسن رسم وجوه الأطفال • لكن البوليس يطلب اليه أن يغادر المكان لأن الحشد يتجمع حوله حين يرسم وجوه الأطفال • حاولت مرة أن أقنعه أن يتعاطى حبوب ضغط الدم بانتظام خوفا على كليته لكنه لا يذعن عادة • فكرت فى الحصول له على تصريح للرسم فى الميدان لكنى انشغلت بأشياء أخرى • لا يبدو أن عنده القدرة على اتخاذ الخطوة اللازمة بنفسه » ربما هو مزيج من عدم المبالاة والعجز فى النقود والخوف من المكاتب الرسمية • ثيابه رثة ويبدو عليه شىء من الفظاظة لكنه وديع جدا وهو محال الى المعاش • والكل يعرفونه بجسمه الضخم وشعره الأبيض الغزير لكن لا يعرف الجميع من هو • أحيانا يجلس ويرسم الوجوه فى قهوة ، فى محل كبير أو فى المحطة ويدفع له الناس ما يطلبه وهو قليل • أفضى لى أخيرا ان احدى النساء أرادت أخذ الرسم دون دفع شىء بالمرة •

بدأت أتعرف على هذه الشخصيات المستوحشة الجذابة التى تنتمى الى الطبقة الأدنى فى مجتمع المدينة ليس عن طريق عملى فأنا متخصص فى الأخبار الخارجية ، لكن لأننى أنا نفسى كنت أحيانا أشعر بالوحدة مثل الكلب التائه • أحببت مقابلة « جيس » لأملأ الفراغ بين ذهاب زوجتى الى المدرسة فى الساعة الثامنة والنصف وذهابى الى عملى فى التاسعة والربع وكنت أثناء دراستى أتوق الى أن أصبح اخصائيا اجتماعيا وأن أهجر دراسة الأدب الانجليزى فى أرض الوطن • كنت أقول ان دراستى لا علاقة لها بواقع الحياة فى الشرق الأوسط • وأخبر حمدى وسميحة أولادهما فى ايرلندا عن نقدى للجامعة حينما كنت أترنح وأعانى فى الدراسة رغم دخولى بمجموع محترم •

وبينما كنا نتناول ساندويتشات فى المنزل أعطانى الشاب من مقهى منطقة الميناء أخبارا سيئة :

الفونسو الشاب الايطالى فى الاصلاحية تأخر الافراج عنه زيدت مدته لانه تعارك مع آخرين وأرسل الى مكان بعيد بدل الاصلاحية القريبة وكانت لا تبعد أكثر من تسعة أميال عنا •

جون اتهمته امرأة بالاغتصاب وهو يقول انه لم يفعلها •

كوثر متهم بالسرقة والابتزاز • كوثر هو الوحيد الذى يمكن أن يسمى بالمنحرف المحترف وهو يعترف بالأمر فى هدوء • حاولت مساعدته لكن الكثيرين يكرهون عينيه الزائغتين • هو يكره نفسه وأعتقد انه لم يحبه أحد فى حياته •

سألت الشاب أن يظل على اتصال به وأخذته فى سيارتى الى وسط المدينة وأنزلته عند محطة القطار وقدت السيارة مباشرة الى العمل •

فى فترة الشاى قالت لى سكرتيرتى أن « حبيبتى » قد اتصلت بى تليفونيا • كانت تقصد « جيف » كانت امرأة قد نشرت اشاعة عنى من عدة أسابيع مؤداها أن لى عشيقة أتردد عليها كل صباح لان المرأة رأت سيارتى واقفة بانتظام أثناء ذهابها بالأتوبيس الى المدينة • وجيف يسكن فى مساكن شعبية على أطراف المدينة • هدأت صديقتنا التى أخبرتنى بالقصة وهى منزعجة • وضحكت من القصة بشدة وأنا أحكيها للعاملين فى المكتب فى الصحيفة •

سكرتيرتي وهى فتاة ناضجة جدا دؤوبة على العمل ومخلصة قالت معلقة على شرحي « كلهم يحكون كلاما مثل هذا » • استمعت لها مرة وهى تقول ان العلاقات بين الرجال منتشرة في الشرق • لم أغضب ولم أفقد أعصابي وأخبرتها بما أعرف • وأخبرتها ألا تسمي جيف بهذا الاسم والا فهى تنشر اشاعة من نوع آخر • كان الأمر تعميم خاطيء • لكنى أذكر أيضا كيف غضبت حينما أخبرني حمدى عن اعجاب مدير مركز فنون الشديد واعزازه لدافيد الشاعر ورد حمدى باستعلاء متناه ووجه صارم « أرجو ألا يكون عندهم شذوذ جنسى » •

تعرفت على نفس التشكك والتحيز الذى تعاني منه سكرتيرتي •

دارت بيننا مناقشات جادة حينما كان دافيد موجود معنا ، دافيد الهادىء هذا • كنت دائما أوجه الاتهام لحمدى انه دبلوماسى أكثر من اللازم ويوشك على تخطى التحول الى الزيف وعدم الأمانة • واتهمنى هو بانني أبالغ وانني أنغمس أكثر من اللازم وأنفعل وأظهر احتقارا لانضمامى الى حملة حماية البيئة ومحاربة الطاقة الذرية • أما زوجتانا فكالعادة كانتا هادئتين وحاولتا أن توفقا بيننا •

قضينا وقتا رائعا لأن دافيد كان حاضرا ولأن علاقتي بزوجتي على مر الزمن تحولت الى علاقة اعتبارية متبادلة بدلا من الأحوال الخطرة والخلاف المشتعل الأوار الذى حضر لزيارتنا حمدى وسميحة أثناءه منذ عامين • وصار حمدى سعيدا جدا وأعرب عن سعادته البالغة للسعادة الجديدة التى أخبرته بها • هكذا هى طبيعة الانسان • ليس بيننا ملائكة • كلنا لو نظر الينا عن قرب نحمل ضرة من المتناقضات • البعض يسميها بتسامح « تعدد وجوه » والبعض يسميها جزءا من عدم ارتباط الحياة بقوانين وهو التعبير الذى نسميه هنا « بارادوكس » •

أنا أعرف بالضبط • حمدى وأنا نجذب ونجذب أحدنا للآخر • وأنا أيضا واع تمام لتحيز الذكر نحو الأنثى والعكس • وألمح هذا في تحكم زوجتي لغضبها في اختلافاتها مع سميحة •

لكنى كنت على ما يبدو مصرا على افساد الزيارة بكشف طريقة حمدى في تقديم صور « لميع » عن الحياة سواء في الغرب أو الشرق •

بدا انه يتكلم أقل وأقل في حديثه ومناقشاته عن مصر قبل وبعد انتهاء حكم عبد الناصر ، ربما حدث هذا بعد حصوله على شهادته ووظيفته التخصصية جدا •

لعنة الله حاله على أى شىء يضع الناس فى ركن منزو يؤدى بهم الى أن يشاهدوا الحياة ويراقبوها فى سلبية وعن بعد ٠

يقول لى ينبغى أن نلتزم بالقضايا الحقيقية فى صوت معروف ناعم حالم ، لكنه لا يقول بالمرة ما هى القضايا الحقيقية ٠ مع هذا فهو معروف بانه يفقد هدوءه مع أطفاله أمامنا اذا اختلفوا معه وعلى استعداد أن يسبب مواقف متوترة ومحرجة ويرى البعض اننى أتشابه معه كثيرا فى ذلك ، أما أنا فأكاد لا أستطيع التصديق ٠ غريب هو الانسان ٠ بسبب هذا ومع هذا كله ليس لى غنى عنه أو عن سميحة فهم جزء منى لحم ودم من لحمى ودمى ، انهما لى كالماء والهواء ٠

عادت زوجتى الى المنزل فقلت لها :

ـ كل الأولاد الذين نعرفهم من المشروع الاجتماعى فى السجون ٠

أمر غريب « تيد » كان أشد الأولاد اهتزازا مما دعا لارساله الى فصول وحدة دراسة خاصة للأولاد المضطربين غير المتزنين ٠ « تيد » هذا الآن هو أشد الشبان لطفا وأكثرهم انسانية ٠ كنت دائما أقول ان خلف تلك الواجهة الخشنة يوجد قلب رقيق يذوب كالحلاوة : واكتشفت مبكرا جدا انه فنان وان الأولاد الآخرين يتصيدونه لانه لم يكن يستطيع التحكم فى نفسه ودائما يتعارك ٠ اننى أكره ما يصنعه الجنس البشرى لأبنـــاءه الأكثر رقة ٠ يقول دافيد الشاعر فى مقطوعة من مقطوعاته أنه فى وصف الأولاد وينهى المقطوعة بقوله « وحينما أكبر أود أن أصبح ولدا » لكن هل هذا هو الحل ؟ ربما هو الحل بالنسبة لدافيد ٠ أما بالنسبة لى فهى أن أستمر كما أنا « أحارب » من أجل السلام بوسائل سلمية ٠ فاذا انتهى الأمر بنا بالغرق اذا احترقنا كلنا بالسحابة الذرية ، حينئذ لن يكون الخطأ خطئى وسأموت وعلى شفتى ابتسامة ٠

فى المساء ذهبت الى أول اجتماع أحضره مع الجماعة التى ترعى شئون البيئة المهددة والتى كنت قد انضممت اليها منذ سنتين ٠ وحضر لنا خبير من لندن شاب ومتواضع ٠

الحياة ليست « حلم أجوف » كما صاح فى عازف الأكورديون الأسود الطـويل ، الأحمر العينين الذى يقف فى الممر المجاور للميدان ٠ ويغنى بصوته الأجش وعينيه الناتئتين ٠ مرة سكر وتحطم «الأكورديون» منه ٠

انهم لا يقبلون أمثال عازف الأكورديون والرسام العجوز فى مركز

الفنون الذى أعرفه · الهوة الاجتماعية واسعة · صاح مرة فى : لاتكلمنى ·· ضع بنساتك ·· كلمنى فى البيت ·

قلت وأنا أضع عشرة بنسات فى حافظة الأكورديون المفتوحة :

ـ كلا الحياة ليست حلما أجوف ·· أليست هناك أشياء جميلة فى حياتك ؟ قال كلاما مقتضبا ·

صوت آكورديونه دائما يدوى يوم السبت فى الممر ·

لقد بدأنا نكسب معركة انقاذ الحيتان من الفناء · قررت السوق الأوروبية تحريم شراء منتجات صيد الحيتان وهذا كان يكون ستين فى المائة من سوق منتجات الحيتان ·

نسبة ما تبقى من الحيتان فى محيطات العالم ٣ ٪ من العدد الأصلى ·

لكن الوقت ضيق على ما يبدو أمام العالم · فقد خرج كاتب جاد من دراسة جادة بأنه يعتقد أن أمام العالم عشرون أو ثلاثون عاما فقط لمعالجة المشكلات المهولة ، الانفجار السكانى ، المجاعة ، تناقص المعادن ، التكنولوجيا التى تحولت الى وحش لا يمكن التحكم فيه ، ومشاكل أخرى خطيرة ضخمة · تعاطيت حبوبا مهدئة لثلاثة أيام بعد قراءة نصف الكتاب· هذا الكتاب ليس لمن تتخاذل ركبتاهم · عرفنى الكتاب على هيئات تهتم بهذه الموضوعات ·

أحس بأنه ينبغى أن يستمر الكفاح السلمى من أجل السلام · وانه لا ينبغى أن نكتب فقط · بل ينبغى أن يبذل كل منا مما فى طاقته والا حدث ما حدث فى قصة قديمة مؤداها أن مدينة ما أرادت مكافأة حاكمها الصالح بتقديم بلاص عسل نحل له كهدية · وسؤل كل انسان فى المدينة أن يساهم بملعقة عسل واحدة · وفكر شخص فى نفسه قائلا لو وضعت ملعقة ماء فلن يؤثر ذلك فى الأمر · وفعل ذلك ·

فى صباح اليوم التالى وجد بلاص العسل ممتلئا ماء ·

هل عمل يومى فى الصحيفة وخارجها بمثابة ملعقة عسل ·

هل هو ملعقة عسل ضائعة فى مجتمع مدينتنا وأغلبه مادى أو باحث عن اللذة ·

أفضل أن أعتقد أن عملى وحياتى هى أحد الخمائر الصغيرة التى تغير من نوعية الحياة بصفاتها السحرية التى صنعها الله وانها تساهم مع خمائر صغيرة فى تحسين نوعية الحياة فى عالمنا الكبير هذا ·

جمهورية مصر العربية
مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة

رقـــم
- ٢٥٩ -

كتاب أول
رقم
- ٧٩ -

القـــاهرة
١٤٠٣هـ ، ١٩٨٢ م

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٢/٥٠٤٤

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٧٣١٩ ـ ٣٤ ـ ٧